شرح

رسالة العبودية

لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

شرحها

صالح بن فوزان الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة للإفتاء

اعتنى به وأعده للنشر

فهد بن إبراهيم الفعيم

دار ابن الجوزي

شرح

رسالة العبودية

لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤٣ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الفوزان، صالح فوزان بن عبدالله
شرح رسالة العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية ./ صالح بن فوزان ابن عبد الله الفوزان - الدمام ١٤٤٣هـ
٣٠٤ ص ؛ ١٧×٢٤ سم
ردمك: ٦-٠٤-٨٢٩٨-٦٠٣-٩٧٨
١- العبودية لله تعالى ٢- العقيدة الإسلامية أ.العنوان
ديوي ٢٦١ ١٤٤١/٦٠٥٨

رقم الإيداع: ١٤٤١/٦٠٥٨
ردمك: ٦-٠٤-٨٢٩٨-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الرابعة
١٤٤٣هـ

الباركود الدولي: 9786038298046

دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:
الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان
ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣
٨٤١٢١٠٠
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي: ٤٩٧٣
الرياض - ت: ٠٥٩٢٦٦٢٤٩٥
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢
جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩
جوّال: ٠٥٨٣٠١٧٩٥١

لبنان:
بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:
القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

aljawzi@hotmail.com
+966503897671
aljawzi
eljawzi
aljawzi.net

شَرْحُ رِسَالَةِ العُبُودِيَّة

لِشَيْخِ الإسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّة رَحِمَهُ اللهُ

شَرَحَهَا

صالح بن فوزان الفوزان

عُضْو هيئة كبار العُلماء وعُضْو اللجنة الدّائِمَة للإفتاء

اعْتَنَى بِهِ وَأَعَدَّهُ لِلنَّشْرِ

فهد بن إبراهيم الفعيم

دار ابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده، والصلاة السلام على نبينا محمد وآله وصحبه؛ وبعد:

كنت شرحت للطلاب رسالة «**العبودية**» لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله التي وضَّح فيها معنى العبادة، وبيَّن أنها مبنية على أصلين: هما الإخلاص لله ومتابعة الرسول، فالأصل الأول يتضمن ترك الشرك، والأصل الثاني يتضمن ترك البدع والمحدثات، وقد خالف الأصل الأول عبَّاد القبور، وخالف الأصل الثاني الصوفية وغيرهم. واستقام على الأصلين أهل السُّنَّة والجماعة الذين هداهم الله لما اختلف فيه من الحق بإذنه.

وبعد الفراغ من قراءة الرسالة المذكورة وشرحها بما تيسر على ما فيه من نقص وقصور وخطأ، قام الأخ الشيخ فهد بن إبراهيم الفعيم ـ وفقه الله ـ بتفريغ ذلك الشرح من الأشرطة، وعرضه عليَّ فقرأته وصححته ونقّحته حسب استطاعتي.

سائلاً الله أن يثيبني ويثيب الشيخ فهد بن إبراهيم على ما فيه من صواب، ويغفر لنا ما كان فيه من خطأ ونقص، وقد أذنت له بطباعته وأنا أنتظر ممن قرأه أن ينبهني على ما يعينني على إعادة النظر فيه وإصلاح ما فيه من خلل، ليكون مشاركاً في الأجر، ومسدداً لأخيه، وفق الله الجميع للعلم النافع والعمل الصالح.

وصلّى الله وسلّم على نبينا محمد وآله وصحبه.

كتبه

صالح بن فوزان الفوزان

في: ١٤٣٣/٥/٢٥هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه وبعد:
كنت شرحت للطلاب رسالة العبودية لشيخ الإسلام
ابن تيمية رحمه الله التي وضح فيها معنى العبادة، وبين أنها مبنية
على أصلين هما الإخلاص لله ومتابعة الرسول فالأصل الأول
يتضمن ترك الشرك والأصل الثاني يتضمن ترك البدع
والمحدثات. وقد خالف ~~هذين الأصلين~~ الأصل الأول
عباد القبور وخالف الأصل الثاني الصوفية.
واستقام على الأصلين أهل السنة والجماعة الذين هداهم الله
لما اختلف فيه من الحق بإذنه. وبعد الفراغ من قراءة
الرسالة المذكورة وشرحها بما تيسر على ما فيه من نقص
وقصور وخطأ. قام الأخ الشيخ فهد بن إبراهيم الفهيم وفقه الله
بتفريغ ذلك الشرح من الأشرطة وعرضه علي فقرأته
وصححته ونقحته حسب استطاعتي. سائلاً الله أن
يثيبني ويثيب الشيخ فهد بن إبراهيم على ما فيه من صواب
ويغفر لنا ما كان فيه من خطأ أو نقص وقد أذنت له بطباعته
وأنا أنتظر ممن قرأه أن ينبهني على ما يعينني على إعادة
النظر فيه وإصلاح ما فيه من خلل ليكون مشاركاً في الأجر
ومسدداً لأخيه. وفق الله الجميع للعلم النافع والعمل الصالح
وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه

كتبه
صالح بن فوزان الفوزان
في ٢٥/١٠/١٤[illegible]هـ

تقديم

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والتسليم؛ أما بعد:

فرسالة «**العبودية**» لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ رسالة صغيرة الكاغد، عظيمة الفوائد، قيّمة رصينة، تناول فيها رَحِمَهُ اللَّهُ أعمال القلوب، وبيَّن المعنى الحقيقي للعبودية، وخطورة تعلق القلب بما هو زائل من أعراض الدنيا، وفي معرض بيانه رَحِمَهُ اللَّهُ لمعنى العبودية نسف أقوال وشبهات الصوفية والقدرية وغيرهم من أهل البدع، وأبطل تقاسيمهم الفلسفية المحدثة المنكرة، وأكثر النقول رَحِمَهُ اللَّهُ من الأحاديث النبوية والآيات الواضحات، وأقوال الصحابة والسلف الثقات، وأثْراها بالحجج الباهرات، وطرز ذلك من كتب اللغة والنحو، وفصيح اللسان والبلاغة، فاحتوت هذه الرسالة على معانٍ عظيمة وفوائد نفيسة.

ومما زاد هذه الرسالة وضوحاً وبياناً أن قام معالي شيخنا الدكتور صالح بن فوزان الفوزان ـ حفظه الله ـ بشرح هذه الرسالة، وبيّن ألفاظها وحرر معانيها، وفصّل أحوال تلك الفرق وأقوالها وشبهاتها.

فاستأذنت فضيلته بتفريغ ذلك الشرح وتحقيقه وإعداده للنشر، فجمعته من أماكن عدة ومصادر مختلفة، وفرّغته بالكامل ثم عرضته على فضيلته، فأجرى عليه تعديلات مهمة؛ وزاد وأضاف تفصيلات بديعة نافعة ماتعة.

ونظراً لاختلاف نسخ العبودية المطبوعة؛ فقد جعلت نسخة مجموع الفتاوى هي الأصل، وبيّنت في الحاشية بعض التعديلات الواردة على النص.

وفي الختام أسأل الله أن ينفع بهذا الشرح، وأن يجزي شيخنا خير الجزاء على ما بذل فيه من جهد، وأن يغفر لشيخ الإسلام ابن تيمية.

✍ **فهد بن إبراهيم الفعيم**
الرياض: ١١٣٦٥
ص.ب. ٣٩٠٤٨٤
Kere1432@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

العبودية[١]

الشَّرح

[١] الحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله وسلّم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، **أما بعد**:

فالعبادة كلمة عظيمة ولها معنى جليل، وهي الحكمة والغاية التي خلق الله الخلق من أجلها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، فالله إنما خلق الخلق لأجل أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وقام بأرزاقهم وما يحتاجون إليه من أجل أن يستعينوا بذلك على عبادته وحده لا شريك له، وأول نداء في المصحف قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢]. هذا أول نداء في المصحف الشريف من الله ﷻ لجميع الناس، لا يُختص به أحد دون أحد، كل الناس مأمورون بعبادة الله، لا أحد يخرج عن هذا؛ لا الرسل ولا الأنبياء ولا الصالحون والأولياء ولا عامة الناس، كلهم موجه إليهم هذا النداء، فإنه نداء للناس جميعاً، مسلمهم وكافرهم، فـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، كلمة عامة لجميع الناس، فكل الناس عباد لله إما عبودية قهر وإما عبودية اختيار ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٩٣] باختلاف أصنافهم وأجناسهم وطبقاتهم، لا أحد يخرج عن عبودية الله ﷻ؛ لأنه هو الذي خلقهم ورزقهم، فهو المستحق للعبادة دون ما سواه ممن لا يخلق ولا =

سُئِلَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ [البقرة: ٢١]. فَمَا الْعِبَادَةُ[١] وَفُرُوعُهَا؟[٢] وَهَلْ مَجْمُوعُ الدِّينِ دَاخِلٌ فِيهَا أَمْ لَا[٣]؟ وَمَا حَقِيقَةُ الْعُبُودِيَّةِ؟ وَهَلْ هِيَ أَعْلَى الْمَقَامَاتِ

الشَّرح

= يرزق، ولما كانت العبادة بهذه المنزلة فلا بد أن تُعرف ما هي العبادة؛ لأنه ليس لكل أحد أن يعبد الله بما يراه وبما يستحسن.

فالعبادة الصحيحة لها ضوابط شرعية؛ ولهذا توجه هذا السؤال عنها، فسُئل عنها شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ وهو أولى من يجيب عن هذا السؤال العظيم لما أعطاه الله من العلم والفقه في دين الله، والبصيرة النافذة، والله خلق الخلق لعبادته وبيَّن لهم كيف يعبدونه على ألسن رسله. ولكن جاء من انحرف بالعبادة عما جاءت به الرسل إما في الغلو فيها عن الحد المشروع كما عليه الخوارج، وإما بالنقص منها كما عليه المرجئة، وإما بالانحراف بها عن منهج الرسل كما عليه المبتدعة من الصوفية، وإما بالإشراك فيها كما عليه المشركون، وإما بالتكبر عنها كما عليه الملاحدة؛ أما أهل السُّنَّة والجماعة فقاموا بالعبادة على منهج الرسل بالاعتدال والاستقامة، وهذه التقسيمات بيَّنها الشيخ في هذه الرسالة القيمة.

[١] لا بد أن يُعرف ما هي العبادة الصحيحة والعبادة الباطلة، والله بيّن العبادة الصحيحة في القرآن الكريم ووضحها في الآيات والسور، فما علينا إلا أن نأخذ معنى العبادة من الكتاب والسُّنَّة، فهي الذل لله والخضوع مع المحبة لله.

[٢] **أي**: أنواعها، فهي ليست نوعاً واحداً بل لها أنواع كثيرة كما سيأتي.

[٣] **أي**: هل هي شاملة لكل الدين، فكل الدين عبادة؟ نعم، الدين كله عبادة، وهذا سيأتي توضيحه، فالعبادة ليست قاصرة على بعض الشعائر التعبدية.

فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ أَمْ فَوْقَهَا شَيْءٌ مِنَ الْمَقَامَاتِ؟[١] وَلِيَبْسُطُوا لَنَا الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ.

فَأَجَابَ: الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. (الْعِبَادَةُ) هِيَ اسمٌ جامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ[٢]: مِنَ الأَقْوَالِ وَالأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ

الشَّرح

[١] **العبودية هي أعلى المقامات ليس فوقها مقامة من أمور الدين،** فهي دين جميع الرسل وأتباعهم لا أحد يخرج عنها.

وهناك فرق بين العبادة والعبودية، فالعبادة هي: ما أمر الله ـ جلّ وعلا ـ به من الطاعات، وتجنب المحرمات، وأما العبودية فهي تتجه للأشخاص، فالناس كلهم عباد لله، لكن منهم من عبوديته لله طوعية اختيارية، وهم المؤمنون، ومنهم من عبوديته لله قهرية اضطرارية، بمعنى أنه خاضع لأقدار الله وأحكامه وما يجري عليه، فهو عبد لله العبودية العامة، قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣﴾ [مريم: ٩٣]. كلهم عباد لله؛ لكن منهم من عبوديته: طوْعية واختيارية، وهذه هي المطلوبة، ومنهم من عبوديته: قهرية تسخيرية؛ ليست طوعية منه؛ بل هو عبد لله؛ **بمعنى:** أنه فقير إلى الله وأن أقدار الله تجري عليه كما تجري على غيره، وأن مرده إلى الله، لا يخرج عن قبضته.

[٢] **هذا هو تعريف العبادة التفصيلي:** أنها اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال؛ **أي:** من أعمال الجوارح وأعمال القلوب، وأقوال اللسان، فهي شاملة لكل ما يحبه الله ويرضاه، أما ما لا يحبه الله ولا يرضاه فليس عبادة لله، وإن تقرب به من تقرب إلى الله، ما دام أن الله لا يحبه ولا يرضاه. وكيف نعرف أن الله يحب هذا الشيء ويرضاه؟ إذا أمر به، وشرعه فإنه يحبه ويرضاه، وأما إذا لم يأمر به ولم يشرعه؛ فإنه لا يحبه ولا يرضاه. =

وَالظَّاهِرَةِ؛ فَالصَّلَاةُ وَالزَّكَاةُ وَالصِّيَامُ وَالْحَجُّ وَصِدْقُ الْحَدِيثِ وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ، وَبِرُّ الْوَالِدَيْنِ وَصِلَةُ الْأَرْحَامِ وَالْوَفَاءُ بِالْعُهُودِ وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالْجِهَادُ لِلْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ، وَالْإِحْسَانُ إِلَى الْجَارِ وَالْيَتِيمِ وَالْمِسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَالْمَمْلُوكِ مِنَ الْآدَمِيِّينَ وَالْبَهَائِمِ، وَالدُّعَاءِ وَالذِّكْرِ وَالْقِرَاءَةِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِنَ الْعِبَادَةِ.

الشَّرْح

= ومن أعمال الجوارح: الصلاة والصيام والحج وجهاد الكفار والمنافقين، فالكفار يجاهدون بالسلاح، والمنافقون يجاهدون باللسان والحجة، وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هذه كلها من أعمال الجوارح الظاهرة التي ترى وتسمع.

وكذلك الأعمال التي على اللسان كذكر الله وتلاوة القرآن والتسبيح والتهليل والتكبير وغير ذلك من الأعمال التي تظهر وتسمع وتُرى.

والإحسان إلى من أمر الله بالإحسان إليهم من الجيران، وابن السبيل وهو: المسافر المنقطع الذي ليس معه ما يبلغه من الزاد، والسائلين، وفي الرقاب من إعتاق الأرقاء وفك الأسرى، وكذا الإحسان إلى المماليك من الآدميين والبهائم، فمن كان يملك شيئاً من العبيد أو الدواب؛ فليحسن إليهم؛ **بمعنى**: أنه يؤمن لكل صنف ما تحتاج إليه ولا يعذبه، ولا يشق عليه، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء: ٣٦].

كل هذا داخل في الأعمال الظاهرة التي أمر الله بها.

وَكَذَلِكَ حُبُّ اللهِ وَرَسُولِهِ وَخَشْيَةُ اللهِ[١] وَالْإِنَابَةُ إِلَيْهِ[٢]. وَإِخْلَاصُ الدِّينِ لَهُ[٣] وَالصَّبْرُ لِحُكْمِهِ[٤] وَالشُّكْرُ لِنِعَمِهِ[٥] وَالرِّضَا بِقَضَائِهِ[٦]؛ وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ[٧]؛ وَالرَّجَاءُ لِرَحْمَتِهِ وَالْخَوْفُ لِعَذَابِهِ وَأَمْثَالُ

الشَّرْح

[١] **هذه أعمال القلوب**، وأعظمها حب الله ورسوله، فالمحبة من أعمال القلوب، وهي المحركة على الطاعة والامتثال.

الله ـ جلّ وعلا ـ هو الذي يُخشى وحده؛ لأن الخشية عبادة، وهي لا تكون إلا لله ﷻ، قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥٠﴾ [البقرة: ١٥٠].

[٢] **أي**: الرجوع والتوبة إليه ﷻ من الذنوب.

[٣] **أي**: إخلاصه من الشرك، وإخلاصه من البدع والمحدثات؛ لأن الله لا يقبل إلا ما كان خالصاً لوجهه، وصواباً على سُنَّة رسوله ﷺ.

[٤] **أي**: الصبر لحكم الله ﷻ الشرعي والقدري، وهذا من أعمال القلوب أيضاً.

[٥] **الشكر أيضاً من أعمال القلوب**، فالشكر يكون بالقلب، ويكون بالجوارح؛ **أي**: بالعمل، قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]، فالشكر يكون بالقلب والاعتراف لله ﷻ بالنِّعم، والثناء عليه بها، ويكون بالعمل بأن يصرف هذه النعم في طاعة الله ﷻ.

[٦] **أي**: الرضا بقضاء الله ﷻ القدري، وإن كان الإنسان يكرهه نفسيّاً ويتألم منه؛ فما دام يعلم أنه من الله؛ فإنه يرضى بذلك، ولا يسخط ولا يجزع لقضاء الله وقدره.

[٧] **التوكل**: تفويض الأمور إلى الله ـ جلّ وعلا ـ، والتوكل من أعظم أنواع العبادة، قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٣﴾ [المائدة: ٢٣].

ذَلِكَ هِيَ مِنَ الْعِبَادَةِ للهِ[١].

ذَلِكَ أَنَّ الْعِبَادَةَ للهِ هِيَ الْغَايَةُ الْمَحْبُوبَةُ لَهُ وَالْمَرْضِيَّةُ لَهُ الَّتِي خَلَقَ الْخَلْقَ لَهَا[٢]، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، وَبِهَا أَرْسَلَ جَمِيعَ الرُّسُلِ[٣]، كَمَا قَالَ

الشَّرح

[١] كل هذه من أعمال القلوب.

كل الأعمال الظاهرة وإنما ذكر الشيخ نماذج منها، وإلا فهي كثيرة، وكلها عبادة لله ﷻ، ولكن بالشرط الذي ذكره، وهو أن تكون مما يحبه الله ويرضاه. وعلامة ذلك شرعه والأمر به فلا يعبد إلا بما شرع.

[٢] **فالعبادة هي التي يرضاها وخلق الله الخلق من أجلها**، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، خلق الثقلين: الجن والإنس، والإنس هم بنو آدم، والجن: عالم من عالم الغيب ومنهم إبليس لا يعلمهم إلا الله ﷻ، وهؤلاء كلهم عباد لله، وكلهم مأمورون بعبادة الله ـ جلَّ وعلا ـ.

[٣] **الرسول من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه**، فالله أرسل جميع الرسل يدعون إلى عبادة الله، ولما كان الناس لا يعرفون أو لا يعلمون العبادة التي تُرضي الله ﷻ، فإنه ﷻ لم يكلهم إلى اجتهادهم، ولا إلى ظنهم، وإنما أرسل الرسل يُبيّنون لهم كيف يعبدون الله ﷻ، وأنزل الكتب أيضاً لبيان عبادة الله ـ جلّ وعلا ـ.

فقد أرسل الله بالعبادة جميع الرسل، ومما يدل على هذا آيات كثيرة في القرآن الكريم، منها ما هو خاص بأنبياء بأسمائهم، ومنها ما هو عام لجميع الأنبياء؛ وذلك أن نوحاً عليه السلام وهو أول الرسل قال لقومه: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، فقوله: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ فيه أمر، وقوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ فيه نهي عن عبادة غير الله ﷻ، فهذا نوح عليه السلام أول الرسل أمر قومه بعبادة الله وترك عبادة ما سواه. =

نُوحٌ لِقَوْمِهِ: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وَكَذَلِكَ قَالَ هُودٌ وَصَالِحٌ وَشُعَيْبٌ وَغَيْرُهُمْ لِقَوْمِهِمْ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ﴾ [النحل: ٣٦][١]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا

الشَّرح

= وكذلك هود عليه السلام قال لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٦٥]، وكذلك صالح عليه السلام قال لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وكذلك شعيب عليه السلام قال لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ﴾ [الأعراف: ٨٥]، فاتفقت كلمتهم على هذه الجملة: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾، وهذا دليل على أن العبادة عامة لجميع الأمم، وأن الرسل أمروا بها أممهم، وأن الرسل جميعهم نهوا عن الشرك؛ لأن العبادة لا تصح ولا تقبل مع الشرك.

[١] **أرسل الله الرسل للأمم تأمرهم بهذا الأمر العظيم وهو عبادة الله وترك عبادة ما سواه**، وكل عبادة لغير الله فإنها عبادة للطاغوت؛ فالطاغوت: هو كل ما عُبد من دون الله عز وجل، فإن كان المعبود يرضى بهذا فهو طاغوت، وإن كان لا يرضى بهذا؛ كالأنبياء والرسل والأولياء الصالحين فهي عبادة للطاغوت الذي هو الشيطان؛ لأنه هو الذي أمر بها، وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ﴾؛ **أي**: لكل جيل من الناس، ﴿رَّسُولًا﴾ يأمرهم بقوله: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ﴾، وهذا معنى: لا إله إلا الله، ﴿فَمِنْهُم﴾ فمن هذه الأمم ﴿مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ﴾؛ **أي**: من امتثل لهذا الأمر فعبد الله سبحانه وتعالى وأطاع الرسل، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ﴾ [النحل: ٣٦]؛ **أي**: منهم من حقت عليه الضلالة المقدرة عليه في اللوح المحفوظ بسبب عتوه وعناده، فأبى أن يعبد الله سبحانه وتعالى وعبد غيره؛ وذلك بسبب دُعاة الضلال من شياطين الإنس والجن، حيث =

نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ [المؤمنون: ٥٢]، كَمَا قَالَ فِي الآيَةِ الأُخْرَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٥١﴾﴾ [الأنبياء: ٥١][١]. وَجَعَلَ ذَلِكَ لَازِماً لِرَسُولِهِ إِلَى الْمَوْتِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٩][٢].

الشَّرْح

= أحدثوا في الناس الشرك وصرفوهم عن عبادة الله، في حين أن الله هو المستحق للعبادة دون سواه ويجب أن توجه عبادة جميع الخلق له ﷻ، فمن خرج عن هذا وعبد غير الله؛ فإنه خالف ما أمر الله ـ جلّ وعلا ـ به، وما أمرت به رسله من إخلاص العبادة لله ﷻ، وخالف ما خُلق من أجله.

[١] **كما أن الله أمر الناس جميعاً أن يكونوا أمة واحدة**، وأن يوجهوا العبادة لله ﷻ الذي خلقهم، فكذلك الرسل وجَّه الله الأمر إليهم بذلك قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾ [المؤمنون: ٥١]؛ **أي**: من الحلال المباح، ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾؛ **أي**: استعينوا بالأكل من الطيبات على العمل الصالح وهو عبادة الله ﷻ، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨] فأمر الرسل أن يأكلوا من الطيبات؛ **أي**: الحلال المباح، وفي هذا نهي عن الأكل من الحرام، والتغذي بالحرام؛ لأن الأكل من الطيبات يعين على العمل الصالح، والأكل من الحرام يصرف عن العمل الصالح.

[٢] **أي**: جعل عبادة الله وحده لازمة للرسول ﷺ إلى الموت، كَمَا قَال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾، واليقين هو الموت، فليس لعمل المسلم غاية دون الموت، وليس هناك حد من العبادة إذا بلغه الإنسان يترك =

وَبذَلِكَ وَصَفَ مَلَائِكَتَهُ وَأَنْبِيَاءَهُ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ٢٠﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ

الشَّرْح

= العبادة؛ لأنه وصل إلى الله كما تقول غلاة الصوفية، كما يظن الذين يرون أن من بلغ مرتبة من الولاية فإنه تسقط عنه التكاليف ويصير من الخاصة أو من خاصة الخاصة؛ لأنهم بزعمهم وصلوا إلى الله ﷻ، وهذا مخالف لهذه الآية الكريمة، وهل هناك أعظم من الرسول ﷺ؟ وهل هناك أفضل من الرسول ﷺ؟ وهل هناك من هو أعلى مقاماً من الرسول ﷺ؟ ومع هذا أمره الله بمواصلة العبادة إلى الموت، ولم يجعل لها حدّاً إذا وصله ينتهي، وفي ذلك رد على هؤلاء؛ لأن عبادة المسلم تكون ممتدة شاملة لجميع حياة المسلم من الرسل وغيرهم.

كما أن العبادة عامة لجميع الجن والإنس؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، كذلك هي شاملة للملائكة، فالله ـ جلّ وعلا ـ أمر الملائكة بعبادته وحده لا شريك له، وقد امتثلوا أمره.

فَقَال تَعَالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الملائكة، ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ﴾ من الملائكة؛ المقربون، ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ٢٠﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠]، كما قال تعالى: ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعًا ١٧٢ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ١٧٣﴾ [النساء: ١٧٢، ١٧٣]. فالملائكة بجميع أصنافهم يعبدون الله ﷻ ليلاً ونهاراً =

يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾ [الأعراف: ٢٠٦][١].

وَذَمَّ الْمُسْتَكْبِرِينَ عَنْهَا بِقَوْلِهِ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠][٢].

وَنَعَتَ صَفْوَةَ خَلْقِهِ بِالْعُبُودِيَّةِ لَهُ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ

الشَّرْح

= لا يفترون عن عبادته. ومن استكبر عن عبادته فعذابه أليم من الملائكة وغيرهم.

فالعبادة شاملة لكل الخلق بما فيهم الملائكة الكرام عموماً، والملائكة المقربون خصوصاً، والأنبياء والرسل، والأولياء والصالحون، وسائر الخلق، فكلهم عباد الله ﷻ يجب أن يعبدوه وحده لا شريك له وأن لا يشركوا به شيئاً ولا يستكبروا عن عبادته.

[١] هم: **الملائكة المقربون**، ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾، لا يقولون: نحن بلغنا منزلة عالية عند الله فلا نحتاج إلى العبادة، كما تقوله غلاة الصوفية.

[٢] **الله ﷻ ذم المستكبرين عن عبادته**، وتوعدهم بأشد الوعيد، فقال ﷻ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠]، فسمى الدعاء عبادة، فالدعاء هو العبادة، كما قال النبي ﷺ(١)، فهو أعظم أنواع العبادة، وكما قال ﷺ: «**الحَجُّ عَرَفَةُ**»(٢)؛ **أي**: أعظم أركان الحج الوقوف بعرفة، فهذا يدل على عظمة الدعاء، ومكانته، وأنه أعظم أنواع العبادة، وقوله: ﴿دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾؛ **أي**: صاغرين أصغرهم الله وأهانهم لما استكبروا عن عبادته، بخلاف من تواضع لله فإن الله يرفعه.

(١) أخرجه أبو داود (١٤٧٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٨٨٩).

ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝﴾ [الإنسان: ٦][١]، وَقَالَ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] الْآيَاتِ[٢].

وَلَمَّا قَالَ الشَّيْطَانُ: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠]، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝﴾ [الحجر: ٤٢][٣].

الشَّرْح

[١] **وقد وصف الله ﷻ خيار عباده بالعبودية وعدم الاستكبار**، فدل على أنه لا يخرج أحد عن العبودية، فقال في سورة الإنسان: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝﴾ [الإنْسان: ٦]، وهؤلاء هم السابقون المقربون، سماهم عباد الله مع مكانتهم عند الله فهم السابقون المقربون عند الله ﷻ، فدل على أنه لا يخرج أحد عن العبودية مهما بلغ من الفضل والمكانة.

[٢] **وفي سورة (الفرقان) وصف الله ﷻ عباده بأوصاف عظيمة**، بدأها بقوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ فأضافهم لنفسه إضافة تشريف وتكريم لهم، ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾؛ **يعني**: متواضعين، ليس فيهم كبر؛ والكبر لا يتناسب مع العبد، وإنما الذي يتناسب مع العبد التواضع لله تعالى ولخلق الله، قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ [الفرقان: ٦٣]، وهم الحمقى لم يردوا عليهم بالمثل، وإنما يجيبونهم بجواب يسْلمون فيه والمراد بالجهل هنا سوء الخلق، لا الجهل الذي هو عدم العلم، ثم بيَّن جزاءهم في آخر السورة فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾؛ **يعني**: الجنة، ﴿بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ۝﴾ [الفرقان: ٧٥]؛ **أي**: بسبب صبرهم والشاهد من هذا أن الله وصف هؤلاء بأنهم عباد الرحمٰن وذكر ما يصدر منهم من أفعال الخير، فدل على أنه لا أحد يخرج عن عبودية الله مهما بلغ من الفضل.

[٣] **لعن الله إبليس**؛ **أي**: طرده من رحمته بسبب كفره واستكباره عن =

وَقَالَ فِي وَصْفِ الْمَلَائِكَةِ بِذَلِكَ: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٨][١].

الشَّرْح

= أمر الله حينما أمره أن يسجد لآدم، قال إبليس: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ ولم يقل: أني غويت فاغفر لي فاحتج بالقدر على المعصية، ولم يتب من الذنب كما تاب آدم عليه السلام واعترف بذنبه ثم قال: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾ توعد أن ينتقم من بني آدم؛ إلا أنه استثنى بعضهم فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾، فقال الله ـ جلّ وعلا ـ: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ٣٩ ـ ٤٢]. فالذين يعتصمون بالله ويلجؤون إلى الله، لا يتمكن الشيطان من إغوائهم وإضلالهم؛ لأن الله يعصمهم حيث أخلصوا عبادتهم لله.

[١] كان بعض الناس في الجاهلية يزعمون أن الملائكة بنات الله، كما أن النصارى يقولون: المسيح ابن الله، فنسبوا لله ولداً: بنين وبنات، والله منزه عن ذلك، قال تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ٣، ٤]، وقال: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون: ٩١]، فالله سبحانه وتعالى ليس له ولد ولا والد؛ لأنه لا بداية له ولا نهاية؛ لأنه كامل لا يحتاج إلى أحد، وإنما يحتاج المخلوقون إلى الولد لفقرهم وحاجتهم، أما الله ـ جلّ وعلا ـ فإنه غني، له ما في السمٰوات وما في الأرض ولا يحتاج إلى ولد؛ ولأن الولد جزء من الوالد، وشبيه بالوالد، والله ـ جلّ وعلا ـ ليس له جزء من خلقه ولا شبيه له، فلا أحد من الخلق يكون من الله ـ جلّ وعلا ـ، أو بعضاً من الله، ولا شبيهاً له، قال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦]. فوصف الملائكة بأنهم عباد مع شرفهم ومكانتهم، فلم يخرجوا عن العبودية، ولم يكونوا ولداً لله سبحانه وتعالى.

وَقَال تَعَالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مَرْيَم: ٨٨ ـ ٩٥][١].

الشَّرح

[١] **فاليهود والنصارى والمشركون وصفوا الله بأنه اتخذ ولداً،** فاليهود يقولون: عزير ابن الله، والنصارى يقولون: المسيح ابن الله، وأهل الجاهلية من المشركين فيهم من يقول: الملائكة بنات الله.

ولفظ الولد يشمل الذكر والأنثى، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾؛ **أي**: منكراً عظيماً، وكذبا وبهتاناً، ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾، فالسمٰوات والأرض والجبال تستنكر أن يكون للرحمٰن ولد، وأن يوصف الله بأنه اتخذ ولداً، ﴿وَمَا يَنبَغِي﴾؛ **أي**: لا يليق ولا يجوز في حقه سبحانه وتعالى أن يتخذ ولداً؛ لأن ذلك تنقص لله عز وجل، ووصف له بأن له شريكاً، وله جزءاً من عباده، وأنه محتاج إلى الولد، ثم بيّن سبحانه وتعالى أن الجميع عباد لله، فقال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ كل من في السمٰوات من المؤمنين والكفار، ومن الصالحين والفجار، ومن الملائكة، ومن الشياطين والجن والإنس، كل من في السمٰوات والأرض عباد لله سبحانه وتعالى، لم يتخذ منهم ولداً؛ لأنهم عباده، والعبد لا يكون ولداً لمعبوده ـ يأتونه يوم القيامة عباداً منقادين له، يتلقون الجزاء على أعمالهم، ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ واحداً واحداً يحاسبهم ويجازيهم، فلو كان أحد منهم ولداً لله سبحانه وتعالى لخرج عن هذه العبودية، فالعبد لا يجوز أن يكون ابناً لله ـ جلّ وعلا ـ، والمملوك لا يكون ابناً للمالك.

وَقَالَ تَعَالَى عَنِ الْمَسِيحِ الَّذِي ادُّعِيَتْ فِيهِ الْإِلَهِيَّةُ وَالنُّبُوَّةُ[١](١):

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزخرف: ٥٩]، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «**لَا تُطْرُونِي[٢] كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ[٣] فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ[٤] فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ[٥] وَرَسُولُهُ**»(٢).

الشَّرْح

[١] قد ادعت النصارى الألوهية في المسيح وأنه ابن الله، ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، والله ـ جلّ وعلا ـ نفى ذلك، فقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ﴾؛ **أي**: المسيح ما هو إلا عبد، فكيف يكون العبد ابناً لله ﷻ، ﴿أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾، أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة، والآيات العظيمة، ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ قدوة يقتدى به في الخير.

[٢] نهى ﷺ هذه الأمة أن تغلو في حقه، وترفعه فوق منزلته في العبودية، كما فعلت النصارى في حق المسيح، حيث رفعوه من منزلة البشرية والعبودية إلى منزلة الألوهية، فقالوا: المسيح ابن الله، وسموه بالإله والابن، تعالى الله عما يقولون، فهذا شرك وكفر أكبر؛ ولهذا حذر ﷺ هذه الأمة من الغلو في حقه، والزيادة في مدحه ورفعه فوق منزلته، من منزلة العبودية إلى منزلة الألوهية، وقال: «**لَا تُطْرُونِي**..» والإطراء: هو الزيادة في المدح.

[٣] حيث غلت في مدحه.

[٤] **ثم قال** ﷺ: («**فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُه**»)، لا يخرج عن العبودية، وكفاه بذلك شرفاً أن يكون عبداً لله.

[٥] هذا فيه رد على الغلاة الذين يرفعونه فوق منزلة العبودية، (وَرَسُولُهُ) هذا رد على النفاة الذين ينكرون رسالة محمد ﷺ. =

(١) كذا في النسخ والذي يظهر لي أنها البنوة.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٤٥).

وَقَدْ نَعَتَهُ اللهُ[١] (بِالْعُبُودِيَّةِ) فِي أَكْمَلِ أَحْوَالِهِ فَقَالَ فِي الْإِسْرَاءِ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾[٢] [الإسراء: ١]، وَقَالَ فِي الْإِيحَاءِ: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾[٣] [النجم: ١٠]، وَقَالَ فِي الدَّعْوَةِ[٤]:

الشَّرْح

= فالواجب على المسلم أن يقول: محمد عبد الله ورسوله، وكفاه بذلك شرفاً وفخراً، أما مسألة الألوهية والعبادة فإنما هي لله ﷻ، لا حق فيها لأحد، لا لملك مقرب ولا لنبي مرسل.

[١] **أي: وصفه، اللهُ (بِالْعُبُودِيَّةِ)؛ أي:** وصف الله رسوله ﷺ بأنه عبد وليس إلٰهاً **(فِي أَكْمَلِ أَحْوَالِهِ)** في مقام الإسراء، قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، في مقام الوحي والتنزيل، قال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان: ١]، ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، فهذه أشرف المقامات، ومع هذا لم يخرج فيها ﷺ عن حد العبودية لله ﷻ.

[٢] **وفي مقام الإسراء: (قَال تَعَالى:** ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾: أسرى الله بعبده محمد ﷺ، نقله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى على البراق في ليلة واحدة، ثم عرج به؛ **أي:** رفعه إلى السماء، ثم نزل إلى بيت المقدس، ثم عاد إلى مكة في ليلة واحدة، بقدرة الله ﷻ، فأي شرف أعظم من هذا؟ ومع هذا لم يخرج ﷺ عن صفة العبودية لله.

[٣] **أي: جبريل،** ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾؛ **أي:** إلى عبد الله محمد ﷺ ﴿مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾، وذلك ليلة المعراج، ففي مقام الوحي الذي هو أشرف المقامات وصف الله رسوله بالعبودية.

[٤] **أي: الدعاء لله** ﷻ: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۝١٩﴾؛ **أي:** لما قام يدعو الله في مكة ويصلي صاروا يتعجبون من ذلك؛ لأنهم لم يعتادوا عليه؛ لأنهم كانوا يدعون الأصنام والأوثان والأحجار والأشجار.

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ١٩﴾ [الجن: ١٩]، وَقَالَ فِي التَّحَدِّي[١]: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣].

فَالدِّينُ كُلُّهُ دَاخِلٌ فِي الْعِبَادَةِ وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: «**أَنَّ جِبْرِيلَ لَمَّا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي صُورَةِ أَعْرَابِيٍّ وَسَأَلَهُ عَنْ الْإِسْلَامِ قَالَ: أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْت إِلَيْهِ سَبِيلاً. قَالَ: فَمَا الْإِيمَانُ؟ قَالَ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ. قَالَ: فَمَا الْإِحْسَانُ؟ قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّك تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاك، ثُمَّ قَالَ فِي آخِرِ الْحَدِيثِ: هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ**»(١) فَجَعَلَ هَذَا

الشَّرح

[١] **أي: في مقام تعجيز الجن والإنس أن يأتوا بمثل هذا القرآن**؛ لأنهم كانوا يقولون: إن القرآن من كلام محمد افتراه وأعانه عليه قوم آخرون، وليس كلام الله، فقال الله ـ جلّ وعلا ـ ما دمتم تقولون: إن هذا القرآن هو كلام محمد، وهو بشر مثلكم؛ فأنا أتحداكم أن تأتوا بسورة واحدة مثل هذا القرآن ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٣﴾؛ **أي**: ادعوا من يشهد لكم أن هذه السورة التي جئتم بها تشبه القرآن، فلما لم يقدروا على شيء من ذلك، دل على أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، والشاهد في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾؛ **يعني**: محمداً ﷺ، وهذا في مقام التحدي والتعجيز للمشركين، ومع هذا لم يخرج ﷺ عن حد العبودية لله ﷻ.

(١) أخرجه مسلم (٨).

كُلَّهُ مِنَ الدِّينِ[١].

وَ(الدِّينُ) يَتَضَمَّنُ مَعْنَى الْخُضُوعِ وَالذُّلِّ. يُقَالُ: دِنْته فَدَانَ؛ أَيْ[٢]: ذَلَّلْته فَذَلَّ. وَيُقَالُ: يَدِينُ اللهَ وَيَدِينُ للهِ؛ أَيْ: يَعْبُدُ اللهَ وَيُطِيعُهُ وَيَخْضَعُ لَهُ فَدِينُ اللهِ عِبَادَتُهُ وَطَاعَتُهُ وَالْخُضُوعُ لَهُ.

وَ(الْعِبَادَةُ) أَصْلُ مَعْنَاهَا: الذُّلُّ أَيْضاً[٣]، يُقَالُ: طَرِيقٌ مُعَبَّدٌ[٤] إذَا كَانَ مُذَلَّلاً قَدْ وَطِئَتْهُ الْأَقْدَامُ.

الشَّرح

[١] **أي: دين الله ـ جلّ وعلا ـ كله داخل في العبادة**، فالعبادة والدين بمعنى واحد، فالدين كله عبادة، والعبادة كلها دين.

والدليل على ذلك أن جبريل عليه السلام لما جاء إلى النبي ﷺ بحضرة أصحابه في صورة رجل، وقال: (**أَخْبِرْنِي عن الإسْلامِ**)، فأخبره ﷺ بأركان الإسلام الخمسة، قال: (**فَأَخْبِرْنِي عن الإيمَانِ**) فأخبره بأركان الإيمان الستة، قال: (**فَأَخْبِرْنِي عن الإحْسَانِ**)، فأخبره عن الإحسان، قال: (**فَأَخْبِرْنِي عن السَّاعَةِ**)، قال ﷺ: (**ما الْمَسْؤولُ عنها بِأَعْلَمَ من السَّائِلِ**)؛ **أي**: كلنا لا نعلم ذلك قال: (**فَأَخْبِرْنِي عن أمارتها**)؛ **أي**: علامتها، فأخبره ﷺ بشيء من علاماتها، ثم في نهاية الحديث قال: (**فإنه جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ**)، فدل على أن الإسلام والإيمان والإحسان كل ذلك داخل في الدين، وأنّ الدين شامل لكل أنواع العبادة من إسلام وإيمان وإحسان.

● **معنى العبادة:**

[٢] **العبادة هي الذل والانقياد لله عز وجل**، يُقال: دان لله؛ **أي**: ذلَّ لله وخضع وانقاد له سبحانه وتعالى، فدين الله عبادته وطاعته والخضوع له، كلها بمعنى واحد.

[٣] **أي: أصل العبادة في اللغة الذل**، يُقال: طريق معبد؛ **أي**: مذلل، فالعبادة في اللغة معناها الذل والخضوع.

[٤] **هذا التعبير على ألسنة الناس اليوم**، يُقال: طريق معبد؛ **يعني**: ممهد، طرقته الأقدام حتى تذلل.

لَكِنَّ الْعِبَادَةَ الْمَأْمُورَ بِهَا[١] تَتَضَمَّنُ مَعْنَى الذُّلِّ وَمَعْنَى الْحُبِّ[٢]، فَهِيَ تَتَضَمَّنُ غَايَةَ الذُّلِّ للهِ بِغَايَةِ الْمَحَبَّةِ لَهُ؛ فَإِنَّ آخِرَ مَرَاتِبِ الْحُبِّ هُوَ التَّتِيمُ، وَأَوَّلُهُ «الْعَلَاقَةُ» لِتَعَلُّقِ الْقَلْبِ بِالْمَحْبُوبِ، ثُمَّ «الصَّبَابَةُ» لِانْصِبَابِ الْقَلْبِ إِلَيْهِ، ثُمَّ «الْغَرَامُ» وَهُوَ الْحُبُّ اللَّازِمُ لِلْقَلْبِ، ثُمَّ «الْعِشْقُ» وَآخِرُهَا «التَّتِيمُ»[٣]، يُقَالُ: تَيْمُ اللهِ[٤]؛ أَيْ: عَبْدُ اللهِ؛ فَالْمُتَيَّمُ الْمُعَبَّدُ لِمَحْبُوبِهِ.

الشَّرْح

[١] **أي: أما العبادة في الشـرع فهي غير العبادة في اللغة،** فالعبادة في الشرع معناها الذل لله، والخضوع لله ﷻ، والانقياد له والطاعة له.

[٢] **فعبادة الله ـ جلّ وعلا ـ تتضمن معنيين أساسيين:** غاية الذل مع غاية الحب، لا تكون ذلّاً فقط بدون محبة، ولا تكون محبة فقط بدون ذل، فإن من ذل لشـيء ولم يحبه لا يكون عابداً له، فتعريف العبادة إجمالا أنها غاية الذل مع غاية الحب. فالإنسان يذل للجبابرة والطواغيت، ولكنه لا يحبهم، فلا يُقال: هذه عبادة، وكذلك الإنسان يحب زوجته، ويحب أولاده، ولكنه لا يذل لهم فلا يُقال: إنه عبدهم، فالعبادة ما اجتمع فيها: غاية الذل مع غاية الحب، كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في النونية:

وعبادة الرحمٰن غاية حبه ... مع ذل عابده هما قطبان
وعليهما فلك العبادة دائر ... ما دار حتى قامت القطبان

[٣] **الحب درجات يصل عددها إلى عشـر؛** لأن المحبة تتفاوت، بعضها أشد من بعض، فغايتها وآخرها التتيم، وهذا إنما يكون لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأن المحبة الكاملة لا تكون إلا لله ﷻ، أما المحبة لغير الله فتكون ناقصة، ولا يكون معها ذل ولا خضوع.

[٤] **هذا اسم من أسماء قبائل العرب،** وأصل تيم الله: عبد الله، =

وَمَنْ خَضَعَ لِإِنْسَانٍ مَعَ بُغْضِهِ لَهُ لَا يَكُونُ عَابِداً لَهُ[١]، وَلَوْ أَحَبَّ شَيْئاً وَلَمْ يَخْضَعْ لَهُ لَمْ يَكُنْ عَابِداً لَهُ[٢]، كَمَا قَدْ يُحِبُّ وَلَدَهُ وَصَدِيقَهُ، وَلِهَذَا لَا يَكْفِي أَحَدُهُمَا فِي عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى[٣]، بَلْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ اللهُ أَحَبَّ إِلَى الْعَبْدِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَنْ يَكُونَ اللهُ أَعْظَمَ عِنْدَهُ مَنْ كُلِّ شَيْءٍ، بَلْ لَا يَسْتَحِقُّ الْمَحَبَّةَ وَالذُّلَّ التَّامَّ إِلَّا اللهُ. وَكُلُّ مَا أُحِبَّ لِغَيْرِ اللهِ فَمَحَبَّتُهُ فَاسِدَةٌ، وَمَا عُظِّمَ بِغَيْرِ أَمْرِ اللهِ كَانَ تَعْظِيمُهُ بَاطِلاً، قَال الله تَعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التَّوْبَة: ٢٤][٤].

الشَّرح

= فتيم الله؛ **أي**: المحب لله غاية الحب وأكمل الحب، فلا يُقال: تيم فلان، وإنما يُقال: تيم الله؛ **أي**: عبد الله.

- **شرح تعريف العبادة:**

[١] **كما يخضع الإنسان للظَّلَمة والجبابرة؛** خوفاً منهم.

[٢] **كذلك من أحب شيئاً ولم يخضع له لم يكن عابداً له؛** فالمحبة وحدها لا تكون عبادة، والذل وحده لا يكون عبادة، بل لا بد من اجتماع الأمرين: غاية الذل، مع غاية الحب.

[٣] **وَلِهَذَا لَا يَكْفِي أَحَدُهُمَا فِي عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى** لا يكفي الذل فقط، أو الحب فقط في عبادة الله، بل لا بد أن يجتمعا في عبادة الله.

[٤] **أي: لا بد أن يحب الله غاية الحب**، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ =

فَجِنْسُ الْمَحَبَّةِ تَكُونُ للهِ وَرَسُولِهِ كَالطَّاعَةِ[١]؛ فَإِنَّ الطَّاعَةَ للهِ وَرَسُولِهِ[٢] وَالْإِرْضَاءَ للهِ وَرَسُولِهِ[٣] ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾

الشَّرح

= يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤]، الإنسان يحب هذه الأشياء الثمانية: الآباء، والأبناء، والإخوان، والأزواج، والعشيرة، والأموال، والتجارة، والمساكن، يحب هذه الأشياء محبة طبيعية، ولا يُلام على ذلك، ولكن إن قدمها على محبة الله؛ **أي**: قدَّم ما تحبه نفسه على ما يحبه الله؛ فإنه يكون عاصياً لله، أما إذا قدم ما يحبه الله فإنه لا يُلام على هذا، فالذين تخلفوا عن الهجرة من أجل الشح بأوطانهم أو محبة لأموالهم توعدهم الله فقال: ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾؛ **أي**: انتظروا ما يحل بكم ولذلك ترك المهاجرون أموالهم وديارهم وخرجوا وليس معهم شيء، مع أنهم يحبون هذه الأشياء. ولكنهم تركوها لله ﷻ، فقدموا ما يحبه الله على ما تحبه نفوسهم؛ ولذلك نالوا الشرف والثناء والجزاء العظيم من الله ﷻ، وأشاد الله بذكر المهاجرين في القرآن؛ لأنهم تركوا أولادهم وأوطانهم وأموالهم وآثروا رضا الله ﷻ، فمن أحب محبوباته وقدمها على محبة الله؛ فإنه داخل في الوعيد، وأما من قدم محبة الله على محبوباته؛ فهذا الصادق في إيمانه، وله الجزاء الحسن من الله.

[١] **هناك أشياء مشتركة بين الله والرسول** ﷺ، وهناك أشياء خاصة بالله ﷻ، ومن الأشياء المشتركة: المحبة، قال: (**فَجِنْسُ الْمَحَبَّةِ تَكُونُ للهِ وَرَسُولِهِ**): فالمحبة تكون مشتركة لله ولرسوله، يحب الله ويحب الرسول ﷺ. ومحبة الرسول تابعة لمحبة الله.

[٢] **وكذلك الطاعة أيضاً تكون مشتركة**، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢].

[٣] **وكذلك الإرضاء مشترك يكون لله ولرسوله**، فيرضي الله ويرضي الرسول ﷺ، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾.

[التوبة: ٦٢]، وَالْإِيتَاءُ للهِ وَرَسُولِهِ[١] ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ٥٩].

وَأَمَّا «الْعِبَادَةُ»[٢] وَمَا يُنَاسِبُهَا مِنَ التَّوَكُّلِ؛ وَالْخَوْفِ؛ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَلَا يَكُونُ إِلَّا للهِ وَحْدَهُ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ[٣] كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟[٤] فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤].

الشَّرح

[١] **الإيتاء هو**: الإعطاء، فيكون من الله ومن رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ٥٩]، وأما الحَسْب فهو لله وحده. ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]؛ لأنه من أنواع العبادة.

- **العبادة وما يتعلق بها خاصة بالله:**

[٢] **العبادة خاصة لله**، ليس للرسول ﷺ ولا غيره منها شيء، فالعبادة بجميع أنواعها من الخوف، والرجاء، والتوكل، والرغبة، والرهبة كلها لله. وهذه عبادات قلبية.

[٣] **فقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يدعو أهل الكتاب إلى كلمة سواء؛ أي**: عدل بينهم وبين المسلمين، وهذه الكلمة هي: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾: فدل على أن العبادة لله وحده، فلا يُعبد المسيح، ولا يُعبد أحد غير الله ـ جلّ وعلا ـ ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾؛ **أي**: شيء من الأشياء، ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ **أي**: لا نتخذ من دون الله من يحللون ويحرمون من عند أنفسهم؛ لأن التحليل والتحريم حق لله ﷻ، وكذلك لا نتقرب لأحد من الخلق بأي نوع من أنواع العبادة، لا الذبح ولا النذر ولا غير ذلك من أنواع العبادة، فكل ذلك خاص بالله ﷻ.

[٤] ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾؛ **أي**: أعرضوا ولم يقبلوا وأصروا على ما هم عليه =

وَقَال تَعَالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَنٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [التوبة: ٥٩][١]، فَالْإِيتَاءُ للهِ وَالرَّسُولِ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧].

وَأَمَّا الحسب وَهُوَ الْكَافِي فَهُوَ اللهُ وَحْدَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣][٢]، وَقَال

الشَّرْح

= ﴿فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾؛ **أي**: أننا مسلمون لله ـ جلّ وعلا ـ، لا للمسيح ولا لغيره، فنحن عباد لله، وعبادتنا لله وحده لا شريك له، ونتبرأ من عبادة ما سواه، وهذا فيه وجوب المفارقة بين المسلمين والمشركين.

[١] **هذه الآية فيها ما هو مشترك بين الله ورسوله**، وفيها ما هو خاص بالله دون غيره، فقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَنٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ الإيتاء مشترك. ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ الحسب: هو الكافي وهو خاص بالله؛ ولهذا لم يقل: حسبنا الله ورسوله. ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾: الإيتاء مشترك، ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ الرغب خاص بالله؛ لأنه نوع من أنواع العبادة فلا يدخل فيه الرسول ﷺ، لم يقل: إنا إلى الله ورسوله راغبون، فذكر ﷻ في هذه الآية الأشياء المشتركة بين الله والرسول والأشياء الخاصة بالله ﷻ وحده.

[٢] **بعد وقعة أُحد لما رحل المشركون إلى مكة**، وعاد المسلمون إلى المدينة، أراد المشركون أن يروعوا المسلمين فأرسلوا إليهم مندوباً يقول: إنا سنرجع عليكم ونقتل بقيتكم، فأمر النبي ﷺ أصحابه الذين خرجوا معه إلى أُحد أن يخرجوا، فخرج بهم ﷺ ونزل في حمراء الأسد ينتظرهم، فلما بلغ =

تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٦٤﴾ [الأنفال: ٦٤][١]؛ أَيْ: حَسْبُك وَحَسْبُ مَنِ اتَّبَعَك اللهُ.

وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الْمَعْنَى حَسْبُك اللهُ وَالْمُؤْمِنُونَ مَعَهُ فَقَدْ غَلِطَ غَلَطاً فَاحِشاً، كَمَا قَدْ بَسَطْنَاهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾[٢] [الزمر: ٣٦].

الشَّرْح

= المشركين خروج الرسول ﷺ وأصحابه خافوا وهربوا، وقال المسلمون وهم في هذه الحالة الحرجة ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ١٧٣﴾، فقصروا الحسب على الله، ونعم الوكيل المفوض إليه وهو الله ـ جلّ وعلا ـ هذه عقيدتهم لم تتغير، ولم يرهبهم تهديد الكفار؛ لأن الله حسبهم وهو كافيهم، وماذا كانت العاقبة: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ١٧٤﴾ [آل عمران: ١٧٤]، وهذا نتيجة التوكل والصدق مع الله ﷻ وعدم الإصغاء لتهديد العدو.

[١] **أَيْ: حَسْبُك وَحَسْبُ مَنِ اتَّبَعَك الله** فيكون ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ معطوفاً على ضمير المخاطب (الكاف) في قوله: ﴿حَسْبُكَ﴾: فالله حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين، فهو الحسب الواحد لهم ﷻ ليس له شريك، وليس المراد حسبك الله والمؤمنون فليس ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ معطوفا على لفظ الجلالة، وإنما هو معطوف على ضمير المخاطب في محل جر في قوله: ﴿حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾؛ **أي**: وهو حسب من اتبعك من المؤمنين، فكلكم حسبكم الله.

[٢] **أي: من فسر الآية بهذا فهو غالط غلطاً فاحشاً**؛ لأن الاعتماد على الحسب وهو الكافي نوع من أنواع العبودية، والعبودية لا تكون إلا لله، فهو الحسب والكافي والدليل على ذلك أن الله قال: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾: هذا استفهام تقرير، فهو الكافي وحده، ولهذا قال: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [الزمر: ٣٦] فالله هو الكافي وحده، فلا تخف من غيره.

[توضيح ما سبق]:

وَ«تَحْرِيرُ ذَلِكَ» أَنَّ الْعَبْدَ يُرَادُ بِهِ «الْمُعَبَّدُ» الَّذِي عَبَّدَهُ اللهُ فَذَلَّلَهُ وَدَبَّرَهُ وَصَرَّفَهُ[١]، وَبِهَذَا الاِعْتِبَارِ الْمَخْلُوقُونَ كُلُّهُمْ عِبَادُ اللهِ[٢] مِنَ الْأَبْرَارِ وَالْفُجَّارِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْكُفَّارِ وَأَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ؛ إِذْ هُوَ رَبُّهُمْ كُلُّهُمْ وَمَلِيكُهُمْ، لَا يَخْرُجُونَ عَنْ مَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَكَلِمَاتِهِ

الشَّرْح

[١] **العبودية على قسمين:**

• **القسم الأول: عبودية عامة:** لكل من في السمٰوات والأرض من المؤمنين والكفار، فالكفار عباد لله؛ **بمعنى:** أنهم تجري عليهم مقادير الله ﷻ، وينفذ بهم قضاؤه، فكلهم بهذا الاعتبار عباد لله: المؤمن والكافر، فالكافر لا يخرج عن العبودية؛ فهو عبد لله عبادة قهرية، قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾﴾ [الفرقان: ١٧]. فالذين أشركوا بالله وعبدوا الملائكة يقول الله للملائكة: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ﴾؛ **يعني:** أمرتُموهم بعبادتكم والملائكة نفوا أنهم أمروهم بذلك، ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الفرقان: ١٨]، وسمى الله المشركين عباده وهي عبودية عامة.

• **القسم الثاني: عبودية خاصة:** وهي عبودية المؤمن لله، فالمؤمن عبد لله عبادة اختيارية؛ لأن العبودية الخاصة الشرعية خاصة بالمؤمنين دون الكفار، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، هذه عبودية خاصة، وهي عبودية المؤمنين لله، الذين انقادوا لشرعه وأفردوه بالعبادة.

[٢] **أي: باعتبار التذليل والتدبير الخلق كلهم عباد الله مؤمنهم وكافرهم؛** لأنهم مدبرون مذللون تجري عليهم أحكام الله القدرية.

التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ[١]؛ فَمَا شَاءَ كَانَ وَإِنْ لَمْ يَشَاءُوا. وَمَا شَاءُوا إنْ لَمْ يَشَأْهُ لَمْ يَكُنْ، كَمَا قَالَ تعالَى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ۝٨٣﴾ [آل عمران: ٨٣][٢]. فَهُوَ سُبْحَانَهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ[٣] وَخَالِقُهُمْ وَرَازِقُهُمْ وَمُحْيِيهِمْ وَمُمِيتُهُمْ وَمُقَلِّبُ قُلُوبِهِمْ وَمُصَرِّفُ أُمُورِهِمْ لَا رَبَّ لَهُمْ غَيْرُهُ وَلَا مَالِكَ لَهُمْ سِوَاهُ وَلَا خَالِقَ إلَّا هُوَ سَوَاءٌ اعْتَرَفُوا بِذَلِكَ أَوْ أَنْكَرُوهُ[٤]، وَسَوَاءٌ عَلِمُوا ذَلِكَ أَوْ جَهِلُوهُ؛ لَكِنَّ أَهْلَ الْإِيمَانِ مِنْهُمْ عَرَفُوا ذَلِكَ وَاعْتَرَفُوا بِهِ؛ بِخِلَافِ مَنْ كَانَ جَاهِلاً بِذَلِكَ؛ أَوْ جَاحِداً لَهُ مُسْتَكْبِراً عَلَى رَبِّهِ لَا يُقِرُّ وَلَا يَخْضَعُ لَهُ؛ مَعَ عِلْمِهِ بِأَنَّ اللهَ رَبُّهُ وَخَالِقُهُ. فَالْمَعْرِفَةُ بِالْحَقِّ إذَا كَانَتْ مَعَ الِاسْتِكْبَارِ عَنْ قَبُولِهِ وَالْجَحْدِ لَهُ كَانَ عَذَاباً عَلَى صَاحِبِهِ[٥]، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ

الشَّرْح

[١] وتجري عليهم: (**كَلِمَاتِهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ**)؛ **أي**: كلماته القدرية.

[٢] **وقال تعالى**: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هذا من الإسلام العام، الذي هو الخضوع والانقياد القهري.

[٣] **جميعاً**: المؤمن والكافر، يتصرف فيهم ﷻ ويدبرهم.

[٤] **فهم عباد لله** سواء اعترفوا بذلك أو أنكروه.

[٥] **أي**: معرفة الحق إذا كان مع استكبار عن الحق فهو عذاب على صاحبه؛ لأنه يعرف الحق ولا يعمل به، فليس له حجة عند الله ﷻ.

عَاقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ١٤][١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة: ١٤٦][٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: ٣٣][٣].

فَإِنِ اعْتَرَفَ الْعَبْدُ أَنَّ اللهَ رَبُّهُ وَخَالِقُهُ؛ وَأَنَّهُ مُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ[٤] مُحْتَاجٌ

الشَّرْح

[١] **أي**: جحدوا بآيات الله وهم مستيقنون بها في أنفسهم استكباراً عنها لأجل الظلم والتعالي على الناس.

[٢] **أي: اليهود والنصارى**، ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾؛ **أي**: محمداً ﷺ، ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾، ومع هذا كفروا به، فهذا كفر عن عناد واستكبار مع المعرفة.

[٣] **فهم يعلمون صدق الرسول** ﷺ، ومع هذا يستكبرون عن طاعته واتباعه، فهم ظالمون للحق والعياذ بالله.

[٤] **التوحيد ثلاثة أنواع**:

• **النوع الأول**: توحيد الربوبية، أن يعرف العبد ربه، وأنه هو الذي خلقه ورزقه وأحياه ويميته ويدبر أمره، فهذا هو توحيد الربوبية الذي يعترف كل أحد أنه لا شريك لله في ذلك، والآيات في هذا كثيرة.

• **النوع الثاني**: توحيد الألوهية، وهو إفراد الله تعالى بالعبادة، فلا يُعبد غيره، ولا يُدعى سواه، ولا يستغاث ولا يستعان إلّا به فيما لا يقدر عليه إلا هو، ولا ينذر ولا يذبح ولا ينحر إلّا له، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]. وهذا أقر به المؤمنون الموحدون وجحده المشركون.

• **النوع الثالث**: توحيد الأسماء والصفات، وهو داخل في النوع =

إِلَيْهِ عَرَفَ الْعُبُودِيَّةَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِرُبُوبِيَّةِ اللهِ، وَهَـذَا الْعَبْدُ يَسْأَلُ رَبَّـهُ فَيَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ وَيَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ، لَكِنْ قَـدْ يُطِيعُ أَمْرَهُ؛ وَقَـدْ يَعْصِيهِ، وَقَـدْ يَعْبُدُهُ مَعَ ذَلِكَ؛ وَقَـدْ يَعْبُدُ الشَّيْطَانَ وَالْأَصْنَامَ. وَمِثْلُ هَـذِهِ الْعُبُـودِيَّةِ لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَهْـلِ الْجَنَّـةِ وَالنَّـارِ[١]، وَلَا يَصِيرُ بِهَا الرَّجُلُ مُؤْمِناً، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦][٢]،

الشَّرْح

= الأول، وهو: وصف الله تعالى وتسميته بما وصف وسمّى به نفسه، وبما وصفه وسمّاه به رسوله ﷺ في الأحاديث الصحيحة، وإثبات ذلك له من غير تشبيه ولا تمثيل ومن غير تأويل ولا تعطيل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١].

(فَإِنِ اعْتَرَفَ الْعَبْدُ أَنَّ اللهَ رَبُّهُ وَخَالِقُهُ؛ وَأَنَّهُ مُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ..): هذا توحيد الربوبية، وهو ضروري، والإنسان معترف به ضرورة، وكل الخلق معترفون به، أما توحيد الألوهية فإن من الناس من اعترف به وأقامه وهم الرسل وأتباعهم، ومن الناس من يأتي ببعض أنواع العبادة ويشرك بأنواع أخرى من العبادة، وهم المشركون، وأكثر الناس.

[١] **أي: إن هذه العبودية القاصرة التي يعبد فيها الله ببعض أنواع العبادة ويشرك به في البعض الآخر لا تنفع العابد،** فقد كان للمشركين شيء من توحيد الألوهية حيث كانوا يحجون ويعتمرون، وكانوا يتقربون إلى الله ببعض أنواع العبادات، ولكنهم يشركون في الأنواع الأخرى؛ كالذبح والنذر والدعاء والاستغاثة وغير ذلك، فلا فرق بين هذا الذي أتى ببعض توحيد الألوهية وبين الذي جحده كله، فلا تفريق بينهما في الحكم؛ لأن الدين كله لله ﷻ، ولا يصلح الدين إلا أن يكون كله خالصاً لله، قال تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [غافر: ١٤].

[٢] **أي: يـؤمنون بتوحيد الربوبيـة،** ولكنهم يشركون في توحيد =

فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يُقِرُّونَ أَنَّ اللهَ خَالِقُهُمْ وَرَازِقُهُمْ وَهُمْ يَعْبُدُونَ غَيْرَهُ[١]، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨][٢]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤ ـ ٨٩][٣].

وَكَثِيرٌ مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ فِي الْحَقِيقَةِ وَيَشْهَدُهَا يَشْهَدُ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ[٤]،

الشَّرْح

= الألوهية، فجمعوا بين الإيمان بتوحيد الربوبية، والشرك بتوحيد الألوهية، فلم ينفعهم إيمانهم بتوحيد الربوبية.

[١] **فهم جمعوا بين الإيمان بإقرارهم بتوحيد الربوبية**، وبين الشرك بدعاء غير الله، والنذر لغير الله.

[٢] **أي**: أيها الرسول لو سألت المشركين ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، وكذا لو سألتهم من خلقهم ليقولن الله، فهم يعلمون أنه لا يقدر على هذا إلا الله ﷻ، ولكنهم عبدوا غير الله ﷻ ممن لا يخلق شيئاً.

[٣] **هذه الآيات من سورة (المؤمنون)** تدل على أن المشركين معترفون بتوحيد الربوبية، ولكنهم جحدوا توحيد الألوهية أو بعضه، فلم يدخلهم إقرارهم بتوحيد الربوبية أو ببعض توحيد الألوهية في الإسلام، ولم ينجهم من النار، فالمدار على توحيد الألوهية توحيداً خالصاً من الشرك.

[٤] **من غلاة الصوفية الذين يشهدون توحيد الربوبية ويعترفون بأن الله هو الخالق، الرازق**، وأن المُلك له ﷻ، ويسمون هذا بالشهود، شهود توحيد الربوبية، ويظنون بزعمهم أن هذا يكفيهم ويسمون أنفسهم بالعارفين، وأن الإنسان إذا عرف هذا النوع فإنه يكفيه، وقد وصل إلى الله ولا يحتاج إلى العبادات، وإنما العبادات للعوام الذين لم يصلوا إلى معرفة الربوبية بزعمهم. =

وَهِيَ «الْحَقِيقَةُ الْكَوْنِيَّةُ» الَّتِي يَشْتَرِكُ فِيهَا وَفِي شُهُودِهَا وَمَعْرِفَتِهَا الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ[١]، وَالْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، وَإِبْلِيسُ مُعْتَرِفٌ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ؛ وَأَهْلُ النَّارِ[٢]، قَالَ إِبْلِيسُ: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾

الشَّرْح

= فهؤلاء لما كان صنيعهم مثل صنيع المشركين من الوقوف عند توحيد الربوبية وترك توحيد الألوهية، صاروا مثل المشركين ولا فرق، وربما يكونون أسوأ من المشركين؛ وهذا المذهب مذهب خبيث، وهو الوقوف عند توحيد الربوبية فقط، وقول: إن توحيد الألوهية والعبادة للعوام الذين لم يصلوا إلى هذه الحقيقة وأما العارفون فلا يحتاجون إلى ذلك؛ لأنهم وصلوا إلى الله فتسقط عنهم التكاليف، ويسمون أنفسهم الخاصة أو خاصة الخاصة، والحقيقة أن الشيطان تلاعب بعقولهم، وأغواهم كما أغوى المشركين في الجاهلية.

● **الإقرار بتوحيد الربوبية يشترك فيه المؤمن والكافر:**

[١] **أي: إن توحيد الربوبية لا يجحده أحد**، وإن جحده أحد في الظاهر فإنه معترف به في الباطن؛ كفرعون الذي قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: ٢٤]، ولكنه في الباطن مقر به، وإنما جحده من باب المكابرة والعناد؛ ولهذا قال له موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء: ١٠٢]، رد عليه موسى عليه السلام بهذا الرد، أنه يعلم في قلبه وقرارة نفسه أن هذه الآيات التسع التي أعطاها الله لموسى من الله عز وجل هو الذي أنزلها، ولكن المكابرة والعناد حملته على الجحود والعياذ بالله، وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

[٢] **معترفون بها**، فإبليس معترف بتوحيد الربوبية، وقد قال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحجر: ٣٩]، وقال: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾ دعا ربه أن يؤخر حياته إلى يوم القيامة لكي يضل بني آدم، والشاهد أنه قال: ﴿رَبِّ﴾ فاعترف أن الله ربه، ولم ينفعه ذلك =

[الحجر: ٣٦]، وَقَالَ: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحجر: ٣٩]، وَقَالَ: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [ص: ٨٢]، وَقَالَ: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ [الإسراء: ٦٢]. وَأَمْثَالَ هَذَا مِنَ الْخِطَابِ الَّذِي يُقِرُّ فِيهِ بِأَنَّ اللهَ رَبُّهُ وَخَالِقُهُ وَخَالِقُ غَيْرِهِ[١]؛ وَكَذَلِكَ أَهْلُ النَّارِ[٢] قَالُوا: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا

الشَّرح

= وهذا أيضاً فيه اعترافه بتوحيد الربوبية، وَقَال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ أقسم بعزة الله، وهذا اعتراف منه بتوحيد الربوبية، وَقَال لربه: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ يخاطب الله بهذا الخطاب الكفري القبيح، وهو يعلم أن الله له الفضل يؤتي فضله من يشاء لا حجر على الله ـ جلّ وعلا ـ، وكان الواجب أن يدعو الله أن يكرمه وأن يعزه، أما أن يعترض على الله ـ جلّ وعلا ـ، فهذا كفر بالله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأنه لا اعتراض على الله ـ جلّ وعلا ـ.

[١] كقوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ [صَ: ٧٦، الأعراف: ١٢]، فاعترف بأن الذي خلقه هو الله، وهذا إقرار منه بتوحيد الربوبية، لكن زعم إبليس أن النار أحسن من الطين، وهذا من انتكاس الفهم، فالطين أحسن من النار؛ لأن الطين طيب ينبت ويثمر وهو بارد، وأما النار فهي محرقة ولا تنتج شيئاً، ولهذا قيل: أول من قاس القياس الفاسد إبليس.

[٢] **فأهل النار اعترفوا بتوحيد الربوبية وهم في النار**، قَالوا: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٦]. يدعون الله يقولون: ربنا، فهم مقرون بتوحيد الربوبية، ومع هذا قال الله لهم: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٨ ـ ١١٠].

شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ﴾ [الأنعام: ٣٠][١]. فَمَنْ وَقَفَ عِنْدَ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ وَعِنْدَ شُهُودِهَا، وَلَمْ يَقُمْ بِمَا أُمِرَ بِهِ مِنَ الْحَقِيقَةِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي هِيَ عِبَادَتُهُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِإِلَهِيَّتِهِ وَطَاعَةِ أَمْرِهِ وَأَمْرِ رَسُولِهِ كَانَ مِنْ جِنْسِ إِبْلِيسَ وَأَهْلِ النَّارِ[٢]؛ وَإِنْ ظَنَّ مَعَ ذَلِكَ أَنَّهُ مِنْ خَوَاصِّ أَوْلِيَاءِ اللهِ وَأَهْلِ الْمَعْرِفَةِ وَالتَّحْقِيقِ[٣] الَّذِينَ يَسْقُطُ عَنْهُمُ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ الشَّرْعِيَّانِ[٤]، كَانَ مِنْ أَشَرِّ أَهْلِ الْكُفْرِ

الشَّرْح

[١] **فقد أقروا بربوبيته وأقسموا به** ﷻ، فهم معترفون به في الدنيا والآخرة.

[٢] **أي**: من وقف عند توحيد الربوبية وقال: إنه يكفي، وقول المصنف: **(وَلَمْ يَقُمْ بِمَا أُمِرَ بِهِ مِنَ الْحَقِيقَةِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي هِيَ عِبَادَتُهُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِإِلَهِيَّتِهِ وَطَاعَةِ أَمْرِهِ وَأَمْرِ رَسُولِهِ كَانَ مِنْ جِنْسِ إِبْلِيسَ وَأَهْلِ النَّارِ)**، لا شك أن هذا مذهب غلاة الصوفية، وهو من جنس مذهب المشركين ومذهب إبليس، لا ينفع شيئاً.

[٣] **غلاة الصوفية يقولون**: نحن من خواص أولياء الله؛ ولذلك يسمون أنفسهم: (الخواص)، و(خاصة الخاصة)؛ لأنهم بزعمهم عرفوا الله ﷯، مع أن الله عرفه أبو جهل وأبو لهب وعرفه المشركون ولم ينفعهم ذلك، لما لم يخلصوا له العبادة.

[٤] **فهم يقولون**: إذا وصل الإنسان إلى معرفة الله ومشاهدة توحيد الربوبية، فلا حاجة إلى أنه يصلي ويصوم ويتجنب المحرمات، فكل شيء مباح له، الزنا واللواط والسرقة وكل شيء؛ لأنه رفعت عنه التكاليف وليس عليه واجبات ولا تحرم عليه محرمات؛ لأنه عرف الله ووصل، وصار من خواص أولياء الله، وهو في الحقيقة من خواص جند إبليس.

وَالْإِلْحَادِ[١].

[زعمهم أن مِنْ أولياء الله مَنْ تسقط عنه التكاليف الشرعية]:

وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الْخَضِرَ وَغَيْرَهُ سَقَطَ عَنْهُمُ الْأَمْرُ لِمُشَاهَدَةِ الْإِرَادَةِ[٢]، وَنَحْوِ ذَلِكَ كَانَ قَوْلُهُ هَذَا مِنْ شَرِّ أَقْوَالِ الْكَافِرِينَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ[٣].

الشَّرْح

[١] **بل أشر من إبليس**؛ لأن إبليس لم يعترض على كل الأوامر والنواهي وإنما حسد آدم عليه السلام وحمله الحسد على الكفر بالله عز وجل.

[٢] **يقولون بأن الخضر وهو العبد الصالح أو النبي على قولٍ**؛ الذي ذكره الله في سورة (الكهف) حيث قال فيه: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف: ٦٥]، يقولون: قد سقطت عنه التكاليف لأنه لم يتبع موسى عليه السلام وليس بحاجة إلى أن يتبع الأنبياء، وقد كذبوا على الخضر؛ لأن الله قال فيه: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف: ٦٥]، فهو من عباد الله المتقين، وقال بعض العلماء: إنه نبي؛ لأن له معجزات، فهو عبد من عباد الله وليس كما تدعي الصوفية أنه وصل إلى الله، وإنه ليس بحاجة إلى اتباع موسى؛ لأنه قد خرج عن شريعة موسى. والجواب: أن شريعة موسى ليست عامة بل هي خاصة بقومه، وإنما شريعة محمد ﷺ هي العامة، أما بقية الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فشرائعهم خاصة بأقوامهم؛ ولهذا قال ﷺ في الخصائص التي أعطيها: «**وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً**»(١)، فالخضر لم يؤمر باتباع موسى، ولا تشمله رسالة موسى عليه السلام.

[٣] **لأن أمر الله وتشريعاتِ الله لا تسقط عن أحد مهما بلغ من المكانة،** =

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥).

حَتَّى يَدْخُلَ فِي «النَّوْعِ الثَّانِي» مِنْ مَعْنَى الْعَبْدِ وَهُوَ الْعَبْدُ بِمَعْنَى الْعَابِدِ فَيَكُونُ عَابِداً للهِ لَا يَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ؛ فَيُطِيعُ أَمْرَهُ وَأَمْرَ رُسُلِهِ، وَيُوَالِي أَوْلِيَاءَهُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ؛ وَيُعَادِي أَعْدَاءَهُ[١].

وَهَذِهِ الْعِبَادَةُ مُتَعَلِّقَةٌ بِإِلَهِيَّتِهِ، وَلِهَذَا كَانَ عُنْوَانُ التَّوْحِيدِ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»[٢] بِخِلَافِ مَنْ يُقِرُّ بِرُبُوبِيَّتِهِ وَلَا يَعْبُدُهُ: أَوْ يَعْبُدُ مَعَهُ إِلَهاً آخَرَ[٣]،

الشَّرْح

= ومطلوب من كل العباد أن يقوموا بها ولا يُعفى منها أحد، والأنبياء والرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ من أكثر الناس عبادة، وأفضلهم محمد ﷺ كان يصلي ويصوم ويجاهد ويحج ويعتمر وكان يقوم حتى تتفطر قدماه من طول القيام، وكان يتعبد لله بأنواع العبادات التي لا يطيقها أحد غيره ﷺ، ولم يقل: إني وصلت إلى الله، ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَۚ﴾ [النساء: ١٧٢].

[١] **لا يكون الإنسان عبداً مؤمناً بالله إلا إذا قام بالدين بجميع شرائعه التي يستطيعها**، فإذا قام بجميع شرائع الدين التي يستطيعها صار مسلماً وعبداً لله، أما إذا تمرد عليها وعصى؛ فإنه ليس عبداً لله العبودية الخاصة، وإن كان عبداً لله العبودية العامة الكونية.

[٢] **هذه الكلمة، (لا إلٰه إلا الله)**، معناها: لا معبود بحق إلا الله، فمعنى الإلٰه: المعبود، والألوهية: هي العبادة، ومن عُبِد غير الله فإنه معبود بالباطل لا بحق؛ ولهذا قال ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج: ٦٢]. فالعبادة حق لله ـ جلّ وعلا ـ، ومعنى (لا إلٰه إلا الله) لا معبود حقّاً إلا الله ـ جلّ وعلا ـ، وما عداه فهو معبود بالباطل.

[٣] **أي: من لا يعبده أصلاً فهو المستكبر**، ومن يعبده ويعبد معه غيره فهو المشرك، فكثير من الناس اليوم يصومون ويصلون ويحجون ويذكرون الله =

فَالْإِلَـهُ [هو] الَّذِي يألهه الْقَلْبُ[١] بِكَمَالِ الْحُبِّ وَالتَّعْظِيمِ وَالْإِجْلَالِ وَالْإِكْرَامِ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَهَـذِهِ الْعِبَادَةُ هِيَ الَّتِي يُحِبُّهَا اللهُ وَيَرْضَاهَا[٢]، وَبِهَا وَصَفَ الْمُصْطَفَيْنَ مِنْ عِبَادِهِ[٣]، وَبِهَا بَعَثَ رُسُلَهُ[٤].

الشَّرْح

= ويسبحونه؛ ولكن يعبدون مع الله غيره بأنواع من العبادات؛ كالذبح والنذر والاستغاثة وغير ذلك مما يفعلونه عند القبور تقرباً إلى الموتى، ويشركون بالله الشرك الأكبر مع أنهم يعبدون الله ببعض أنواع العبادات كما عليه أهل الجاهلية، فهذا لا يكفي وعباداتهم باطلة؛ لأن الشرك يُبطل الأعمال، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥]، فالشرك يحبط الأعمال.

[١] **الإله هو المألوه** بأنواع العبادة وأعظمها الحب في القلب بأن يألهه القلب؛ **يعني**: يُحب الله ﷻ، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

[٢] **ولهذا قال الشيخ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في بداية هذه الرسالة: (الْعِبَادَةُ اسمٌ جامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ: مِنْ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ)**: هذه هي العبادة التي يحبها الله ويرضاها، أما العبادة التي لا يحبها الله ولا يرضاها فهي عبادة المشرك الذي يعبد الله ويعبد معه غيره.

[٣] **المصطفين جمع**: مصطفى، والمصطفى هو المختار من الأنبياء وغيرهم قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ [صَ: ٤٧]. فهم يعبدون الله وحده ولا يشركون به شيئاً فلا يتركون عبادة الله بحجة أنهم قد وصلوا كما تقوله الصوفية الضلال.

[٤] **أي: بعثهم بعبادة الله المستمرة**، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال: =

وَأَمَّا «الْعَبْدُ» بِمَعْنَى الْمُعَبَّدِ سَوَاءٌ أَقَرَّ بِذَلِكَ أَوْ أَنْكَرَهُ؛ فَتِلْكَ يَشْتَرِكُ فِيهَا الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ[١].

وَبِالْفَرْقِ بَيْنَ هَذَيْنِ النَّوْعَيْنِ يُعْرَفُ الْفَرْقُ بَيْنَ «الْحَقَائِقِ الدِّينِيَّةِ» الدَّاخِلَةِ فِي عِبَادَةِ اللهِ وَدِينِهِ وَأَمْرِهِ الشَّرْعِيِّ الَّتِي يُحِبُّهَا وَيَرْضَاهَا وَيُوَالِي أَهْلَهَا وَيُكْرِمُهُمْ بِجَنَّتِهِ[٢]، وَبَيْنَ «الْحَقَائِقِ الْكَوْنِيَّةِ» الَّتِي يَشْتَرِكُ

الشَّرْح

= ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: ٣٦]، فهذه رسالة الرسل عليهم السلام، جاؤوا بالأمر بعبادة الله وحده لا شريك له. والاستمرار عليها إلى الممات.

[١] هذا كما سبق بيانه.

[٢] **الناس مع التوحيد ثلاثة أنواع:**

• **النوع الأول:** من أقر بالربوبية ولم يعبد الله فإنه كافر من أتباع إبليس حيث آمن بربه ولم يفعل ما أمر به.

• **النوع الثاني:** (**وَمَنِ اكْتَفَى بِهَا فِي بَعْضِ الْأُمُورِ دُونَ بَعْضٍ...**)؛ من الناس من يرفض التوحيد ويأتي ببعضه كمن يعبد الله ويعبد معه غيره فهو مشرك.

• **النوع الثالث:** من يعبد الله وحده لا شريك له لكن عنده بعض الذنوب التي دون الشرك. فهذا عنده (**نَقَصَ مِنْ إِيمَانِهِ وَوِلَايَتِهِ للهِ بِحَسَبِ مَا نَقَصَ مِنَ الْحَقَائِقِ الدِّينِيَّةِ**)؛ وقد يكون النقص كثيراً وقد يكون قليلاً؛ فالمعاصي التي دون الشرك تُنقص الإيمان والتوحيد، سواء كانت كبائر أو صغائر، فالكبيرة التي دون الشرك تنقص حقيقة الإيمان ولا تبطله كما يقول الخوارج وأتباعهم، والذنوب الصغائر تنقص كمال الإيمان، خلافاً للمرجئة الذين يقولون: لا يضر مع الإيمان معصية.

فِيهَا الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ وَالْبَرُّ وَالْفَاجِرُ الَّتِي مَنِ اكْتَفَى بِهَا وَلَمْ يَتَّبِعِ الْحَقَائِقَ الدِّينِيَّةَ كَانَ مِنْ أَتْبَاعِ إِبْلِيسَ اللَّعِينِ وَالْكَافِرِينَ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ. وَمَنِ اكْتَفَى بِهَا فِي بَعْضِ الْأُمُورِ دُونَ بَعْضٍ، أَوْ فِي مَقَامٍ أَوْ حَالٍ نَقَصَ مِنْ إِيمَانِهِ وَوِلَايَتِهِ لله بِحَسَبِ مَا نَقَصَ مِنَ الْحَقَائِقِ الدِّينِيَّةِ. وَهَذَا مَقَامٌ عَظِيمٌ فِيهِ غَلِطَ الغالطون[١]، وَكَثُرَ فِيهِ الِاشْتِبَاهُ عَلَى السَّالِكِينَ، حَتَّى زَلَقَ فِيهِ مِنْ أَكَابِرِ الشُّيُوخِ الْمُدَّعِينَ التَّحْقِيقَ وَالتَّوْحِيدَ وَالْعِرْفَانَ مَا لَا يُحْصِيهِمْ إِلَّا اللهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ وَالْإِعْلَانَ.

وَإِلَى هَذَا أَشَارَ الشَّيْخُ «عَبْدُ الْقَادِرِ» رَحِمَهُ اللَّهُ[٢] فِيمَا ذُكِرَ عَنْهُ فَبَيَّنَ أَنَّ كَثِيراً مِنَ الرِّجَالِ إِذَا وَصَلُوا إِلَى الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ أَمْسَكُوا[٣] إِلَّا أَنَا

الشَّرح

[١] **وهو معرفة أمر التوحيد والعبادة**، ومعرفة من هو المشرك ومن هو الموحد، ومن هو المؤمن ومن هو الكافر، ومن هو ناقص الإيمان هذا مقام عظيم يحتاج إلى اهتمام، ويحتاج إلى تأمل ودراسة لئلا يزل الإنسان فيه فيهلك، وقد زل فيه كثير من الناس كالمعتزلة والأشاعرة، فالخطر في هذا عظيم؛ ولهذا تعد هذه الرسالة ـ رسالة العبودية ـ رسالة قيمة وجيدة، ينبغي العناية بها ودراستها وفهم ما فيها، وتفهيم الناس لها.

[٢] **الشيخ عبد القادر الجيلاني** رَحِمَهُ اللَّهُ، من علماء الحنابلة ومن أئمتهم، وهو عابد من العباد، وله كتاب في المذهب الحنبلي اسمه (الغُنية) مطبوع مشهور، وقد غلا فيه الصوفية والقبورية وادعوا له أنه ينفع ويضر كغلوهم في الأولياء والصالحين، وجعلوا له طريقة يسمونها (القادرية): وهي طريقة صوفية نسبوها إليه، وهو بريء منها؛ لأنه على المنهج السليم، والمنهج المستقيم، لكن غلا فيه كثير من الصوفية، وجعلوه شيخ طريقة، وهو بريء من ذلك.

[٣] **يعني**: أمسكوا واستسلموا إلى القضاء والقدر في تبرير المعاصي، =

فَإِنِّي انْفَتَحَتْ لِي فِيهِ رَوْزَنَةٌ فَنَازَعْتُ أَقْدَارَ الْحَقِّ بِالْحَقِّ لِلْحَقِّ؛ وَالرَّجُلُ مَنْ يَكُونُ مُنَازِعاً لِلْقَدَرِ لَا مَنْ يَكُونُ مُوَافِقاً لِلْقَدَرِ[١].

الشَّرْح

= ويقول أحدهم: قدر الله عليّ المعصية والذنوب، وأنا معذور في ذلك، وهذا غلط، فلا يجوز أن يقف عند القدر بهذا المعني، بل يفعل ما أمره الله به من طاعته؛ لأنه يقدر على هذا، فلديه اختيار وقدرة وإمكانيات، يستطيع بها أن يصلي، ويستطيع أن يصوم، ويستطيع أن يحج، ويستطيع أن يتصدق ويجاهد في سبيل الله، فعنده قدرة لكنه لم يستعملها استسلاماً للقدر.

والإيمان بالقضاء والقدر واجب، وهو ركن من أركان الإيمان، ولكن ليس معناه أن يعتمد الإنسان على القضاء والقدر ويترك العمل؛ بل يفعل ما شرعه الله له، وأقدره عليه.

[١] **الروزنة**: الكوة، وهي الفتحة في الجدار، ومعنى كلام عبد القادر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنه لم يقف عند القضاء والقدر ويترك العمل، وإنما أخذ بالأمر والشرع، وعالج القضاء والقدر بالقضاء والقدر أيضاً؛ لأن فعل الطاعة وترك المعصية من قضاء الله وقدره، فكيف يأخذ ببعض القضاء والقدر ويترك البعض الآخر، فكل شيء قدَّره الله عَزَّ وَجَلَّ، الطاعة والمعصية والإيمان والكفر، كله بقدر الله عَزَّ وَجَلَّ، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل: ٥ - ١٠]. وقال النبي ﷺ: «**اعمَلُوا فَكُلٌ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**»(١) وذلك لما قال الصحابة: «فيم العمل وقد قدر علينا السعادة والشقاوة؟!». وقول عبد القادر كقول عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «نَفِرُّ من قدر الله إلى قدر الله»(٢).

- **فالناس في هذا على أقسام:**

١ - من الناس من يقر بتوحيد الربوبية ويقف عنده وهو أن الله هو =

(١) أخرجه البخاري (٤٩٤٩).

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٢٩).

وَالَّذِي ذَكَرَهُ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ[١] هُوَ الَّذِي أَمَرَ اللهُ بِهِ وَرَسُولُهُ؛ لَكِنَّ كَثِيراً مِنَ الرِّجَالِ غَلِطُوا، فَإِنَّهُمْ قَدْ يَشْهَدُونَ مَا يُقَدَّرُ عَلَى أَحَدِهِمْ مِنَ الْمَعَاصِي وَالذُّنُوبِ؛ أَوْ مَا يُقَدَّرُ عَلَى النَّاسِ مِنْ ذَلِكَ، بَلْ مِنَ الْكُفْرِ؛ وَيَشْهَدُونَ أَنَّ هَذَا جَارٍ بِمَشِيئَةِ اللهِ وَقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ دَاخِلٌ فِي حُكْمِ رُبُوبِيَّتِهِ وَمُقْتَضَى مَشِيئَتِهِ[٢] فَيَظُنُّونَ الِاسْتِسْلَامَ لِذَلِكَ

الشَّرح

= الخالق الرازق المحيي المميت المدبر المقدر للمقادير، فإذا اعتقد هذا عندهم فهو الموحد، وهذا ما يسمونه بـ(شهود الحقيقة) وعندهم أن من بلغ هذا لا حاجة به إلى الشريعة من الأوامر والنواهي والعبادة، وهؤلاء هم غلاة الصوفية وبعض علماء الكلام والمنطق.

٢ ـ ومنهم من يقول: إن من أطاع القدر فهو موحد مؤمن إن عصى أمر الله فقد أطاع قدره وهؤلاء هم الجبرية نفوا الشريعة وأثبتوا القدر وغلوا في إثبات المشيئة لله.

٣ ـ فرقة المعتزلة القدرية الذين نفوا القدر، وأثبتوا الشريعة، وقالوا: إن العبد يخلق فعل نفسه ولم يقدر ما يفعله فهم غلوا في إثبات مشيئة العبد واختياره، ونفوا مشيئة الله.

٤ ـ وأهل الحق يجمعون بين الأمرين، بين الإيمان بالقضاء والقدر وبين قدرة العبد على فعل الأوامر والنواهي ولا تنافي في ذلك، فإن الله أعطاهم قدرة وأعطاهم اختياراً وأعطاهم مشيئة ومكّنهم من فعل الطاعة واجتناب المعصية، وقدَّر المقادير ويسر كُلّاً لما خلق له.

[١] **يعني الشيخ عبد القادر**، وهو الذي أمر الله به ورسوله وهو الإيمان بالشرع والقدر، وأنه لا تنافي بينهما

[٢] فيحتجون بالقدر على فعل المعاصي والكفر، ويقولون: هذا هو التوحيد والإيمان، وهذا قول المشركين الذين قال الله تعالى عنهم: =

وَمُوَافَقَتَهُ وَالرِّضَا بِهِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ دِيناً وَطَرِيقاً وَعِبَادَةً[١]؛ فَيُضَاهُونَ

الشَّرْح

= ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، احتجوا بالقضاء والقدر على الكفر والمعاصي وعذروا أنفسهم في ذلك، وقالوا: إن الله يرضى بذلك، والإيمان بالقضاء والقدر حق وأن كل شيء بقضائه وقدره فهذا حق، ولكن كونهم يقفون عند هذا وينكرون الشريعة ويقولون: لا حاجة إلى الأمر والنهي والطاعة والعبادة فهذا هو الغلط والكفر؛ لأن الله نهى عن الكفر والشرك والمعاصي وعاقب عليها فهو لا يرضاها.

[١] أي: **يظنون أن الرضا بالمعصية**، والرضا بالكفر، هو الدين؛ لأن ذلك قضاء وقدر من الله، فهو قد رضيه منا، فهم بزعمهم أنهم أطاعوا الله فيما قضى وقدر، وهذا هو عين قول المشركين الذين أخبر الله عنهم في سورة الأنعام فقال: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]: فاحتجوا بالقضاء والقدر وهو ليس حجة لهم؛ لأنهم تركوا ما أمروا به وما يقدرون عليه واستسلموا للقضاء والقدر مع أنهم متمكنون من العبادة ومن الطاعة، فكما قدر الله المعاصي والكفر فقد أمر بالطاعة والعبادة، فلماذا تترك أمره وتعصيه، وتركن إلى قدره؟ فالاحتجاج بالقدر إنما يكون على المصائب التي لا حيلة للعبد في دفعها، أما المعايب والذنوب فلا يُحتج عليها بالقضاء والقدر، بل يتوب إلى الله ويستغفر الله ﷻ؛ لأن العبد فعلها باختياره ومشيئته.

فالمشركون كما أخبر الله عنهم لما نهتهم الرسل عن الشرك بالله والكفر والمعاصي احتجوا بالقدر، وقالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]. فهو راض عنا في ذلك، والله تعالى رد عليهم في هذا فقال: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام: ١٤٨]؛ **أي**: ليس عندكم برهان على أن الله رضي فعلكم هذا، وإنما تتبعون الظن والخرص =

الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ قالُوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وَقالُوا: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ [يس: ٤٧]، وَقالُوا: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزخرف: ٢٠]. وَلَوْ هُدُوا لَعَلِمُوا أَنَّ الْقَدَرَ أَمَرَنَا أَنْ نَرْضَى بِهِ، وَنَصْبِرَ عَلَى مُوجَبِهِ فِي الْمَصَائِبِ

الشَّرح

= بل البرهان والدليل يدل على أن الله حرم الشرك والمعاصي ولم يرض بهما. فلو كان في القضاء والقدر حجة لكم لما بعث الله الرسل تنهى عن الشرك والمعاصي فالله بعث الرسل بذلك، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، فهذا دليل على أنه لا حجة لهم فيما قالوا، فلماذا يأخذون جانباً يوافق أهواءهم وهو القضاء والقدر، ويتركون الجانب الآخر الذي يخالف أهواءهم، وهو الأمر والنهي والشريعة وقدرتهم واستطاعتهم على الفعل والترك، فهم تركوا ما أمروا به اختياراً منهم لا اضطراراً ولا إكراهاً.

ولذلك فإن أهل الإيمان جمعوا بين الأمرين: فآمنوا بقضاء الله وقدره، وآمنوا بشرعه، وفعلوا الطاعات وتركوا المعاصي والمحرمات، فجمعوا بين هذا وذاك ولم يحصل منهم تناقض، ولا اضطراب، كما حصل عند هؤلاء. ومما احتج به هؤلاء الجبرية قولهم: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾: لما قيل لهم: ﴿أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾ [يس: ٤٧]: وهذا احتجاج منهم بالقضاء والقدر، نسأل الله العافية، لا يطعمون الفقراء ولا يعطونهم ويزعمون أن الله هو الذي أفقرهم ويحتجون بذلك على ترك الصدقة.

ومن ذلك قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزخرف: ٢٠]، لما أنكرت عليهم الرسل عبادة الأصنام والشرك احتجوا بأن الله قدر علينا ذلك فهو راض عن فعلنا.

التِي تُصِيبُنَا كَالْفَقْرِ وَالْمَرَضِ وَالْخَوْفِ[١]، قَالَ تَعالَى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ﴾ [التغابن: ١١][٢]. قَالَ بَعْضُ

الشَّرْح

[١] متى يحتج بالقضاء والقدر:

قال الشيخ: (**وَلَوْ هُدُوا لَعَلِمُوا أَنَّ الْقَدَرَ أَمَرَنَا أَنْ نَرْضَى بِهِ، وَنَصْبِرَ عَلَى مُوجَبِهِ فِي الْمَصَائِبِ الَّتِي تُصِيبُنَا كَالْفَقْرِ وَالْمَرَضِ وَالْخَوْفِ**): فيُحتج بالقدر على المصائب التي لا حيلة للعبد في الفرار منها، فيصبر عليها ولا يجزع، وأما الذنوب فلا يحتج بالقدر على فعلها؛ لأنه يقدر على تركها ويتوب من فعلها لأنه ما أصابه ما أصابه إلا بسبب من قِبَله، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى: ٣٠]، فيُحتج بالقضاء والقدر على المصائب التي لا حيلة له فيها، أما الذنوب والمعاصي فلا يُحتج عليها بالقضاء والقدر، هذه قاعدة عظيمة في هذه المسألة؟ فقد احتج إبليس بالقدر فقال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ [الحجر: ٣٩]، فنسب الإغواء إلى الله ولم يقل: أنا الذي غويت، فآدم لم يحتج بالقضاء والقدر على أكله من الشجرة ومعصيته لله، بل اعترف بذنبه وتاب إلى الله: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٣].

فالمؤمن لا يحتج بالقضاء والقدر على المعصية ويعتذر لنفسه بذلك؛ بل يتوب إلى الله ويستغفر ويندم، هذا هو الفرق بين إبليس وآدم، فآدم تاب فتاب الله عليه وغفر الله له، وأما إبليس فاحتج بالقدر ولم يتب فلعنه وطرده.

[٢] الدليل على الاحتجاج بالقدر على المصائب:

وَقَال تَعالَى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ﴾؛ **أي**: بقضائه وقدره ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ﴾ [التغابن: ١١]؛ **أي**: من يؤمن بالله ويعلم أن هذا قضاء وقدر ولا يجزع ولا يتسخط، كما قال بعض السلف: «**هُوَ الرجل تصيبه** =

السَّلَفِ: هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣][١].

[ما يوضح الاحتجاج بالقدر ومتى يسوغ]:

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ(١) عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «**احْتَجَّ آدَمَ وَمُوسَى فَقَالَ مُوسَى: أَنْتَ آدَمَ الَّذِي خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ**

الشَّرْح

= **المُصِيبَة فَيعلم أَنَّهَا من عِنْد الله فيرضى وَيسلم**» ولا يجزع ولا يتسخط كما تفعل الجاهلية من النياحة وغير ذلك. قوله: (**فيرضى وَيسلم**) لله في مصيبته والله تعالى: يهدي قلبه للإيمان.

[١] مصائب الأرض بنقص الثمرات وغور المياه واحتباس الأمطار وحدوث الأمراض والمكاره، ﴿وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ من الأمراض والهموم والأحزان وغير ذلك، ﴿إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ﴾؛ **أي**: بقضاء وقدر، مكتوب في اللوح المحفوظ، ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ﴾؛ **أي**: نوجدها ونخلقها، فالقضاء سبق وجودها ووقوعها ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ فهو قدَّر الأشياء كلها، وعلمها ولا يشق عليه ذلك ﷻ، ثم بيّن الحكمة في كونه أخبرنا بذلك، فقال: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ أخبرناكم بذلك لئلا تجزعوا بل تصبروا وتحتسبوا المصائب، وترضوا بقضاء الله وقدره، ﴿وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ﴾ من الخير والنعم فرح أشر وبطر وتكبر، بل تشكرون الله ﷻ، فالمؤمن إذا أصابته ضراء: صبر، وإذا أصابته نعماء: شكر.

(١) أخرجه البخاري (٣٤٠٩، ٦٦١٤، ٧٥١٥)، ومسلم (٢٦٥٢).

وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ فَلِمَاذَا أَخْرَجْتَنَا وَنَفْسَكَ مِنَ الْجَنَّةِ؟ فَقَالَ آدَمَ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ فَهَلْ وَجَدْتَ ذَلِكَ مَكْتُوباً عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ فَحَجَّ آدَمَ مُوسَى»[١]. وَآدَمُ ﷺ لَمْ يَحْتَجَّ عَلَى مُوسَى بِالْقَدَرِ ظَنّاً أَنَّ الْمُذْنِبَ يَحْتَجُّ بِالْقَدَرِ، فَإِنَّ هَذَا لَا يَقُولُهُ مُسْلِمٌ وَلَا عَاقِلٌ، وَلَوْ كَانَ هَذَا عُذْراً لَكَانَ عُذْراً لإبليس وَقَوْمِ نُوحٍ وَقَوْمِ هُودٍ وَكُلِّ كَافِرٍ[٢]، وَلَا مُوسَى لَامَ آدَمَ أَيْضاً لِأَجْلِ الذَّنْبِ[٣]، فَإِنَّ آدَمَ قَدْ تَابَ إِلَى رَبِّهِ فَاجْتَبَاهُ

الشَّرْح

[١] **أهل الجهل والضلال والهوى يحتجون بهذا الحديث**، يقولون: إن آدم احتج على موسى بالقضاء والقدر على فعل المعصية وهي أكله من الشجرة فحجه.

● **والجواب**: أن آدم احتج بالقدر على المصيبة وهي إخراجه من الجنة، أما المعصية فقد تاب منها، وموسى لم يقل: لماذا أكلت من الشجرة، لماذا عصيت الله؟ إنما قال له: (**فَلِمَاذَا أَخْرَجْتَنَا وَنَفْسَكَ مِنَ الْجَنَّةِ؟**)، عاتبه على هذه المصيبة التي حصلت، فقال له آدم: (**فَهَلْ وَجَدْتَ ذَلِكَ مَكْتُوباً عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ؟**) قال: (بلى)، فحج آدم موسى ﷺ.

هذا هو طريق الإيمان، وهو الاحتجاج بالقدر على المصيبة، وهو الذي احتج به آدم على ابنه موسى ﷺ، ولم يحتج على المعصية، فإن هذا لا يحتج به مؤمن ولا عاقل أبداً.

[٢] **ما يبطل الاحتجاج بالقدر على فعل المعاصي**:

● **وكذا كل مشرك** يقول: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، لو كان القضاء والقدر حجة على المعصية لصار حجة للأمم السابقة من إبليس وأتباعه، ولو كان حجة لم يرسل الله الرسل بالأوامر والنواهي.

[٣] **أي: لم يلم موسى آدم ﷺ من أجل الذنب**، فلم يقل له: لماذا =

وَهَدَى، وَلَكِنْ لَامَهُ لِأَجْلِ الْمُصِيبَةِ الَّتِي لَحِقَتْهُمْ بِالْخَطِيئَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: فَلِمَاذَا أَخْرَجْتَنَا وَنَفْسَكَ مِنَ الْجَنَّةِ؟ فَأَجَابَهُ آدَمَ أَنَّ هَذَا كَانَ مَكْتُوباً قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ.

فَكَانَ الْعَمَلُ وَالْمُصِيبَةُ الْمُتَرَتِّبَةُ عَلَيْهِ مُقَدَّراً، وَمَا قُدِّرَ مِنَ الْمَصَائِبِ يَجِبُ الِاسْتِسْلَامُ لَهُ، فَإِنَّهُ مِنْ تَمَامِ الرِّضَا بِاللهِ رَبّاً. وَأَمَّا الذُّنُوبُ فَلَيْسَ لِلْعَبْدِ أَنْ يُذْنِبَ، وَإِذَا أَذْنَبَ فَعَلَيْهِ أَنْ يَسْتَغْفِرَ وَيَتُوبَ، فَيَتُوبُ مِنَ المعائب وَيَصْبِرُ عَلَى الْمَصَائِبِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: ٥٥][١]. وَقَالَ تَعَالَى:

الشَّرْح

= أذنبت؟ لماذا أكلت من الشجرة؟ حتى يحتج آدم على ذلك بالقدر، وإنما لامه على ما حصل بسبب الذنب من العقوبة وهي إخراجهم من الجنة.

[١] **ليس للعبد أن يذنب ابتداءً بل يتجنب الذنب**، ولكن لو غلبه الشيطان ونفسه الأمارة بالسوء وأذنب فهذا يقع من بني آدم، حتى من الصالحين منهم، فليس هناك أحد معصوم غير الأنبياء، ولكن المؤمن يتوب إلى الله، ولا يقف عند القضاء والقدر، كما حصل من إبليس، وكما حصل من المشركين.

قوله: **(فَيَتُوبُ مِنَ المعائب)** المعائب هي الذنوب، فيتوب منها ولا يحتج عليها بالقضاء والقدر، **(وَيَصْبِرُ عَلَى الْمَصَائِبِ)** التي تصيبه، فيحتج على المصائب بالقضاء والقدر، ففرق بين الأمرين، فما كان لك حيلة في دفعه وممانعته فلا تحتج بالقضاء والقدر.

● **ومما يدل على أن الواجب نحو المصائب: الصبر، ونحو الذنوب: الاستغفار:**

١ ـ قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: ٥٥]: تصبر على مشقة الطاعة وعلى ألم المصيبة، وتستغفر لذنبك إذا وقع =

﴿وَإِنْ تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠] وَقَالَ: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝١٨٦﴾ [آل عمران: ١٨٦]. وَقَالَ يُوسُفُ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٩٠﴾ [يوسف: ٩٠].

الشَّرح

= منك ذنب، ولا تقل: هذا قضاء وقدر، فهناك فرق بين الصبر والاستغفار؛ إذ الصبر يكون على ما لا حيلة لك فيه، وأما الاستغفار فإنه يكون عما وقع منك، ولك حيلة في تركه.

٢ ـ قوله تَعالى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ تأمل كيف جمع بين الأمرين: أن تصبروا على القضاء والقدر، وتتقوا الله بفعل أوامره وترك نواهيه.

٣ ـ قوله: (**وَقَال يُوسُف** عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٩٠﴾): جرت على يوسف أمور ومصائب كثيرة، منذ صغره وهو يقاسي من المصائب، ومن المتاعب، ثم في النهاية فرَّج الله له وأعطاه الملك والأبهة، وجاء إخوته ودخلوا عليه ولم يعرفوه، وكانوا يظنون أنه ملك مصر وليس يوسف حتى قال لهم: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ۝٨٩ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٩٠﴾ [يوسف: ٨٩، ٩٠]، فقد نال هذا في الدنيا، وينال في الآخرة الجنة والأجر والثواب بهاتين الخصلتين؛ الصبر على المصائب وتقوى الله بفعل طاعته وترك ما نهاه عنه، فيجمع الله له بين الحسنيين، قالوا: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ۝٩١﴾ [يوسف: ٩١]، فاعترفوا بخطئهم نحوه، فقال لهم: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٩٢﴾ [يوسف: ٩٢]، عفا عنهم واستغفر لهم؛ على الرغم مما فعلوا به من الأذى، وتلك أخلاق الأنبياء وأتباعهم. =

وَكَذَلِكَ ذُنُوبُ الْعِبَادِ، يَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ فِيهَا أَنْ يَأْمُرَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ ـ بِحَسَبِ قُدْرَتِهِ[١] ـ وَيُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ، وَيُوَالِيَ أَوْلِيَاءَ اللهِ، وَيُعَادِيَ أَعْدَاءَ اللهِ، ....

الشَّرْح

= ٤ ـ لو كان القضاء والقدر حجة؛ لما شرع الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا تأمر الناس بشيء مقدر عليهم أو تنهاهم عن شيء مقدر عليهم؛ بل تأمرهم بما يقدرون على فعله ويقدرون على تركه، فهذا دليل على أنه لا تعارض بين الشريعة وبين القضاء والقدر، كما تقوله الجبرية وأهل الضلال، وقد شرع الله الجهاد للكفار، ولا يقال: الكفار معذورون؛ لأن الكفر مقدر عليهم فكيف نجاهدهم!، فدل على أن القضاء والقدر ليس فيه حجة على الكفر؛ لأنهم باستطاعتهم أن يتركوا الكفر ويدخلوا في الإيمان، ولكنهم لم يفعلوا ذلك.

[١] **يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بحسب قدرته**، لقوله ﷺ: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ**»(١) فكون الله شرع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحسب الاستطاعة دليل على أنه لا حجة بالقضاء والقدر؛ إذ لو كان حجة ما شرع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولما كان لذلك فائدة.

٥ ـ **الجهاد في سبيل الله** يكون بالسلاح وباللسان، فيجاهد الكفار بالسلاح، ويجاهد المنافقين باللسان، ولا يقال: هذا مقدر عليهم فلا يُجَاهدون، كما لا يقال: إن الإيمان مقدر على المؤمنين فلا يستحقون المحبة والثناء والأجر على ذلك.

٦ ـ ولو كان القضاء والقدر حجة للكفار؛ لما عاديناهم على شيء مقدر =

(١) أخرجه مسلم (٤٩).

وَيُحِبَّ فِي اللهِ وَيُبْغِضَ فِي اللهِ[١]، ....

الشَّرْح

= عليهم والله أمرنا بمعاداتهم، فدل على أنهم ملومون في كفرهم؛ لأنه بإمكانهم الدخول في الإسلام، وبإمكانهم التوبة، والاستغفار ولكنهم لم يفعلوا ذلك.

[١] فيحب أهل الإيمان ويبغض أهل الكفر والمعاصي، ويسمى هذا (باب الولاء والبراء): وهو باب عظيم، يحاول الملاحدة اليوم أن يكسروه وأن يلغوه، فيقولون: الناس إخوان في الإنسانية ولا بد من التسامح وما أشبه ذلك من الألفاظ القبيحة، يريدون أن يذيبوا الولاء والبراء، ويزيلوا الفوارق بين المسلمين والكفار، وبين أهل الطاعة والمعصية، وبين أهل الفجور وأهل التقوى، ويسووا بين الناس، ويسمون هذا بالتسامح والإنسانية، وبعدم كُره الآخر وما أشبه ذلك من الألفاظ والأسماء البراقة، وهذا باطل؛ لأنه إلغاء لأصل من أصول الإسلام، فإذا زالت الفوارق بين المسلمين والكفار، وصاروا كلهم سواء؛ لم يكن للإيمان ميزة ولا للطاعة ميزة ولا للكفر ذم وقبح، وصار المطيع والعاصي سواء، وصار الكفر والإيمان سواء عندهم، نسأل الله العافية.

ويقولون: لا بد من الحرية في التعبير عن الرأي.. إلى آخر ما يقولون، وهي حرية بهيمية، حرية في معصية الله ﷻ، فالإنسان عبد وليس حرّاً، فهو عبد لله ﷻ، ولا يستطيع الخروج عن العبودية مهما كان، فإما أن يكون عبداً لله، وإما أن يكون عبداً للشيطان، وعبداً للهوى والشهوات، فالكفار والمشركون لما أبوا أن يوحدوا الله بالعبادة عبدوا الأصنام والأحجار والأشجار، بل عبدوا الفروج والبقر؛ لأنهم لا يمكن لهم الخروج عن العبودية فيتلمسون شيئاً يعبدونه: حقّاً كان أو باطلاً، فالإنسان عبد، خلقه الله عبداً، فهو إما أن يكون عبداً لله، وإما أن يكون عبداً لغيره. =

كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١][١]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي

الشَّرْح

= يقول ابن القيم:

هربوا من الرق الذي خلقوا له فبدلوا برق النفس والشيطان

[١] ومن الأدلة على وجوب الولاء والبراء:

١ ـ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ الآية من سورة الممتحنة [١]: وهي من أولها إلى آخرها في الولاء والبراء، وهؤلاء الملاحدة ومن قلَّدهم من الجهال يريدون أن يلغوا هذا الباب، بل يريدون أن يطمسوا ما في القرآن من آيات الولاء والبراء، ويزيلوا الفوارق بين المسلمين والكفار، ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون، والقرآن يفضحهم ليلاً ونهاراً، ولا يستطيعون أن يغيروا كلمة منه؛ لأن الله حفظه، ولو استطاعوا لطمسوا القرآن كله، ولكن لم ولن يستطيعوا ذلك، فهو ينادي بفضيحتهم وشرهم ويحذر منهم إلى أن تقوم الساعة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هذا نداء للمؤمنين؛ لأنهم أهل الامتثال ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾؛ **أي**: لا توالوا الكفار بالمحبة والنصرة والمدح والثناء وغير ذلك من أنواع المجاملة والتملق، ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾ على يد الرسول ﷺ، و﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾؛ **أي**: يطردونكم من مكة، ويطردونكم من أوطانكم، من أجل ﴿أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾، فهذا هو السبب، لم يخرجوكم إلا بسبب الإيمان بربكم، ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ فلا توالوهم و﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ﴾ فمهما حاول الإنسان الإخفاء؛ فإن الله يعلمه.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤]؛ **أي**: لكم القدوة في إبراهيم =

إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [القلم: ٣٥]، وَقَالَ: ﴿أَمْ نَجْعَلُ

الشَّرْح

= والمؤمنين الذين معه الذين تبرؤوا من الكفار، فقد تبرأ إبراهيم عليه السلام من أبيه لما تبين له أنه عدو لله. فالولاء والبراء من دين إبراهيم عليه السلام.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]: فالإيمان يتنافى مع موالاة الكفار، فالذي في قلبه إيمان لا يمكن أن يوالي الكفار ويحبهم أبداً؛ لأن الله يبغضهم، والمؤمن يبغض من يبغضه الله سبحانه وتعالى، ويحب من يحبه الله، وتلك علامات المؤمن، ومن والاهم فقد حاد الله ورسوله، و﴿مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فهو الذي كفر بالله ورسوله، ولو كانوا أقرب الناس إليهم، بأن ﴿كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ فإذا كان هذا في الأقارب؛ فكيف بغير الأقارب من الكفار؟

الشاهد من هذا: أنه لو كان هناك عذر بالاحتجاج بالقضاء والقدر ما أمر الله بمعاداتهم ومقاطعتهم؛ لأنهم معذورون في كفرهم.

٤ ـ قوله تَعَالَى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [القلم: ٣٥]: هذا استنكار من الله أن يجعل المسلمين كالمجرمين؛ بل لا بد أن يُفرِّق بينهم في الجزاء وفي الأحكام، فلا يليق بحكمته سبحانه وتعالى ولا بعدله أن يسوي بين المسلمين والمجرمين. =

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [صٓ: ٢٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [فاطر: ١٩ ـ ٢٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ

الشَّرْح

= ٥ ـ وَقَال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [صٓ: ٢٨]: هذا استنكار من الله أن يسوي بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات وبين المفسدين في الأرض، وبين المتقين والفجار، بل يفرق الله بينهم في الجزاء والأحكام ولو كان لهم عذر بالقضاء والقدر لما فرق الله بينهم ولما أمر بمعاداتهم ومقاطعتهم وبغضهم.

٦ ـ وَقَال تَعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١]: وهذا استنكار من الله للذين يظنون أن الله سيسوي بين المؤمنين والمسيئين، فهذا لا يليق بحكمته سبحانه وتعالى ولا يليق بعدله سبحانه وتعالى.

٧ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [فاطر: ١٩ ـ ٢٢]: فالله فرق بين الأشياء المتضادة، من الكفر والإيمان، والطاعة والمعصية، فلم يسوِ الله بين الأعمى والبصير، ولا بين الظلمات والنور، ولا بين الظل والحرور، فالمتضادات لا تتساوى أبداً، والكفر والإيمان متضادان لا يسوي الله بينهما، والمؤمن والكافر متضادان لا يسوي الله بينهما، ولا يجوز للمؤمن أن يسوي بينهما.

٨ ـ قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا =

شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الزمر: ٢٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿...بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل: ٧٥، ٧٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر: ٢٠]، وَنَظَائِرُ ذَٰلِكَ مِمَّا ....

الشَّرْح

= لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الزمر: ٢٩]: هذا مثل للمؤمن الموحد والمشرك الملحد، فالموحد كالمملوك لرجل واحد يستريح معه ويرضيه، وأما المشرك فهو كالمملوك لعدة أسياد، لا يدري من يرضي منهم، ولهذا قال يوسف عليه السلام لمن معه في السجن: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ [يوسف: ٣٩].

٩ ـ وَقَال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًاۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَۚ﴾ [النحل: ٧٥]، وهذا مثل للمؤمن الحر الذي ينفق في سبيل الله والعبد المملوك الذي لا يملك شيئاً ولا ينفق، فهو مثل للمشرك والموحد.

١٠ ـ وَقَال تَعَالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر: ٢٠]: كذلك لا يستوي أصحاب النار وهم الكفار المشركون، وأصحاب الجنة من المؤمنين المتقين، هؤلاء في نعيم، وهؤلاء في جحيم، والله لم يسوِ بينهم في الجزاء، ففي هذه الآيات أنه لو كان القضاء والقدر حجة على الكفر والمعاصي لسَوَّى الله بين المؤمنين والكفار في الآخرة وصاروا كلهم في الجنة.

يُفَرِّقُ اللهُ فِيهِ بَيْنَ أَهْلِ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ[١]، وَأَهْلِ الطَّاعَةِ وَأَهْلِ الْمَعْصِيَةِ، وَأَهْلِ الْبِرِّ وَأَهْلِ الْفُجُورِ، وَأَهْلِ الْهُدَى وَالضَّلَالِ، وَأَهْلِ الْغَيِّ وَالرَّشَادِ وَأَهْلِ الصِّدْقِ وَالْكَذِبِ.

[نتيجة ما سبق]:

فَمَنْ شَهِدَ «الْحَقِيقَةَ الْكَوْنِيَّةَ» دُونَ «الدِّينِيَّةِ» سَوَّى بَيْنَ هَذِهِ الْأَجْنَاسِ[٢] الْمُخْتَلِفَةِ الَّتِي فَرَّقَ اللهُ بَيْنَهَا غَايَةَ التَّفْرِيقِ حَتَّى يَؤُولَ بِهِ الْأَمْرُ إِلَى أَنْ يُسَوِّيَ اللهَ بِالْأَصْنَامِ[٣]، كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْهُمْ:

الشَّرْح

[١] **كل هذا واقع وكل هذا حق**، فالله لا يسوي بين المتضادات والمختلفات، لا يليق بحكمته ﷻ وبعدله أن يجعل الكافر مثل المؤمن في الجزاء يوم القيامة، ولا يليق بحكمته وبعدله ﷻ أن يسوي بينهم في المودة والقَدْر والمكانة في الدنيا والآخرة. فلو كان للكفار حجة على كفرهم بالقضاء والقدر لما فرق الله بينهم وبين المؤمنين.

[٢] **أي**: من أثبت القضاء والقدر ونفى الشرع فقد سوّى بين الكفر والإيمان والمؤمنين والكفار ولم يفرق بينهما، وأما من أثبت القضاء والقدر وأثبت الشرع فإنه يفرق بين المؤمن والكافر، والمطيع والعاصي والبر والفاجر. فيفرق بين المتضادات والمتناقضات فيحتج بالقضاء على المصائب ويتوب من الذنوب والمصائب، ولا يحتج بالقضاء والقدر عليها.

[٣] فالمشركون سووا بين الله وبين الأصنام حينما عبدوها معه وعدلوها بالله ﷻ؛ ولذلك في الآخرة يندمون على ذلك فيقولون: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٩٧ ـ ٩٩]. فإذا وقفوا على جزائهم، عرفوا أنهم أخطؤوا في الدنيا حيث عبدوا مع الله غيره، وسووا المخلوق بالخالق.

﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٩٧، ٩٨]؛ بَلْ قَدْ آلَ الأَمْرُ بِهَؤُلَاءِ إِلَى أَنْ سَوَّوْا اللهَ بِكُلِّ مَوْجُودٍ[١]، وَجَعَلُوا مَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ حَقّاً لِكُلِّ مَوْجُودٍ إِذْ جَعَلُوهُ هُوَ وُجُودَ الْمَخْلُوقَاتِ[٢]، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْكُفْرِ وَالإِلْحَادِ بِرَبِّ الْعِبَادِ.

وَهَؤُلَاءِ يَصِلُ بِهِمُ الْكُفْرُ إِلَى أَنَّهُمْ لَا يَشْهَدُونَ أَنَّهُمْ عِبَادٌ[٣] لَا بِمَعْنَى أَنَّهُمْ مُعَبَّدُونَ، وَلَا بِمَعْنَى أَنَّهُمْ عَابِدُونَ؛ إِذْ يَشْهَدُونَ أَنْفُسَهُمْ هِيَ الْحَقَّ[٤]، كَمَا صَرَّحَ بِذَلِكَ طَوَاغِيتُهُمْ كَابْنِ عَرَبِيٍّ صَاحِبِ

الشَّرْح

[١] **هؤلاء هم غلاة الصوفية كابن عربي وأتباعه من أهل وحدة الوجود،** فهم يقولون: لا تفريق في الكون بين خالق ومخلوق، كله سواء، كل الكون هو الله. والتوحيد عندهم أنك لا تقسم الكون إلى مخلوق وخالق، بل تجعل الكون كله هو الله، حتى الكلاب والخنازير فهي عندهم هي الله، فمن فرق فهو مشرك، ويقولون: إن فرعون لم يخطئ إلا لأنه ادَّعى الربوبية لنفسه، ففرق بين الكائنات وخص الربوبية فيه؛ ولذلك كفر، وإلا لو اعتقد أن الكون كله هو الله لصار موحداً.

[٢] فقد جعلوا الله هو الوجود كله، لا تعدد فيه، ولا انقسام، والتقسيم شرك عندهم، فهذا توحيد أهل وحدة الوجود.

- **أهل وحدة الوجود هم أكفر أهل الأرض وسبب ذلك:**

[٣] **لأنه ليس لديهم عباد ومعبود،** بل يعتبرون ذلك تفريقاً وشركاً، إذ الكون كله هو الله المعبود.

[٤] **أي: يرون أنفسهم أنها هي الله،** ويقول قائلهم: (ليس في الجبة إلا الله)؛ **يعني:** نفسه.

«الْفُصُوصِ»[١]، وَأَمْثَالِهِ مِنَ الْمُلْحِدِينَ الْمُفْتَرِينَ كَابْنِ سَبْعِينَ[٢]. وَأَمْثَالِهِ وَيَشْهَدُونَ أَنَّهُمْ هُمُ الْعَابِدُونَ وَالْمَعْبُودُونَ[٣]، وَهَذَا لَيْسَ بِشُهُودٍ لِحَقِيقَةٍ؛ لَا كَوْنِيَّةٍ وَلَا دِينِيَّةٍ[٤]؛ بَلْ هُوَ ضَلَالٌ وَعَمًى عَنْ شُهُودِ الْحَقِيقَةِ الْكَوْنِيَّةِ، حَيْثُ جَعَلُوا وُجُودَ الْخَالِقِ هُوَ وُجُودَ الْمَخْلُوقِ، وَجَعَلُوا كُلَّ وَصْفٍ مَذْمُومٍ وَمَمْدُوحٍ نَعْتاً لِلْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ؛ إِذْ وُجُودُ هَذَا هُوَ وُجُودُ هَذَا عِنْدَهُمْ[٥].

الشَّرْح

[١] **أي**: كتاب «فصوص الحكم»، وهو كتاب يطبعه أتباعه اليوم ويعرضونه في معارض الكتب ترويجاً لهذا المذهب الخبيث الملحد.

[٢] **من أهل وحدة الوجود**، وكابن الفارض صاحب القصيدة التائية التي نظم فيها هذا المذهب.

[٣] **أي: لا يرون أن هناك معبوداً وعابداً**، فالكون كله إلٰه معبود.

- **مآل هذا المذهب**:

[٤] **أي: هذا المذهب الخبيث ليس فيه إثبات شيء**، وهذا أشد أنواع الإلحاد؛ لأنه مخالف للحس والعقل والشرع.

[٥] فقد قال قائلهم:

وكل كلام في الوجود كلامه ... سواء علينا نثره ونظامه

فيكون عندهم القرآن والشعر والسب والذم والشتم هو كلام الله، نسأل الله العافية.

ويقولون: وما الكلب والخنزير إلا إلٰهنا.

فالواجب على الإنسان إذا اطلع على هذه الأمور ـ وهي واقعة ـ أن يسأل الله السلامة والعافية، وأن يشكر الله على نعمته، وعلى فضله أن هداه للإسلام والإيمان وركَّب فيه العقل الذي يميز به بين الحق والباطل، هذا من ناحية. =

[براءة المؤمنين من هذا المذهب]:

وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ عَوَامُّهُمْ وَخَوَاصُّهُمْ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ للهِ أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ قِيلَ: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: أَهْلُ الْقُرْآنِ هُمْ أَهْلُ اللهِ وَخَاصَّتُهُ**»(١)[١].

الشَّرْح

= ومن ناحية أخرى: يخاف على نفسه من الضلال والزيغ والإلحاد، فهؤلاء آدميون لهم عقول، ولكن طمس الله بصائرهم وأبصارهم وأضلهم على علم ـ والعياذ بالله ـ فالإنسان يخشى على نفسه من هذه الأمور، وإنما يطلع عليها من أجل أن يحذر منها، وأن يشكر الله وأن يسأل الله الثبات، أما إذا لم يعرفها فإنه لربما وقع فيها واغتر بها وهو لا يدري ـ نسأل الله العافية ـ لا سيما ولها دعاة يروجونها بين الناس اليوم خصوصاً في معارض الكتب التي لا رقابة عليها.

[١] ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ أن الصوفية خصوصاً الغلاة منهم يقسمون الناس إلى: خاصة، وعامة.

● **الخاصة**: هم الذين يزعمون أنهم عرفوا الله، ووصلوا إليه، وسقطت عنهم التكاليف، فليس عليهم صلاة ولا زكاة ولا أوامر ولا نَوَاهٍ.

● **وأما العامة** عندهم: فهم العوام، الذين لم يصلوا إلى الله فهؤلاء توجه إليهم الأمر بالتحليل والتحريم، وهم الرسل وأتباع الرسل، الذين يحتاجون إلى الأوامر والنواهي والشرع!

والشيخ رَحِمَهُ اللهُ يقول: إن هذا التقسيم باطل، فالمؤمنون وهم الأنبياء وأتباعهم هم أولياء الله وخاصته وأتباع الأنبياء: عوامهم وعلماؤهم، وهم الذين عرفوا الله حقيقة بأسمائه وصفاته وشرعه ودينه، فهم كلهم أولياء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، =

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٢٢٩٢).

[أهل الإيمان يفرقون بين الخالق والمخلوق]:

فَهَؤُلَاءِ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ وَخَالِقُهُ[١]، وَأَنَّ الْخَالِقَ سُبْحَانَهُ مُبَايِنٌ لِلْمَخْلُوقِ لَيْسَ هُوَ حَالّاً فِيهِ، وَلَا مُتَّحِداً بِهِ، وَلَا وُجُودُهُ وَجُودَهُ[٢]. وَ«النَّصَارَى» كَفَّرَهُمُ اللهُ بِأَنْ قَالُوا بِالْحُلُولِ

الشَّرح

= وقد سمَّاهم الرسول ﷺ: **(أَهْلُ اللهِ وَخَاصَّتُهُ)**: وهولاء أرفع منزلة وأعلى درجة، ومع هذا لم تسقط عنهم التكاليف مهما بلغوا من المنزلة عند الله، وليس المراد بأهل القرآن الذين يحفظونه ويرتلونه خاصة؛ بل أهل القرآن هم الذين يعملون به، حتى ولو لم يحفظوه، فالذين يعملون بالقرآن بأوامره ونواهيه وحدوده هم أهل القرآن وهم أهل الله وخاصته من خلقه، وهم خاصة الخاصة، أما من يحفظ القرآن ويجيد التلاوة ويضبط الحروف ويضيع الحدود، فهذا ليس من أهل القرآن وليس من الخاصة، فأهل القرآن هم الذين يستدلون به ولا يقدمون عليه غيره، ويأخذون منه الفقه والأحكام والدين.

[١] **أي: المؤمنون يثبتون توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية**، ويفرقون بين الخالق والمخلوق، فهم جمعوا بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، وعرفوا الله ﷻ بأسمائه وصفاته وكماله وجلاله وعظمته، وعبدوه حق عبادته، وهذا هو التوحيد الصحيح، فهم جمعوا بين هذا وذاك، بخلاف الصوفية وأتباعهم فإنهم إنما عرفوا توحيد الربوبية والقضاء والقدر، وجحدوا الشريعة ولم يعملوا بها، ويقولون: إن الشريعة للعوام، ويكفي الإنسان أنه يعرف توحيد الربوبية. أو أن الله هو الكون كله.

[٢] **أي: عرفوا الفرق بين الخالق والمخلوق**، بخلاف غلاة الصوفية الذين يقولون: الكون كله هو الله ولا تعدد فيه ولا انقسام؛ ولذلك يسمون أهل وحدة الوجود، فالوجود بزعمهم كله هو الله، تعالى الله عن ذلك، فالرسل وأتباعهم يعتقدون بوجود الفرق بين الخالق والمخلوق وأن الله هو رب =

وَالِاتِّحَادِ بِالْمَسِيحِ خَاصَّةً[١]، فَكَيْفَ مَنْ جَعَلَ ذَلِكَ عَامّاً فِي كُلِّ مَخْلُوقٍ؟ وَيَعْلَمُونَ[٢] مَعَ ذَلِكَ أَنَّ اللهَ أَمَرَ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ،

الشَّرْح

= كل شيء وخالقه، وما سواه فهو مخلوق وعبد لله ﷻ، هؤلاء هم المؤمنون، فيعتقدون أن الله ـ جلّ وعلا ـ مباين لخلقه، ليس حالّاً في المخلوق كما تقوله الحلولية من الصوفية وغيرهم، وكما تقوله النصارى: إن الله حل في المسيح، فهذا قول الحلولية الكفار، فالله ـ جلّ وعلا ـ بائن من خلقه، ليس في ذاته شيء من مخلوقاته، ولا في مخلوقاته شيء من ذاته ﷻ فهو فوق مخلوقاته، استوى على العرش فوق كل شيء، وهو العلي الأعلى ـ جلّ وعلا ـ، فقول المصنف: (**وَأَنَّ الْخَالِقَ سُبْحَانَهُ مُبَايِنٌ لِلْمَخْلُوقِ**) هذا رد على الحلولية والاتحادية، وكلمة (مباين)؛ معناها: منفصل، فالخالق منفصل عن المخلوق، والمخلوق منفصل عن الخالق، وليس بينهما اختلاط ولا اتحاد ولا حلول كما يقوله الحلولية: (**وَلَا وُجُودُهُ وَجُودُهُ**) كما يقوله أهل وحدة الوجود: أن وجود الخالق هو وجود المخلوق.

[١] **النصارى أخف كفراً من الحلولية**؛ لأن الحلولية يعتقدون أن الله حالٌّ في كل شيء حتى المراحيض ودورات المياه والحشوش، تعالى الله عن ذلك، أما النصارى فإنما زعموا أن الله اتحد بالمسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، ولم يعمموا اتحاده في كل المخلوقات، فهم أخف كفراً من الحلولية والاتحادية، مع أن كفر النصارى هو أشنع الكفر كما قال تعالى: ﴿**لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًاۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾**﴾ [المائدة: ١٧].

[٢] **أي: يعلم أهل الإيمان**، (مَعَ ذَلِكَ)؛ **أي**: مع اعتقادهم أن الله ـ جلّ وعلا ـ ليس حالّاً في خلقه ولا متحداً فيهم (**أَنَّ اللهَ أَمَرَ بِطَاعَتِهِ**

وَنَهَى عَنْ مَعْصِيَتِهِ وَمَعْصِيَةِ رَسُولِهِ، وَأَنَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ[١]، وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ، وَأَنَّ عَلَى الْخَلْقِ أَنْ يَعْبُدُوهُ فَيُطِيعُوا أَمْرَهُ، وَيَسْتَعِينُوا بِهِ عَلَى ذَلِكَ، كَمَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥][٢].

وَمِنْ عِبَادَتِهِ وَطَاعَتِهِ: الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ ـ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ ـ وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ لِأَهْلِ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ[٣].

الشَّرْح

= **وَطَاعَةِ رَسُولِهِ وَنَهَى عَنْ مَعْصِيَتِهِ وَمَعْصِيَةِ رَسُولِهِ)**: فهم يعلمون أن الله أمر ونهى، وأنزل الشريعة على الرسل، بخلاف الحلولية والاتحادية الذين يسقطون الشريعة عن الخواص، ويجعلونها للعوام.

[١] **والحلولية والاتحادية يقولون**: ما دام أنه قدر الفساد والمعاصي فهو يرضاها ويحبها، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً، وذلك نتيجة لاحتجاجهم بالقدر على جواز أفعالهم الكفرية والشركية.

[٢] **وهي أول سورة في المصحف**، فجمع بين العبادة والاستعانة بالله ﷻ، فأهل الإيمان يقولون: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؛ **أي**: لا نعبد سواك، و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾؛ **أي**: لا نستعين إلا بك، فهم جمعوا بين الإيمان بتوحيد الربوبية وتوحيد الألوهية بخلاف هؤلاء فإنهم إنما اقتصروا على توحيد الربوبية.

[٣] **لا يكفي من المؤمن أنه يستقيم في نفسه**، ولا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر ولا يجاهد في سبيل الله، بل لا بد من الدعوة والجهاد، فلا يترك الناس من دون أمر ونهي، وبدون جهاد في سبيل الله، لا أحد منهم يقول: ليس عليّ إلا من نفسي، وليس علي من الناس. فقد أوجب الله على المؤمنين الدعوة إلى الله، وأوجب عليهم النصيحة، وكذا الأمر بالمعروف والنهي عن =

فَيَجْتَهِدُونَ فِي إِقَامَـةِ دِينِهِ، مُسْتَعِينِينَ بِهِ[١]، دَافِعِينَ مُزِيلِينَ بِذَلِكَ مَـا

الشَّرْح

= المنكر بحسب استطاعتهم، وأوجب عليهم الجهاد في سبيل الله بحسب استطاعتهم؛ لإعلاء كلمة الله ونشر دينه لقوله ﷺ: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ**»(١).

فجهاد أهل الكفر بالسلاح؛ لأنه لو تُرِك الكفار ولم يُقاتلوا لتسلطوا على المسلمين، ونشروا الكفر ودعوا إليه، وصدوا عن سبيل الله، فلا بد من جهادهم لكف شرهم عن الإسلام والمسلمين، فلو تركناهم ما تركونا، كما هو مشاهد الآن من فعل الكفار بالمسلمين، فلا بد من جهادهم مع الاستطاعة، والجهاد ليس من الأمور الفردية كلٌّ يجاهد منفرداً، بل يشترط للجهاد الجماعة، ويُشترط له السمع والطاعة لولي الأمر، واجتماع الكلمة تحت قيادة موحدة، فالجهاد إذاً لا يقوم إلا بجماعة وبإمامة، وقيادة مسلمة، وليس الجهاد فوضى، كلٌّ يحمل السلاح ويقتل ويضرب، فليس هذا من الجهاد، ولم يأمر به الإسلام؛ لأن هذا من الفوضى التي تضر الإسلام والمسلمين ومن التخريب المحرم والإفساد في الأرض.

وأما أهل النفاق فيُجَاهَدُون باللسان؛ لأنهم يظهرون الإسلام، ويظهر منهم كلام سيئ وتفوح منهم روائح الكفر، فهؤلاء يجاهدون باللسان وذلك بالرد عليهم وإبطال شبهاتهم، وتتبع مقالاتهم ومؤلفاتهم والرد عليهم؛ لئلا تروج عند الناس، فتشيعَ ويظنوها حقّاً؛ لأنهم قد يُعطون فصاحة، وبلاغة، فيغرون الناس بأساليبهم وفصاحتهم ويلبسون الحق بالباطل، ولا يقوم بهذا إلا أهل العلم، فهم الذين يردون على المنافقين، ويبطلون شبهاتهم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣].

[١] فالمؤمنون يقومون بالجهاد في سبيل الله لأهل الكفر ولأهل النفاق؛ =

(١) أخرجه مسلم (٤٩).

قُـدِّرَ مِـنَ السَّيِّئَاتِ، دَافِعِينَ بِذَلِكَ مَـا قَـدْ يُخَافُ مِنْ ذَلِكَ[١]، كَمَا يُزِيلُ الْإِنْسَانُ الْجُوعَ الْحَاضِرَ بِالْأَكْلِ[٢]، وَيَدْفَعُ بِهِ الْجُوعَ الْمُسْتَقْبَلَ، وَكَذَلِكَ إِذَا آنَ أَوَانُ الْبَرْدِ دَفَعَهُ بِاللِّبَاسِ[٣]، وَكَذَلِكَ كُلُّ مَطْلُوبٍ يُدْفَعُ

الشَّـرْح

= لئلا ينتشر الكفر ويختفي الإيمان، ويذل المسلمون ويعز الكفار، فلا بد من الجهادين: جهاد الكفار من الخارج، وجهاد المنافقين من الداخل، فالمنافقون يعيشون مع المسلمين ويزعمون أنهم مسلمون، ولكنهم ينشرون الشر، وهم خدم للكفار في كل زمان ومكان، فلا بد من جهاد الكفار من الخارج وجهاد المنافقين من الداخل؛ حتى ينتصر الإسلام وينقمع أهل الشر.

[١] **فلا يقولون عن الكفر والنفاق**: هذا شيء مقدَّر قدره الله، ونقول: الله قدر وأمرنا أن نجاهد الكفار مع أنه قدر الكفر والشرك والمعاصي والنفاق، ومع هذا أمرنا أن ندافع هذه الأشياء وأن نقاومها، ولا نسكت عنها ونقول: هذا مقدر، فهذه حجة أهل الباطل.

[٢] ثم ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لذلك أمثلة محسوسة على وجوب فعل الأسباب:

• **المثال الأول**: (**كَمَا يُزِيلُ الْإِنْسَانُ الْجُوعَ الْحَاضِرَ بِالْأَكْلِ**): فنحن ندافع الكفر والشرك والنفاق وإن كان ذلك مقدراً ولا نستسلم له، كما أننا ندافع الفقر والجوع والظمأ بالأكل والشرب، ولا نحتج بالقدر لنجلس ونستسلم، فلماذا لا يحتج هؤلاء بالقدر على ترك الطعام والشراب؟ فهم بفطرتهم يأكلون ويشربون ويطلبون الرزق، ولا يقولون: هذا مقدر، فلماذا يحتجون بالقدر في ناحية، ويتركونه في ناحية أخرى؟ فالقدر إذن ليس حجة لنا في ترك مدافعة الشرور، فكما ندافع الجوع والعطش، كذلك ندافع الكفار والمنافقين والمشركين والعصاة.

[٣] **المثال الثاني**: قال: (**وَكَذَلِكَ إِذَا آنَ أَوَانُ الْبَرْدِ دَفَعَهُ بِاللِّبَاسِ**): =

بِهِ مَكْرُوهٌ، كَمَا قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: «يَا رَسُولَ اللهِ أَرَأَيْتَ أَدْوِيَةً نَتَدَاوَى بِهَا وَرُقًى نسترقي بِهَا وَتُقَاةً نَتَّقِي بِهَا هَلْ تَرُدُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ شَيْئاً؟» فَقَالَ: **«هِيَ مِنْ قَدَرِ اللهِ»**(١)، وَفِي الْحَدِيثِ: **«إِنَّ الدُّعَاءَ وَالْبَلَاءَ لَيَلْتَقِيَانِ فَيَعْتَلِجَانِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»**(٢)[١]، فَهَذَا حَالُ الْمُؤْمِنِينَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ الْعَابِدِينَ للهِ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنَ الْعِبَادَةِ.

الشَّرْح

= فالإنسان يلبس الملابس الثقيلة والصوفية لأجل أن يتقي البرد، فلماذا لا يقول: إن البرد قضاء وقدر ويترك اللباس والمدفئات؟ لا أحد يقول هذا وهو عاقل، فدل على أن القدر ليس حجة، فكما ندفع البرد بالملابس، وندفع الجوع بالطعام وندفع الظمأ بالشراب فإننا ندفع الكفر والنفاق بالجهاد.

[١] **المثال الثالث**: كَمَا قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: (**يَا رَسُولَ اللهِ أَرَأَيْتَ أَدْوِيَةً نَتَدَاوَى بِهَا وَرُقًى نسترقي بِهَا وَتُقَاةً نَتَّقِي بِهَا هَلْ تَرُدُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ شَيْئاً؟**): سألوا النبي ﷺ عن الأسباب هل ترد من قدر الله شيئاً، فقال: «**هِيَ من قدر الله**»، فالأسباب التي نأخذ بها قـدَّرها الله، فكما قدر الله البرد قدر لبس الملابس والاستدفاء لدفعه، وكذا قدر الظمأ وقدر تناول الشراب لدفعه.. وهكذا، وفي حديث آخر قال ﷺ: «**مَا أَنْزَلَ اللهُ دَاءً، إِلَّا قَدْ أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ، وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ**»(٣)، فهل إذا أصاب الإنسان مرض يستسلم ويقول: هذا مقدر علي؟ بل له أن يدفع القدر بالقدر. والرقية معروفة، وهي القراءة على المريض، والدعاء له بالشفاء، فالرقية مشروعة، والقرآن فيه شفاء. ولا يمكن أن نتكل على القدر ونقول: اتركوا المريض فهذا مقدر عليه؟!.

ومما يدل على ذلك ما جاء فِي الْحَدِيثِ: «**إِنَّ الدُّعَاءَ وَالْبَلَاءَ لَيَلْتَقِيَانِ** =

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٤٣٧).
(٢) مجمع الزوائد ٧/ ٢٠٩ ـ ١٠/ ١٤٦.
(٣) أخرجه الإمام أحمد (٣٥٧٨).

وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ «الْحَقِيقَةَ الْكَوْنِيَّةَ»[١]، وَهِيَ رُبُوبِيَّتُهُ تَعَالَى لِكُلِّ شَيْءٍ، وَيَجْعَلُونَ ذَلِكَ مَانِعاً مَنِ اتِّبَاعِ أَمْرِهِ الدِّينِيِّ الشَّرْعِيِّ عَلَى مَرَاتِبَ فِي الضَّلَالِ: فَغُلَاتُهُمْ يَجْعَلُونَ ذَلِكَ مُطْلَقاً عَامّاً، فَيَحْتَجُّونَ بِالْقَدَرِ فِي كُلِّ مَا يُخَالِفُونَ فِيهِ الشَّرِيعَةَ. وَقَوْلُ هَؤُلَاءِ شَرٌّ مِنْ قَوْلِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَهُوَ مِنْ جِنْسِ قَوْلِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وَقَالُوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزخرف: ٢٠]. وَهَؤُلَاءِ مِنْ أَعْظَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ تَنَاقُضاً[٢]؛ بَلْ كُلُّ مَنِ احْتَجَّ بِالْقَدَرِ فَإِنَّهُ مُتَنَاقِضٌ، فَإِنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُقِرَّ كُلُّ آدَمِيٍّ عَلَى مَا فَعَلَ؛ فَلَا بُدَّ إِذَا ظَلَمَهُ ظَالِمٌ، أَوْ ظَلَمَ النَّاسَ ظَالِمٌ، وَسَعَى فِي الْأَرْضِ بِالْفَسَادِ وَأَخَذَ يَسْفِكُ دِمَاءَ النَّاسِ، وَيَسْتَحِلُّ الْفُرُوجَ، وَيُهْلِكُ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنْ

الشَّرْح

= فَيَعْتَلِجَانِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»: فالبلاء مقدر والدعاء مقدر، والدعاء يدفع البلاء بقدر؛ فيدفع المقدر بالمقدر.

[١] **وهم الذين يؤمنون بتوحيد الربوبية فقط**، وينكرون الشريعة متناقضون، فهم لا يحتجون بالقدر في كل شيء يخالفون فيه الشريعة، فهم يختلفون عن الاتحادية الذين جعلوا الخالق والمخلوق سواء. وكل الأفعال من الكفر والإيمان سواء؛ لأنها مقدرة.

[٢] **لأنهم لا يستطيعون أن يحتجوا بالقدر في كل شيء**، بل هم يحتجون به في أمور الدين، فإذا تركوا الواجبات احتجوا بالقدر، وإذا فعلوا المحرمات احتجوا بالقدر، ولكنهم في أمور دنياهم لا يحتجون بالقدر، فلو ضربه إنسان ـ مثلاً ـ لا يقول: هذا مقدر عليَّ، ويسكت، بل يطالب بحقه، وينتقم ممن ضربه.

أَنْوَاعِ الضَّـرَرِ الَّتِي لَا قِوَامَ لِلنَّاسِ بِهَا أَنْ يَدْفَعَ هَذَا الْقَدَرَ؛ وَأَنْ يُعَاقِبَ الظَّالِمَ بِمَا يَكُفُّ عُدْوَانَ أَمْثَالِهِ. فَيُقَالُ لَهُ: إِنْ كَانَ الْقَدَرُ حُجَّةً فَدَعْ كُلَّ أَحَدٍ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ بِكَ وَبِغَيْرِكَ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ حُجَّةً بَطَلَ أَصْلُ قَوْلِكَ: حُجَّةٌ. وَأَصْحَابُ هَذَا الْقَوْلِ ـ الَّذِينَ يَحْتَجُّونَ بِالْحَقِيقَةِ الْكَوْنِيَّةِ ـ لَا يُطَرِّدُون هَـذَا الْقَـوْلَ وَلَا يَلْتَزِمُونَهُ[١]، وَإِنَّمَا هُمْ بِحَسَبِ آرَائِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ؛ كَمَا قَالَ فِيهِمْ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: أَنْتَ عِنْدَ الطَّاعَةِ قَدَرِيٌّ وَعِنْدَ الْمَعْصِيَةِ جَبْرِيٌّ؛ أَيُّ مَذْهَبٍ وَافَقَ هَوَاكَ تَمَذْهَبْتَ بِهِ.

وَمِنْهُمْ صِنْفٌ يَدَّعُونَ التَّحْقِيقَ وَالْمَعْرِفَةَ[٢]، فَيَزْعُمُونَ أَنَّ الْأَمْرَ

الشَّرْح

[١] **(الَّذِين يحْتَجُّونَ بِالْحَقِيقَةِ الْكَوْنِيَّةِ لَا يُطَرِّدُون هَذَا الْقَوْلَ)** في كل شيء؛ **أي**: إنهم لا يستمرون على مذهبهم ويحتجون به في كل شيء، بل يحتجون بالقدر في ترك الأوامر وفعل النواهي فقط. ولا يحتجون به في المطالب الدنيوية فيتركونها لمن ظلمهم واعتدى عليهم فيها بل يطالبونه ويعاقبونه على ذلك، فهم عند الطاعة قدرية، وعند المعصية جبرية، فيأخذون بكل مذهب يوافق أهواءهم.

[٢] **أي: هؤلاء يقسمون الناس إلى من يثبت فعل العبد واختياره**، ومن ينفي فعل العبد ويرى أنه مجبر عليه لا اختيار له فيه، فالاختيار للأول دون الثاني، والناس عنده ينقسمون إلى عامة وخاصة:

- **فالعامة**: هم من لم يصلوا إلى الله فيلتزمون بالشريعة؛ لأنهم لم ترفع عنهم التكاليف.

- **والخاصة**: هم من وصلوا إلى الله ولا يلتزمون بالشريعة؛ لأنها قد رفعت عنهم التكاليف، ويقولون: من آمن بالقضاء سقطت عنه التكاليف الشرعية؛ لأنه صار مجبراً لا اختيار له وهذا هو الإيمان عندهم. ويزعمون =

وَالنَّهْيَ لَازِمٌ لِمَنْ شَهِدَ لِنَفْسِهِ فِعْلاً وَأَثْبَتَ لَهُ صُنْعاً؛ أَمَّا مَنْ شَهِدَ أَنَّ أَفْعَالَهُ مَخْلُوقَةٌ؛ أَوْ أَنَّهُ مَجْبُورٌ عَلَى ذَلِكَ؛ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِيهِ، كَمَا تُحَرَّكُ سَائِرُ الْمُتَحَرِّكَاتِ؛ فَإِنَّهُ يَرْتَفِعُ عَنْهُ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ وَالْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ. وَقَدْ يَقُولُونَ: مَنْ شَهِدَ «الْإِرَادَةَ» سَقَطَ عَنْهُ التَّكْلِيفُ، وَيَزْعُمُ أَحَدُهُمْ أَنَّ الْخَضِرَ سَقَطَ عَنْهُ التَّكْلِيفُ لِشُهُودِهِ الْإِرَادَةَ، فَهَؤُلَاءِ لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ الَّذِينَ شَهِدُوا الْحَقِيقَةَ الْكَوْنِيَّةَ، فَشَهِدُوا أَنَّ اللهَ خَالِقُ أَفْعَالِ الْعِبَادِ وَأَنَّهُ يُدَبِّرُ جَمِيعَ الْكَائِنَاتِ، وَقَدْ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ مَنْ يَعْلَمُ ذَلِكَ عِلْماً وَبَيْنَ مَنْ يَرَاهُ شُهُوداً، فَلَا يُسْقِطُونَ التَّكْلِيفَ عَمَّنْ يُؤْمِنُ بِذَلِكَ وَيَعْلَمُهُ فَقَطْ، وَلَكِنْ عَمَّنْ يَشْهَدُهُ فَلَا يَرَى لِنَفْسِهِ فِعْلاً أَصْلاً، وَهَؤُلَاءِ لَا يَجْعَلُونَ الْجَبْرَ وَإِثْبَاتَ الْقَدَرِ مَانِعاً مِنَ التَّكْلِيفِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ. وَقَدْ وَقَعَ فِي هَذَا طَوَائِفُ مِنَ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى التَّحْقِيقِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالتَّوْحِيدِ. وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّهُ ضَاقَ نِطَاقُهُمْ عَنْ كَوْنِ الْعَبْدِ يُؤْمَرُ بِمَا يُقَدَّرُ عَلَيْهِ خِلَافُهُ، كَمَا ضَاقَ نِطَاقُ الْمُعْتَزِلَةِ وَنَحْوِهِمْ مِنَ الْقَدَرِيَّةِ عَنْ ذَلِكَ.

ثُمَّ الْمُعْتَزِلَةُ أَثْبَتَتْ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ الشَّرْعِيَّيْنِ دُونَ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ الَّذِي هُوَ إِرَادَةُ اللهِ الْعَامَّةُ[١]، وَخَلْقُهُ لِأَفْعَالِ الْعِبَادِ، وَهَؤُلَاءِ أَثْبَتُوا

الشَّرح

= أن الخضر من هذا الصنف؛ لأنه آمن بالقضاء والقدر. وعلى هذا فالذي يثبت أفعال العباد يكون مكذباً بالقدر عندهم.

● **فرق الناس في القضاء والقدر والشرع الذي هو الأمر والنهي:**

[١] **أولاً: المعتزلة:** أثبتوا الشرع الذي هو الأمر والنهي وأنكروا القضاء =

الْقَضَاءَ وَالْقَدَرَ[١]، وَنَفَوا الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ فِي حَقِّ مَنْ شَهِدَ الْقَدَرَ، إِذْ لَمْ يُمْكِنْهُمْ نَفْيُ ذَلِكَ مُطْلَقاً. وَقَوْلُ هَؤُلَاءِ شَرٌّ مِنْ قَوْلِ الْمُعْتَزِلَةِ[٢]؛ وَلِهَذَا لَمْ يَكُنْ فِي السَّلَفِ مِنْ هَؤُلَاءِ أَحَدٌ، وَهَؤُلَاءِ يَجْعَلُونَ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ لِلْمَحْجُوبِينَ[٣] الَّذِينَ لَمْ يَشْهَدُوا هَذِهِ الْحَقِيقَةَ الْكَوْنِيَّةَ وَلِهَذَا يَجْعَلُونَ مَنْ وَصَلَ إِلَى شُهُودِ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ يَسْقُطُ عَنْهُ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ، وَصَارَ مِنَ الْخَاصَّةِ. وَرُبَّمَا تَأَوَّلُوا عَلَى ذَلِكَ[٤]، قَوْله تَعَالَى: ﴿وَٱعْبُدْ

الشَّرْح

= والقدر في أفعال العباد، فيقولون: العباد هم الذين خلقوا أفعالهم من طاعات ومعاص دون أن يقدر الله ذلك عليهم.

[١] **ثانياً: الجبرية**: وهؤلاء أثبتوا القضاء والقدر لكنهم قالوا: إن الإنسان مجبور على أفعاله، فلا يؤاخذ عليها، فهم أثبتوا القضاء والقدر ونفوا أفعال العباد عكس المعتزلة.

[٢] قال الشيخ: (**وَقَوْلُ هَؤُلَاءِ شَرٌّ مِنْ قَوْلِ الْمُعْتَزِلَةِ**) ووجه ذلك أن المعتزلة يعظمون الأمر والنهي، فإنهم يعظمون الشريعة بخلاف الجبرية الذين لا يعظمون الأوامر والنواهي.

[٣] **ثالثاً: الصوفية**: يجعلون الأوامر والنواهي للعامة الذين لم يصلوا إلى الله ويسقطونها عن الخاصة الذين وصلوا إلى الله ويسمونهم المحجوبين.

قال الشيخ: (**وَهَؤُلَاءِ يَجْعَلُونَ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ لِلْمَحْجُوبِينَ**).

- **شبهتهم في ذلك:**

[٤] **أي**: ربما استدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر: ٩٩]، ويفسرون اليقين بالوصول إلى الله، فمن وصل إلى الله بزعمهم سقطت عنه التكاليف. =

رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٩]. وَجَعَلُوا الْيَقِينَ هُوَ مَعْرِفَةَ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ، وَقَوْلُ هَؤُلَاءِ كُفْرٌ صَرِيحٌ[١]. وَإِنْ وَقَعَ فِيهِ طَوَائِفُ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ كُفْرٌ؛ فَإِنَّهُ قَدْ عُلِمَ بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ أَنَّ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ لَازِمٌ لِكُلِّ عَبْدٍ مَا دَامَ عَقْلُهُ حَاضِراً إِلَى أَنْ يَمُوتَ، لَا يَسْقُطُ عَنْهُ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ لَا بِشُهُودِهِ الْقَدَرَ، وَلَا بِغَيْرِ ذَلِكَ، فَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ ذَلِكَ عُرِّفَهُ؛ وَبُيِّنَ لَهُ فَإِنْ أَصَرَّ عَلَى اعْتِقَادِ سُقُوطِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ فَإِنَّهُ يُقْتَلُ.

وَقَدْ كَثُرَتْ مِثْلُ هَذِهِ الْمَقَالَاتِ فِي الْمُسْتَأْخِرِينَ. وَأَمَّا الْمُسْتَقْدِمُونَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ فَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ الْمَقَالَاتُ مَعْرُوفَةً فِيهِمْ. وَهَذِهِ الْمَقَالَاتُ هِيَ مُحَادَّةٌ للهِ وَرَسُولِهِ، وَمُعَادَاةٌ لَهُ، وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِهِ وَمُشَاقَّةٌ لَهُ؛ وَتَكْذِيبٌ لِرُسُلِهِ؛ وَمُضَادَّةٌ لَهُ فِي حُكْمِهِ، وَإِنْ كَانَ مَنْ

الشَّرح

= ويزعمون: أن الخضر سقطت عنه التكاليف حيث لم يتبع موسى وقد سبق الجواب عن ذلك.

- **حكم هؤلاء:**

[١] قال الشيخ: (**وَقَوْلُ هَؤُلَاءِ كُفْرٌ صَرِيحٌ**)؛ **لأنهم خالفوا النصوص التي فيها أن جميع الناس مكلفون بعبادة الله تعالى إلى الممات**، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]. فمعنى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾؛ **أي**: حتى ينزل بك الموت، وقال النبي ﷺ: «**إذا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ...**»(١) الحديث.

(١) أخرجه مسلم (١٦٣١).

يَقُولُ هَذِهِ الْمَقَالَاتِ قَدْ يَجْهَلُ ذَلِكَ وَيَعْتَقِدُ أَنَّ هَذَا الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ هُوَ طَرِيقُ الرَّسُولِ؛ وَطَرِيقُ أَوْلِيَاءِ اللهِ الْمُحَقِّقِينَ؛ فَهُوَ فِي ذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ الصَّلَاةَ لَا تَجِبُ عَلَيْهِ لِاسْتِغْنَائِهِ عَنْهَا بِمَا حَصَلَ لَهُ مِنَ الْأَحْوَالِ الْقَلْبِيَّةِ، أَوْ أَنَّ الْخَمْرَ حَلَالٌ لَهُ لِكَوْنِهِ مِنَ الْخَوَاصِّ الَّذِينَ لَا يَضُرُّهُمْ شُرْبُ الْخَمْرِ؛ أَوْ أَنَّ الْفَاحِشَةَ حَلَالٌ لَهُ؛ لِأَنَّهُ صَارَ كَالْبَحْرِ لَا تُكَدِّرُهُ الذُّنُوبُ؛ وَنَحْوَ ذَلِكَ.

[شَبْه هؤلاء بالمشركين]:

وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ كَذَّبُوا الرُّسُلَ يَتَرَدَّدُونَ بَيْنَ الْبِدْعَةِ الْمُخَالِفَةِ لِشَرْعِ اللهِ؛ وَبَيْنَ الِاحْتِجَاجِ بِالْقَدَرِ عَلَى مُخَالَفَةِ أَمْرِ اللهِ؛ فَهَؤُلَاءِ الْأَصْنَافُ فِيهِمْ شَبَهٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِمَّا أَنْ يَبْتَدِعُوا، وَإِمَّا أَنْ يَحْتَجُّوا بِالْقَدَرِ وَإِمَّا أَنْ يَجْمَعُوا بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنِ الْمُشْرِكِينَ: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأعراف: ٢٨][١]، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْهُمْ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ

الشَّرح

[١] **فالمشركون كذبوا على الله** ﷻ، كما قال الله عنهم: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾؛ **أي**: أن الله قدَّرها علينا فاحتجوا بالقدر على فعل الفواحش وأن الله راض عنهم في ذلك، فرد الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]، والله ﷻ نهى عن كشف العورات وسمى ذلك فاحشة. ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأعراف: ٢٩]. =

أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨][١].

[المشركون يبتدعون ما لم يشرعه الله والصوفية وعلماء الكلام كذلك]:

وَقَدْ ذَكَرَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ مَا ابْتَدَعُوهُ مِنَ الدِّينِ الَّذِي فِيهِ تَحْلِيلُ الْحَرَامِ، وَالْعِبَادَةُ الَّتِي لَمْ يُشَرِّعْهَا اللهُ بِمِثْلِ قَوْله تَعَالَى: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ﴾ [الأعـراف: ١٣٨][٢]

الشَّرْح

= أي: أخلصوا لله ﷯، فإقامة الوجوه معناها الإخلاص لله ﷯ بالعمل. فالله أمر بالقسط وهو العدل ولم يأمر بالجور وهو الظلم وأمر بإخلاص العبادة له ﷻ ولم يأمر بالشرك والفواحش.

[١] **فهم يحتجون بالقدر على كفرهم ومعاصيهم**، وكذلك الجبرية والصوفية، وقد ذكر الله عنهم أنهم قالوا ذلك كما في سورة النحل.

• **المشركون ابتدعوا في الشرع تحليل الحرام وتحريم الحلال كما ذكر الله عنهم:**

[٢] **فقد كانوا يجعلون قسماً من زروعهم وحروثهم لله**، وقسماً لأصنامهم لا يأكلونه ويقولون: هذا لله، يتعبدون لله فابتدعوا ما لم يشرع لهم قال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦]، فيجعلون من الزروع والمواشي قسمين: قسماً لله، وقسماً للأصنام، كل هذا تحكم من عندهم، والأنعام التي يملكونها جعلوا منها البَحِيرة والوَصِيلة والحامي، أشياء لم يشرعها الله ﷻ، فالله خلق بهيمة الأنعام لمصالحنا ومنافعنا، نأكل منها ونشرب من لبنها ونركبها ونستعملها في حاجاتنا ونحمل عليها، ولم يأمرنا أن نسيب منها شيئاً =

إِلَى آخِرِ السُّورَةِ. وَكَذَلِكَ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾[١]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ

الشَّرْح

= للأصنام أو لله ونقول هذه لا تركب وهذه لا تحلب وهذه لا تؤكل، كل هذا تخبط في الحلال والحرام لم يشرعه الله.

[١] **أي**: ذكر ﷻ في سورة (الأعراف) ما فعله إبليس مع الأبوين عليهما السلام وأنه حاول معهما أن يطيعاه ليبدي لهما ما وُري عنهما من سوآتهما؛ **أي**: عوراتهما، حاول معهما ذلك حتى أكلا من الشجرة التي نُهيا عن الأكل منها، فبدت لهما سوءاتهما؛ **أي**: ظهرت عوراتهما، ولهذا قال: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٧ ـ ٣٣]، فأخبر أن كشف العورات مما يأمر به إبليس وأتباعه، واليوم المستغربون منا يدعون إلى العُري، ونزع الحجاب، وإلى الاختلاط بين الرجال والنساء، ويريدون بكل ذلك تغيير هذه النعمة التي أنعم الله بها على عباده المؤمنين بما يستر عوراتهم، قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأعراف: ٢٦]، فاللباس على قسمين: منه ما هو لستر العورة، ومنه ما هو زينة يتجمل به، وهذا من نِعَم الله ﷻ، فاللباس والتزين وستر العورة من نعم الله، غير أن المشركين والشياطين من الإنس والجن يقولون: لماذا التشدد في هذا والأمم المتحضرة على خلافه؟! ولا يبالون بكشف العورات.

بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ [الأعراف: ٢٧ ـ ٣٣]. وَهَؤُلَاءِ قَدْ يُسَمُّونَ مَا أَحْدَثُوهُ مِنَ الْبِدَعِ «حَقِيقَةً»[١]، كَمَا يُسَمُّونَ مَا يَشْهَدُونَ مِنَ الْقَدَرِ «حَقِيقَةً»[٢].

وَطَرِيقُ الْحَقِيقَةِ عِنْدَهُمْ هُوَ السُّلُوكُ الَّذِي لَا يَتَقَيَّدُ صَاحِبُهُ بِأَمْرِ الشَّارِعِ وَنَهْيِهِ، وَلَكِنْ بِمَا يَرَاهُ وَيَذُوقُهُ وَيَجِدُهُ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَهَؤُلَاءِ لَا يَحْتَجُّونَ بِالْقَدَرِ مُطْلَقاً؛ بَلْ عُمْدَتُهُمُ اتِّبَاعُ آرَائِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ، وَجَعْلُهُمْ لِمَا يَرَوْنَهُ وَيَهْوَوْنَهُ حَقِيقَةً[٣]، وَأَمْرُهُمْ بِاتِّبَاعِهَا دُونَ اتِّبَاعِ أَمْرِ اللهِ وَرَسُولِهِ، نَظِيرُ بِدَعِ أَهْلِ الْكَلَامِ مِنَ الجهمية

الشَّرْح

● **شبه الصوفية بأهل الجاهلية:**

[١] **أي**: إن الصوفية **الذين يبتدعون عبادات لم يشرعها الله**، ويتركون ما شرعه الله، ويقسمون الدين إلى حقيقة، وشريعة، ويقولون: الحقيقة للخواص، والشريعة للعوام، مع أن الشريعة للجميع.

[٢] **أي**: فهم يزعمون أن ما يفعلونه موافق للقدر وإن كان كفراً وشركاً فهم مطيعون فيه لله، يعرضون عما شرعه الله ﷻ إلى ما تهواه نفوسهم، وتلذ به قلوبهم.

[٣] **فهم زيادة على الاحتجاج بالقضاء والقدر**، فقد أضافوا إلى ذلك اتباع ما يهوونه وما يتلذذون به من الأمور، فيشرعون لأنفسهم ما لذّ لهم، ووافق أهواءهم ورغباتهم، ويعرضون عن شرع الله ﷻ، ويسمون ما يشرعونه لأنفسهم وهو الذوق والوجد.. إلى آخره أنه (حقيقة)، ويسمون ما جاءت به الرسل (شريعة) ويقولون: الحقيقة طريق الخواص، والشريعة طريق العوام.

وَغَيْرِهِمْ[١]، الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَا ابْتَدَعُوهُ مِنَ الْأَقْوَالِ الْمُخَالِفَةِ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ حَقَائِقَ عَقْلِيَّةً يَجِبُ اعْتِقَادُهَا، دُونَ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ السَّمْعِيَّاتُ.

ثُمَّ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ إِمَّا أَنْ يُحَرِّفُوهُ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَإِمَّا أَنْ يُعْرِضُوا عَنْهُ بِالْكُلِّيَّةِ، فَلَا يَتَدَبَّرُونَهُ وَلَا يَعْقِلُونَهُ؛ بَلْ يَقُولُونَ: نُفَوِّضُ مَعْنَاهُ إِلَى اللهِ، مَعَ اعْتِقَادِهِمْ نَقِيضَ مَدْلُولِهِ[٢]. وَإِذَا حُقِّقَ عَلَى

الشَّرْح

• **مشابهة بدع أهل الكلام في الاستدلال لبدع الصوفية:**

[١] **فالصوفية في (أَمْرُهُمْ بِاتِّبَاعِهَا دُونَ اتِّبَاعِ أَمْرِ اللهِ وَرَسُولِهِ، نَظِيرُ بِدَعِ أَهْلِ الْكَلَامِ مِنَ الجهمية وَغَيْرِهِمْ..)**، فالجهمية ورئيسهم الجهم بن صفوان، والمعتزلة ورئيسهم واصل بن عطاء ومن شابهه وعموم المتكلمين يحتجون بعلم الجدل وقواعد المنطق وما يسمونها البراهين العقلية، ويقدمونها على الأدلة الشرعية، ويقولون: إن الأدلة الشرعية ظنية لا تفيد اليقين، وأما البراهين العقلية فهي يقينية؛ ولذلك أنكروا الأسماء والصفات الثابتة بالكتاب والسُّنَّة؛ لأنها لا توافق البراهين العقلية بزعمهم، ويسمون الأدلة الشرعية (أدلة السمع): وأدلة المنطق (أدلة العقل)، وعندهم العقل مقدم على الشرع؛ لأن الشرع لا يفيد اليقين، وأما العقليات فإنها تفيد اليقين، وهذا من كيد الشيطان لبني آدم، فكما أنه أضلهم في العبادة أضلهم في العقيدة أيضاً.

• **موقفهم من أدلة الشرع التي تعارض أدلة العقل بزعمهم:**

[٢] **فهم يتبعون الأدلة العقلية والبراهين المنطقية**؛ لأن عقائدهم مبنية على ذلك، فهم لا يحتجون لا بالآيات ولا بالأحاديث، وإنما يحتجون بقواعد المنطق وعلم الكلام، ويسمونها (براهين قطعية).

• **وموقفهم من أدلة القرآن والسُّنَّة**: إما أنهم يفسرون الآيات والأحاديث =

هَؤُلَاءِ مَا يَزْعُمُونَهُ مِنَ الْعَقْلِيَّاتِ الْمُخَالِفَةِ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وُجِدَتْ جَهْلِيَّاتٌ وَاعْتِقَادَاتٌ فَاسِدَةٌ[١]. وَكَذَلِكَ أُولَئِكَ إِذَا حُقِّقَ عَلَيْهِمْ مَا يَزْعُمُونَهُ مِنْ حَقَائِقِ أَوْلِيَاءِ اللهِ الْمُخَالِفَةِ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وُجِدَتْ مِنَ الْأَهْوَاءِ الَّتِي يَتَّبِعُهَا أَعْدَاءُ اللهِ لَا أَوْلِيَاؤُهُ.

الشَّرْح

= حتى توافق أهواءهم بغير تفسيرها الصحيح، وهذا ما يسمونه بالتأويل. وإما أنهم يفوضون معناها ولا يفسرونها، ويعتقدون في نفس الأمر أنها لا تدل على أسماء الله ولا على صفاته، ويقولون: لا ندري ما المراد بها، بل نفوض معناها إلى الله. فهم إما مؤولة، وإما مفوضة.

• **فهذه طريقتهم مع أدلة الشرع**: إما تأويلها وتحريفها وتفسيرها كما يريدون، وإما أن يفوضوها كأنها أَحَاجٍ وألغاز لا يُعرف معناها. وذلك إذا عجزوا عن تأويلها إنها لا تدل على ما يقوله أهل السُّنَّة والجماعة من إثبات أسماء الله وصفاته، وربما ينسبون هذه الطريقة الإلحادية إلى السلف، ويقولون: طريقة السلف هي التفويض، وطريقة الخلف هي التأويل؛ ولذلك قالوا: طريقة السلف أسلم وهي التفويض عندهم، وطريق الخلف أعلم وأحكم، وهي التأويل.

وقد كذبوا فهذه ليست طريقة السلف، وليست طريقة السلف أسلم فقط؛ بل هي الأسلم وهي الأعلم والأحكم.

[١] **هم يقولون: إن الأدلة العقلية يقينيات**، فيعتبرون الأدلة العقلية ـ وهي في الحقيقة جهليات ـ يقينيات، واليقينيات ما دل عليه الكتاب والعقل السليم لا يخالف النقل الصحيح أبداً، فإن اختلفا: فإما أن يكون النقل غير صحيح، وإما أن العقل غير سليم، هذه هي القاعدة؛ لأن العقل لا يدرك كل شيء، فهو قاصر وتابع للنقل، ولو كانت العقول كافية لما احتجنا إلى نزول القرآن والسُّنَّة، ولشيخ الإسلام كتاب بعنوان: «درء تعارض العقل والنقل» وهو مطبوع.

وَأَصْلُ ضَلَالِ مَنْ ضَلَّ[١]، هُوَ بِتَقْدِيمِ قِيَاسِهِ عَلَى النَّصِّ الْمُنَزَّلِ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَاخْتِيَارِهِ الْهَوَى عَلَى اتِّبَاعِ أَمْرِ اللهِ، فَإِنَّ الذَّوْقَ وَالْوَجْدَ وَنَحْوَ ذَلِكَ هُوَ بِحَسَبِ مَا يُحِبُّهُ الْعَبْدُ، فَكُلُّ مُحِبٍّ لَهُ ذَوْقٌ وَوَجْدٌ بِحَسَبِ مَحَبَّتِهِ؛ فَأَهْلُ الإِيمَانِ لَهُمْ مِنَ الذَّوْقِ وَالْوَجْدِ مِثْلُ مَا بَيَّنَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِقَوْلِهِ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ كَانَ يُحِبُّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَمَنْ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَرْجِعَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ**»(١).

وَقَالَ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «**ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبّاً وَبِالْإِسْلَامِ دِيناً وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيّاً**»(٢).

وَأَمَّا أَهْلُ الْكُفْرِ وَالْبِدَعِ وَالشَّهَوَاتِ فَكُلٌّ بِحَسَبِهِ، قِيلَ لِسُفْيَانَ بْنِ

الشَّرْح

[١] **أي: إن سبب الضلال هو**: تقديم العقل على النص المنزل من عند الله، وتقديم الهوى على اتباع الهدى. فعلماء الكلام يقدمون آراءهم وعقولهم وما يزعمونه من العقليات على كتاب الله وسُنَّة رسوله، وكذلك الصوفية يقدمون الذوق وهو ما يتلذذون به ولو كان مخالفاً للكتاب والسُّنَّة ويقدمون الوجد وهو ما يحبونه عليهما، وهذا هو أصل الضلال، فترك الكتاب والسُّنَّة وجعل بديلهما الآراء والبدع والأذواق والمواجيد والأقيسة والعقول هو الذي أوقعهم في الضلال، ولهذا لما سئل سفيان بن عيينة: (**مَا بَالُ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ لهم محبة شديدة لأهوائهم؟**) أجاب بقوله: =

(١) أخرجه بنحوه مسلم (٤٣).
(٢) أخرجه مسلم (٣٤).

عيينة: مَا بَالُ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ لَهُمْ مَحَبَّةٌ شَدِيدَةٌ لِأَهْوَائِهِمْ؟! فَقَالَ: أَنَسِيتَ قَوْلَه تَعَالَى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣]، أَوْ نَحْوَ هَذَا مِنَ الْكَلَامِ، فَعُبَّادُ الْأَصْنَامِ يُحِبُّونَ آلِهَتَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وَقَالَ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]، وَقَالَ: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم: ٢٣]؛ وَلِهَذَا يَمِيلُ هَؤُلَاءِ إِلَى سَمَاعِ الشِّعْرِ وَالْأَصْوَاتِ الَّتِي تُهَيِّجُ الْمَحَبَّةَ الْمُطْلَقَةَ[١] الَّتِي لَا تَخْتَصُّ بِأَهْلِ الْإِيمَانِ، بَلْ يَشْتَرِكُ فِيهَا مُحِبُّ الرَّحْمَنِ، وَمُحِبُّ الْأَوْثَانِ[٢]،

الشَّرح

= أنسيت قوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾؛ **أي**: إن حب العجل كان سبب كفرهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾، وقوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ﴾.

[١] قال الشيخ: (**وَلِهَذَا يَمِيلُ هَؤُلَاءِ إِلَى سَمَاعِ الشِّعْرِ وَالْأَصْوَاتِ الَّتِي تُهَيِّجُ الْمَحَبَّةَ الْمُطْلَقَةَ**): حرم الله ـ جلّ وعلا ـ هؤلاء من لذة القرآن والاستماع للقرآن، وصرفهم إلى استماع الشعر وإلى الأغاني، والمزامير وغير ذلك، ولذلك يتخذ المتصوفة الرقص والغناء والطبول عبادة يقيمونها حتى في المساجد ـ نسأل الله العافية ـ لأنهم يحبونها وتوافق أهواءهم.

[٢] **أي**: الأصوات التي تهيج المحبة المطلقة لا يُختص بالميل إليها المؤمنون لكن مع الفرق فالمؤمنون يحبون الأصوات الطيبة، وغيرهم يحبون الأصوات الخبيثة.

وَمُحِبُّ الصُّلْبَانِ، وَمُحِبُّ الْأَوْطَانِ، وَمُحِبُّ الإِخْوَانِ، وَمُحِبُّ الْمُرْدَان، وَمُحِبُّ النِّسْوَانِ. وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ أَذْوَاقَهُمْ وَمَوَاجِيدَهُمْ مِنْ غَيْرِ اعْتِبَارٍ لِذَلِكَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَمَا كَانَ عَلَيْهِ سَلَفُ الأُمَّةِ.

فَالْمُخَالِفُ لِمَا بُعِثَ بِهِ رَسُولُهُ مِنْ عِبَادَتِهِ وَطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ لَا يَكُونُ مُتَّبِعاً لِدِينٍ شَرَعَهُ اللهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى[١]: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية: ١٨، ١٩]، بَلْ يَكُونُ مُتَّبِعاً لِهَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى

الشَّرْح

- **المسلم يتبع ما شرعه الله ولا يتبع هواه:**

[١] **الذي يتبع هواه لا يكون متبعاً لدين شرعه الله**، وإنما يتبع الدين الذي يُمْليه عليه هواه، وله حالتان: إما أن يكون صوفيّاً غالياً يتبع ما يسمى بالحقيقة ولا يتبع الشريعة ويقولون: الحقيقة للخواص والشريعة للعوام وهذه الحقيقة بدعة ابتدعوها. وإما أن يكون جبريّاً يحتج بالقدر كما سبق بيانه.

والله تعالى قال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ﴾ أيها الرسول، ﴿عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾، وهذه الشريعة ما شرعه من الأمر والنهي، ﴿فَٱتَّبِعْهَا﴾؛ **أي**: اتبع هذه الشريعة، ولا تبغ بها بديلاً، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾، فيأخذون بما يسمونه الحقيقة ويتركون الشريعة أو يحتجون بالقدر على ترك الشريعة. وهي أهواء ليست مبنية على العلم، وإنما هي مبنية على الذوق والوجد، وما أشبه ذلك مما تهواه نفوسهم، ثم قال: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾؛ **أي**: لو اتبعت أهواءهم وتركت الشريعة لن يغنوا عنك يوم القيامة من الله شيئاً، ولن يخلصوك من عذاب الله ـ جلّ وعلا ـ.

مِنَ اللهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ [الشورى: ٢١][١]، وَهُمْ فِي ذَلِكَ تَارَةً يَكُونُونَ عَلَى بِدْعَةٍ يُسَمُّونَهَا حَقِيقَةً يُقَدِّمُونَهَا عَلَى مَا شَرَعَهُ اللهُ، وَتَارَةً يَحْتَجُّونَ بِالْقَدَرِ الْكَوْنِيِّ عَلَى الشَّرِيعَةِ، كَمَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ كَمَا تَقَدَّمَ.

[إنكار اتخاذ الأسباب اعتماداً على القدر]:

وَمِنْ هَؤُلَاءِ طَائِفَةٌ هُمْ أَعْلَاهُمْ قَدْراً وَهُمْ مُسْتَمْسِكُونَ بِالدِّينِ فِي أَدَاءِ الْفَرَائِضِ الْمَشْهُورَةِ، وَاجْتِنَابِ الْمُحَرَّمَاتِ الْمَشْهُورَةِ، لَكِنْ يَغْلَطُونَ فِي تَرْكِ مَا أُمِرُوا بِهِ مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي هِيَ عِبَادَةٌ[٢]، ظَانِّينَ

الشَّرح

[١] **فالتشريع حق لله ـ جلّ وعلا ـ**، والعبادة حق لله هو الذي يشرعها ويأمر بها، وأما العبادة التي لم يشرعها الله مما يسمونه بالحقيقة فهذه بدعة، وليست من شرع الله ﷻ، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾: هذا استنكار، فهؤلاء الشركاء شرعوا لهم ديناً غير الدين الذي جاء به محمد ﷺ الذي هو شرع الله، ﴿شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾، هذا إنكار من الله ﷻ أن يكون لهم دين غير ما شرعه الله وجاء به رسوله محمد ﷺ. وكذلك ترك العبادة والاحتجاج بالقدر لم يشرعه الله وهو معنى: قوله: **(وَتَارَةً يَحْتَجُّونَ بِالْقَدَرِ الْكَوْنِيِّ عَلَى الشَّرِيعَةِ)**: فيقولون: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]. وأهل الحق يجمعون بين العمل بالشريعة، وبين الإيمان بالقضاء والقدر، ويقولون: لا تنافي ولا تعارض بينهما.

[٢] **أي: من الصوفية طائفة تأتي بالعبودية من أوامر ونواهٍ**، فتجتنب المنهيات والمعاصي، وتفعل الواجبات وتمتثل الأوامر وهذه أخف ممن يترك =

أَنَّ الْعَارِفَ إِذَا شَهِدَ «الْقَدَرَ» أَعْرَضَ عَنْ ذَلِكَ[١]، مِثْلَ مَنْ يَجْعَلُ التَّوَكُّلَ مِنْهُمْ أَوِ الدُّعَاءَ وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنْ مَقَامَاتِ الْعَامَّةِ دُونَ الْخَاصَّةِ[٢]، بِنَاءً عَلَى أَنَّ مَنْ شَهِدَ الْقَدَرَ عَلِمَ أَنَّ مَا قُدِّرَ سَيَكُونُ، فَلَا حَاجَةَ إِلَى ذَلِكَ، وَهَذَا غَلَطٌ عَظِيمٌ.

الشَّرْح

= الشريعة ويأخذ بالحقيقة، ولكنها ترى أنه لا قيمة للأسباب؛ ولذلك يقولون: إن الدعاء لا فائدة فيه، فهم يلغون الأسباب التي أمر الله بها، وهذا ضلال؛ لأن الله ـ جلّ وعلا ـ أمر باتخاذ الأسباب، ولا تنافي بين اتخاذ الأسباب وبين الإيمان بالقدر؛ لأن الذين قبلهم قالوا: إن الشريعة تعارض القدر، وهؤلاء قالوا: الشريعة لا تعارض القدر، ولكن الأخذ بالأسباب يعارض القدر، فلا فائدة من اتخاذ الأسباب عندهم. وهذا ضلال بلا شك؛ لأن الله أمر باتخاذ الأسباب مع فعل العبادة، ولا تعارض بينهما، فجعل الدعاء سبباً، والاستعانة بالله سبباً، والتوكل على الله سبباً. واتخاذ الأسباب النافعة مأمور به، فإعداد العدة في الجهاد من أقوى الأسباب، فالأسباب لها فائدة كبيرة؛ لأنها تعين على العبادة.

● **شبهتهم في ترك الأسباب:**

[١] يقولون: إنه لا حاجة إلى اتخاذ الأسباب مع وجود القدر، إن كان الله قد قدر شيئاً فلا تنفع الأسباب مع القدر.

[٢] ويقولون اتخاذ الأسباب (**مِنْ مَقَامَاتِ الْعَامَّةِ دُونَ الْخَاصَّةِ**)؛ **أي:** يحتاجه العوام الذين إيمانهم ضعيف ويقينهم ضعيف، مثلما قال الذين من قبلهم: إن الشريعة يحتاجها العوام، فهم فرع منهم، وهذه مغالطة، فما من شيء إلا وله أسباب، إذا وجد السبب وجد المسبَّب بإذن الله، وإذا عُدم السبب عُدم المسبَّب. فالله أمر باتخاذ الأسباب وأما حصول المقصود فهو عنده سبحانه وتعالى، فلا تعارض بين اتخاذ الأسباب وبين العبودية لله عز وجل كما أنه =

[الأشياء وأسبابها]:

فَإِنَّ اللهَ قَدَّرَ الْأَشْيَاءَ بِأَسْبَابِهَا، كَمَا قَدَّرَ السَّعَادَةَ وَالشَّقَاوَةَ بِأَسْبَابِهَا[١]، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ خَلَقَ لِلْجَنَّةِ أَهْلاً خَلَقَهَا لَهُمْ**

الشَّرْح

= لا تعارض بين فعل الأسباب، والإيمان بالقضاء والقدر؛ لأن فعل الأسباب من القضاء والقدر، وإذا اتخذ الإنسان السبب فهذا دليل على أن الله قدر أن يتخذه، وإذا ترك الإنسان السبب فهذا دليل على أنه قدر عليه ترك السبب، فالقدر يلازم الإنسان في كل تصرف، ولا محيد له عن القضاء والقدر.

● **الرد عليهم:**

[١] قوله: (**فَإِنَّ اللهَ قَدَّرَ الْأَشْيَاءَ بِأَسْبَابِهَا**): فلكل شيء سبب، فللسعادة ودخول الجنة أسباب، قال تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [النحل: ٣٢]، فالعمل سبب لدخول الجنة، وبدون عمل فلا، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢]، فلا بد من الأسباب، فلن تدخل الجنة بدون سبب، والسبب هو العمل الصالح، وكذا دخول النار له أسباب وهي الكفر والمعاصي، فإنكار الأسباب مغالطة وجهل، وإن كانوا يظنون أنهم بلغوا القمة في العلم والمعرفة، وأن الأسباب إنما هي للذين ليس عندهم يقين وليس عندهم اعتماد على الله ﷻ، فالله أمر باتخاذ الأسباب، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فهذا سبب للنصر، وقال: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ﴾ [هود: ١٢٣]، فالتوكل سبب من الأسباب، وكذلك قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ١٥]؛ **أي**: ابذلوا الأسباب لطلب الرزق، فلا تجلس وتقول: يأتيني الرزق وأنا جالس، وتعطل الأسباب، فكذا الطيور لا تبقى في أوكارها، بل تخرج وتبحث عن الرزق؛ =

وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ وَبِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ»[١](١)، وَكَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَمَّا أَخْبَرَهُمْ بِأَنَّ اللهَ كَتَبَ الْمَقَادِيرَ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلَا نَدَعُ الْعَمَلَ وَنَتَّكِلُ عَلَى الْكِتَابِ؟ فَقَالَ: «**لَا. اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ. أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ**»(٢).

فَمَا أَمَرَ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ مِنَ الْأَسْبَابِ فَهُوَ عِبَادَةٌ وَالتَّوَكُّلُ مَقْرُونٌ بِالْعِبَادَةِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِۚ﴾ [هود:

الشَّرح

= ولذلك من حين تصبح تخرج من أوكارها وتذهب في طلب الرزق؛ لأن الله فطرها على أنه لا بد من اتخاذ الأسباب.

[١] **ولم يقل**: خلق لها أهلاً يدخلونها بدون عمل، فهو خلقهم وقدر أن يعملوا شيئاً يدخلون به الجنة، ولذلك قال: «**وَبِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ**»، وكذا خلق للنار أهلاً، وقال ﷺ: «**وبعمل أهل النَّار يعْملونَ**»، فالعمل هو السبب، وقال ﷺ: «**اعْمَلوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**»، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الليل: ٥ ـ ٧]، هذه أسباب، ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الليل: ٨ ـ ١٠]، فهذه أسباب السعادة والشقاوة، فلا بد أن يعمل الإنسان إما بالخير وإما بالشر، قال: «**كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا**»(٣): ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٢)، وأبو داود (٤٧٠٣).
(٢) أخرجه البخاري (٤٩٤٥، ٤٩٤٧)، ومسلم (٢٦٤٧)، وانظر: الأدب المفرد (٩٠٣).
(٣) أخرجه مسلم (٢٢٣).

١٢٣][١]، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ۝٣٠﴾ [الرعد: ٣٠][٢]، وَقَوْلِ شُعَيْبٍ عليه السلام: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝٨٨﴾ [هود: ٨٨][٣].

[لا يجوز الاعتماد على الكرامات وخرق العادات]:

وَمِنْهُمْ طَائِفَةٌ قَدْ تَتْرُكُ الْمُسْتَحَبَّاتِ مِنَ الْأَعْمَالِ دُونَ الْوَاجِبَاتِ، فَتَنْقُصُ بِقَدْرِ ذَلِكَ[٤]. وَمِنْهُمْ طَائِفَةٌ يَغْتَرُّونَ بِمَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْ خَرْقِ

الشَّرْح

[١] وقال الله ـ جلّ وعلا ـ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]: فالتوكل سبب، وقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢﴾ [الطلاق: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ۝٤﴾ [الطلاق: ٤]، فالتقوى سبب للخروج من الشدائد، وهي عمل من الأعمال.

• **والتوكل سبب والتوفيق سبب:**

[٢] **أي**: لا معبود لي بحق سواه، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ هذا سبب، ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ ۝٣٠﴾؛ **أي**: رجوعي من الذنوب إلى الطاعة؛ فالتوبة سبب للمغفرة، قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ۝٨٢﴾ [طه: ٨٢]؛ فالمغفرة لها سبب، وما من شيء إلا وله سبب، فقطع الأسباب والاعتماد على القدر مغالطة وجهل، وإن كانوا يزعمون أنهم أهل اليقين وأهل المعرفة.

[٣] قال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝٨٨﴾ [هود: ٨٨]، فالتوفيق سبب التوكل والإنابة.

[٤] **ومن هؤلاء الضالين:**

من لا يترك الأسباب كلها، لكن يفعل الواجبات، ويترك المستحبات، وهذا نقص؛ فالمستحبات مع الواجبات سبب من الأسباب.

ومنهم من ينشغل بما يحصل له من الكرامات عن عبادة الله وشكره.

عَادَةٍ مِثْلَ مُكَاشَفَةٍ؛ أَوِ اسْتِجَابَةِ دَعْوَةٍ مُخَالِفَةٍ لِلْعَادَةِ الْعَامَّةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَيَشْتَغِلُ أَحَدُهُمْ عَمَّا أُمِرَ بِهِ مِنَ الْعِبَادَةِ وَالشُّكْرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ. فَهَذِهِ الْأُمُورُ وَنَحْوُهَا كَثِيراً مَا تَعْرِضُ لِأَهْلِ السُّلُوكِ وَالتَّوَجُّهِ[١]؛ وَإِنَّمَا يَنْجُو الْعَبْدُ مِنْهَا بِمُلَازَمَةِ أَمْرِ اللهِ الَّذِي بَعَثَ بِهِ رَسُولَهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ، كَمَا قَالَ الزُّهْرِيُّ: كَانَ مَنْ مَضَى مِنْ سَلَفِنَا يَقُولُونَ: الِاعْتِصَامُ بِالسُّنَّةِ نَجَاةٌ. وَذَلِكَ أَنَّ السُّنَّةَ ـ كَمَا قَالَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللهُ ـ: مِثْلُ سَفِينَةِ نُوحٍ مَنْ رَكِبَهَا نَجَا وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا غَرِقَ[٢].

الشرح

[١] هذه الأمور تحصل: **(لأهل السلوك والتوجه)**: وهم الصوفية.

[٢] **أي: من أسباب النجاة مخالفة هؤلاء والتمسك بالسُّنَّة**، قال ﷺ: **(فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافاً كَثِيراً فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ)**(١): فعند ظهور الفتن والشرور لا نجاة إلا بالتمسك بالسُّنَّة، وهي من أعظم الأسباب التي أمر بها النبي ﷺ، ومن المغالطة أن يقول الإنسان: إن كتبت لي الهداية اهتديت، وإن كتبت لي الضلالة ضللت، ويترك التمسك بالسُّنَّة. ولهذا قال الأئمة: السُّنَّة **(مِثْلُ سَفِينَةِ نُوحٍ مَنْ رَكِبَهَا نَجَا وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا غَرِقَ)**، وذلك لما جاء الطوفان وعمّ الماء الأرض وغطى الجبال؛ ما نجا إلا الذين كانوا في السفينة مع نوح عليه السلام، والبقية غرقوا، ومنهم ابن نوح، قال له: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾، فقال: ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود: ٤٢، ٤٣]؛ فغرق معهم؛ لأنه ترك السبب الذي أمر الله به نبيَّه نوحاً عليه السلام، وهو صناعة السفينة والركوب فيها، فهذا سبب من الأسباب، فلما =

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧).

[شروط صحة العبادة]:

وَالْعِبَادَةُ وَالطَّاعَةُ وَالِاسْتِقَامَةُ وَلُزُومُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْمَاءِ مَقْصُودُهَا وَاحِدٌ[١]، وَلَهَا أَصْلَانِ:

الشَّرح

= ترك هذا الجاهل السبب غرق مع الكافرين، نسأل الله العافية، وكذلك السُّنَّة: من تركها وقت الفتن هلك مع أهل الضلال، فالفتن مثل الطوفان، ولا يُنجي منها إلا التمسك بالسُّنَّة، ولا يمكن أن تتمسك بالسُّنَّة إلا إذا عرفتها فما كل من ادعى أنه متمسك بالسُّنَّة وأنه سلفي يكون كذلك، لا بد من معرفة منهج السلف، ومعرفة السُّنَّة ودراستها والتمكن من فهمها؛ حتى يتمسك بها على الوجه الصحيح؛ لهذا قال ـ جلّ وعلا ـ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التوبة: ١٠٠] بهذا الشرط (بإحسان)؛ **بمعنى**: أنك تعرف منهجهم ومذهبهم وتتمسك به على بصيرة؛ لأن كثيراً ممن يُضللون الناس يقولون: هذا منهج السلف، وهذا ما عليه السلف، وهو غير صحيح، فيهلك ويظن أنه على منهج السلف؛ لأنه لا يعرف هذا المنهج، ولم يدرسه دراسة صحيحة، وقد يكون اطلع عليه في الكتب ولم يفهمه الفهم المطلوب واعتمد على فهمه المحدود وقراءته القاصرة، ولم يدرس على أهل العلم ولم يسأل عما أُشكل عليه، فيظن أنه فهم في حين أنه لم يفهم، وأنه عالم وهو ليس بعالم، فيضل بهذه الطريقة وإن كان يريد مذهب السلف، ولكن لكونه لم يعرفه ولم يدرسه ولم يتمعن فيه؛ فإنه لم يحصل عليه.

[١] **هذه كلها أمور مطلوبة**، ولكن متى تحصل؟ تحصل إذا اتخذت أسبابها.

وهي الاستقامة والطاعة وسلوك الصراط المستقيم والعبادة والدين كل منها ينبني على أصلين، إن حققت الأصلين تحقق لك ما تريد، وإن لم تحقق الأصلين لم يتحقق لك شيء، والأصلان هما: =

«أَحَدُهُمَا»: أَلَّا يُعْبَدَ إِلَّا اللهُ.

وَ«الثَّانِي»: أَنْ يُعْبَدَ بِمَا أَمَرَ وَشَرَعَ لَا بِغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْبِدَعِ[١].

الشَّرْح

= • **الأول**: الإخلاص لله عَزَّ وَجَلَّ في القصد والنية، فلا يكون في عملك شرك أو قصد وتوجه لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

• **الثاني**: المتابعة للرسول ﷺ فلا يكون في عملك بدعة، قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة: ١١٢]، فقوله: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾؛ **أي**: أخلص عمله لله من الشرك، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾؛ **أي**: وهو متبع لسُنَّة الرسول ﷺ، مَنْ جمع بين الشرطين، فإنه يحصل على هذه النتيجة: ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾، ومن أخل بهذين الشرطين أو بأحدهما؛ فلن يتحقق له هذا الوعد من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: ١٢٥]، فهذه هي الأسباب الصحيحة للنجاة. ولهذا قال النبي ﷺ: (**وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ**)(١).

[١] وهذا معنى قوله: (**أَنْ يُعْبَدَ بِمَا أَمَرَ وَشَرَعَ لَا بِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْبِدَعِ**): فلا يعبد الله إلا بما شرعه على لسان رسوله محمد ﷺ؛ ولهذا قال ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»(٢): وقال ﷺ: «**فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ**»، فمن ترك العمل بالسُّنَّة ضلَّ، ولهذا قال: «**وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»، وفي رواية: «**وَكُلُّ ضَلالَةٍ فِي النَّارِ**»(٣). هناك عوائد وهناك استحسانات وهناك مبتدعات يتبعها كثير من الناس، وهناك أهواء ورغبات مخالفة للسُّنَّة. وكل ذلك ضلال يخرج عن سُنَّة الرسول ﷺ، قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ =

(١) سبق تخريجه (٨٩).
(٢) أخرجه البخاري (٢١٤١).
(٣) أخرجه النسائي (١٥٧٨).

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠][١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة: ١١٢][٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ

الشَّرح

= ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠]، فليس هناك هداية إلا بالاستجابة لرسول الله ﷺ، والتمسك بسُنَّته، ولن يحصل ذلك إلا إذا تعلم الإنسان سُنَّة الرسول ﷺ وفهمها وأتقنها، ثم بعد ذلك يتمسك بها على بصيرة، أما إذا لم يعلم سُنَّة الرسول ﷺ فقد يكون على بدعة ويظن أنها سُنَّة؛ لأنه وجد الناس عليها وأهل الضلال يدعون إليها وينمقونها، ولكونه يجهل سُنَّة الرسول ﷺ فقد تنطلي عليه الضلالات ويظنها سُنَّة، وهو لا يميز بين السُّنَّة والبدعة.

[١] هذا فيه الشرطان:

• **الشرط الأول:** ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾، ولا يكون العمل صالحاً إلا إذا كان على سُنَّة الرسول ﷺ.

• **والشرط الثاني: الإخلاص:** ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾.

[٢] بهذين الشرطين يحصل على الأجر وبدونهما لا يحصل على شيء؛ فاليهود والنصارى قالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ﴾ [البقرة: ١١١]، اليهود يقولون: لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديّاً، والنصارى يقولون: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيّاً، ورد الله عليهم بقوله: ﴿بَلَىٰ﴾ هذا نقض لنفيهم؛ **أي:** يدخلها ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ ولو لم يكن يهوديّاً ولا نصرانيّاً، فمن اتصف بهاتين الصفتين دخل الجنة من أي لون ومن أي جنس وفي أي وقت؛ لا كما يدعيه اليهود والنصارى من حصرهم دخول الجنة لهم دون غيرهم.

خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ [النساء: ١٢٥][١].

فَالْعَمَلُ الصَّالِحُ هُوَ الْإِحْسَانُ وَهُوَ فِعْلُ الْحَسَنَاتِ. و«الْحَسَنَاتُ» هِيَ مَا أَحَبَّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ[٢]، وَهُوَ مَا أَمَرَ بِهِ أَمْرَ إِيجَابٍ أَوِ اسْتِحْبَابٍ، فَمَا كَانَ مِنَ الْبِدَعِ فِي الدِّينِ الَّتِي لَيْسَتْ مَشْرُوعَةً فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّهَا وَلَا رَسُولُهُ، فَلَا تَكُونُ مِنَ الْحَسَنَاتِ وَلَا مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، كَمَا أَنَّ مَنْ يَعْمَلُ مَا لَا يَجُوزُ كَالْفَوَاحِشِ

الشَّرْح

[١] **وفي هذه الآية الشرطان أيضاً:**

• **الشرط الأول:** في قوله: ﴿مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾؛ **أي:** أخلص عمله لله.

• **والشرط الثاني:** ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾؛ **أي:** متبع للرسول ﷺ، وأصل السُّنَّة ما كان عليه إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾ [النحل: ١٢٠، ١٢١]، ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا محمد، ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٣]، فالذي عليه محمد ﷺ بل كل الأنبياء والمرسلين بعد إبراهيم كلهم على ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

• **لا فرق بين العمل الصالح وبين الإحسان:**

[٢] **فلا يغتر الإنسان بما عليه الناس،** وإن كان يظهر عليهم العلم والفضل، حتى يرى ما هم عليه هل يوافق السُّنَّة أو يخالفها، فإن كان موافقاً للسُّنَّة فهو إحسان وعمل صالح، وأما إن كان مخالفاً للسُّنَّة فهو ضلال وعمل فاسد، وإن كان عليه مَنْ عليه مِنَ الناس. فلا يغتر أحد بالمظاهر ولا بحسن الظن، ما دام معه مقياس يقيس به الصحيح من الفاسد، والسُّنَّة النبوية من البدعة، والصحيح من السقيم وليس المقياس ما عليه الناس أو الكثرة فقط.

وَالظُّلْمِ لَيْسَ مِنَ الْحَسَنَاتِ، وَلَا مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ[١].

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ فَهُوَ إِخْلَاصُ الدِّينِ للهِ وَحْدَهُ، وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَقُولُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ عَمَلِي كُلَّهُ صَالِحاً، وَاجْعَلْهُ لِوَجْهِكَ خَالِصاً، وَلَا تَجْعَلْ لِأَحَدٍ فِيهِ شَيْئاً[٢].

وَقَالَ الفضيل بْنُ عِيَاضٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] قَالَ: أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ، قَالُوا: يَا أَبَا عَلِيٍّ مَا أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ؟ قَالَ: إِنَّ الْعَمَلَ إِذَا كَانَ خَالِصاً وَلَمْ يَكُنْ صَوَاباً لَمْ يُقْبَلْ، وَإِذَا كَانَ صَوَاباً وَلَمْ يَكُنْ خَالِصاً لَمْ يُقْبَلْ، حَتَّى يَكُونَ خَالِصاً صَوَاباً، وَالْخَالِصُ أَنْ يَكُونَ للهِ، وَالصَّوَابُ أَنْ يَكُونَ عَلَى السُّنَّةِ[٣].

الشَّرْح

[١] **وأما البدع (فَلَا تَكُونُ مِنَ الْحَسَنَاتِ وَلَا مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ)**، بل هي من الضلال، وإن كان صاحبها يظن أنه محسن، وأن هذه حسنات وأعمال صالحة؛ فهي هباء منثور؛ لأنها لم تُبْنَ على أصل.

فما خالف الكتاب والسُّنَّة فإنه ضلال، وإن كان صاحبه يظن أنه حسن، فالعبرة ليست بالظن ولا بالقصد، بل العبرة بالمتابعة بصدق.

والعمل يكون صالحاً إذا كان موافقاً للكتاب والسُّنَّة، ويكون فاسداً مردوداً إذا كان مخالفاً للسُّنَّة.

[٢] **هذا دعاء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب** رضي الله عنه، فيه شرطا قبول العمل قال: **(اللَّهُمَّ اجْعَلْ عَمَلِي كُلَّهُ صَالِحاً)** هذا هو المتابعة وترك البدعة فيكون العمل صالحاً إذا كان على سُنَّة الرسول ﷺ، ثم قال: **(وَاجْعَلْهُ لِوَجْهِكَ خَالِصاً)** هذا هو الإخلاص بأن لا يكون فيه شرك.

[٣] **الفضيل** رحمه الله **من العلماء والعباد الصالحين**، فسَّر قوله تعالى: =

فَإِنْ قِيلَ: فَإِذَا كَانَ جَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ اللهُ دَاخِلاً فِي اسْمِ الْعِبَادَةِ فَلِمَاذَا عَطفَ عَلَيْهَا غَيْرَهَا؛ كَقَوْلِهِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة: ٥][١]، وَقَوْلِهِ: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣][٢]،

الشَّرح

= ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، لم يقل: أكثر عملاً؛ لأن العبرة بالأحسن وهو الموافق للسُّنَّة وليست بالكثرة مع مخالفة السُّنَّة، ولما سُئل الفضيل رَحِمَهُ اللَّهُ عن معنى قوله: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، فقال: (**أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ**): قيل: (**مَا أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ؟**): قَال: (**إِنَّ الْعَمَلَ إِذَا كَانَ خَالِصاً وَلَمْ يَكُنْ صَوَاباً لَمْ يُقْبَلْ، وَإِذَا كَانَ صَوَاباً وَلَمْ يَكُنْ خَالِصاً لَمْ يُقْبَلْ، حَتَّى يَكُونَ خَالِصاً صَوَاباً، وَالْخَالِصُ أَنْ يَكُونَ للهِ، وَالصَّوَابُ أَنْ يَكُونَ عَلَى السُّنَّةِ**) وهذا تفسير للآية الكريمة.

- **جواب عن إشكال:**

[١] **العطف يقتضي المغايرة**؛ وذلك أن الاستعانة داخلة في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة: ٥]، فلماذا عطف الاستعانة على العبادة؟ والجواب عن ذلك أن يُقال: إن الشيء يُعطف على ما هو داخل فيه من عطف الخاص على العام أحياناً؛ لأجل الاهتمام بالخاص وإن كان داخلاً فيه ولأهمية الاستعانة عطفت على العبادة، فالعطف يقتضي الاختصاص، وكما في قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَوٰةِ الْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، فالصلاة الوسطى داخلة في الصلاة، فلماذا عطفها عليها؟ قيل: هذا من عطف الخاص على العام اهتمامًا به، وهذا مما يؤكد أفضلية الصلاة الوسطى، وهي على الصحيح صلاة العصر، فيكون الله قد أمر بالمحافظة على الصلاة الوسطى مرتين: مرة مع الصلاة العامة، ومرة وحدها، مما يدل على فضل هذه الصلاة.

[٢] فالتوكل داخل في العبادة فلماذا عطفه عليها؟ لأنه من عطف الخاص على العام اهتماماً به وتأكيداً له.

وَقَـوْلِ نُـوحٍ: ﴿أَعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣﴾ [نـوح: ٣][١]، وَكَـذَلِـكَ قَوْلُ غَيْرِهِ مِنَ الرُّسُلِ، قِيلَ: هـذَا لَهُ نَظَائِرُ كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥][٢]، وَالْفَحْشَاءُ مِنَ الْمُنْكَرِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النَّحل: ٩٠][٣]، وَإِيتَـاءُ ذِي الْقُرْبَى هُوَ مِنَ الْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ، كَمَا أَنَّ الْفَحْشَاءَ وَالْبَغْيَ مِنَ الْمُنْكَرِ[٤]، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأعراف: ١٧٠][٥]، وَإِقَامَةُ الصَّلَاةِ مِنْ أَعْظَمِ التَّمَسُّكِ بِالْكِتَابِ،

الشَّرح

[١] **فالتقوى داخلة في العبادة**، وكذلك الطاعة داخلة في العبادة فلماذا العطف؟ هو عطف للاهتمام بالمعطوف.

[٢] **عطف الخاص على العام له نظائر**، ولا شك أن الفحشاء داخلة في المنكر، لكن المنكر منه ما هو فاحش ومنه ما هو دون ذلك، فعطف الفحشاء على المنكر من باب الاهتمام بالتحذير من الفحشاء، والفحشاء: ما فُحش إثمه وعظم جرمه.

[٣] **وكـذلـك** قـولـه تـعـالـى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النَّحل: ٩٠]، وإيتاء ذِي القُرْبى داخل في العدْل وَالإِحْسَان فعطفه عليهما اهتماماً بحق القرابة، وصلة الرحم.

[٤] **(كَمَا أَنَّ الْفَحْشَاءَ وَالْبَغْيَ مِنَ الْمُنْكَرِ)**؛ لأن المنكر أعم، فكل ما نهى الله عنه فهو منكر، وكل ما أمر الله به فهو المعروف؛ فالفحشاء والبغي داخلان في المنكر، وعطفهما عليه من عطف الخاص على العام اهتماماً به؛ لأن البغي وهو التعدي على الناس من أشد المنكر، والفحشاء من أشد المنكر.

[٥] **وكـذلـك** قـولـه تـعـالـى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ =

وَكَـذَلِـكَ قَـوْلُـهُ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠][١]. وَدُعَاؤُهُمْ رَغَباً وَرَهَباً مِنَ الْخَيْرَاتِ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ.

وَهَذَا الْبَابُ يَكُونُ تَارَةً مَعَ كَوْنِ أَحَدِهِمَا بَعْضَ الْآخَرِ، فَيُعْطَفُ عَلَيْهِ تَخْصِيصاً لَهُ بِالذِّكْرِ لِكَوْنِهِ مَطْلُوباً بِالْمَعْنَى الْعَامِّ، وَالْمَعْنَى الْخَاصِّ، وتارة تكون دلالة الاسم تتنوع بحال الانفراد والاقتران[٢]،

الشَّرْح

= [الأعراف: ١٧٠] وإقام الصلاة داخل بالتمسك بالكتاب فالذين يتمسكون بما أنزل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، يعم جميع الكتب السماوية الإلهية، حيث إنها كلها داخلة في لفظ الكتاب، فالذين يتمسكون بالكتاب في كل وقت بحسبه، فبعد بعثة الرسول ﷺ صار الكتاب هو القرآن والسُّنَّة، وقبل ذلك كان كل تابع لنبي يتمسك بالكتاب الذي أُنزل عليه، وهذا هو العمل الصالح ثم قال: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ إقام الصلاة من التمسك بالكتاب فعطف إقام الصلاة عليه من عطف الخاص على العام اهتماماً به، وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [البقرة: ٩٨]: جبريل وميكال داخلان في الملائكة، وعطفهما عليهم للاهتمام بهذين الملكين العظيمين.

[١] **وكذلك** قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]: والدعاء داخل بالمسارعة في الخيرات فعطفه عليها من عطف الخاص على العام اهتماماً به.

[٢] الخاص يُعطف على العام لأهميته والاهتمام به، مثل قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وهذا يدل على أهمية التوكل، مع أنه نوع من أنواع العبادة، فهو داخل في قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ﴾، وكما في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥]، فعطف الاستعانة على =

فإذا أفرد عمَّ وإذا قرن بغيره خصَّ؛ كاسم الفقير والمسكين لما أفرد أحدهما في مثل قوله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٣] وقوله: ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾ [المائدة: ٨٩] دخل فيه الآخر، ولما قرن بينهما في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] صارا نوعين[١].

الشَّرْح

= العبادة، مع أن الاستعانة نوع من أنواع العبادة، ولأهمية الاستعانة عُطفت على العبادة، وكذا قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، فمع أن الصلاة الوسطى داخلة في الصلوات؛ إلا أنه خصَّها بالعطف وذلك للاهتمام بها.

[١] نظائر ذلك:

ومن نظائر ذلك في الكتاب مثل الفقير والمسكين يجمعهما الحاجة، وأنهما من أهل الزكاة، فإذا أُفرد أحدهما دخل فيه الآخر، فإذا ذكر المسكين دخل فيه الفقير، وإذا ذكر الفقير دخل فيه المسكين، أما إذا ذكرا جميعاً صار الفقير له معنى، والمسكين له معنى، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠]، فالفقراء هنا هم الذين لا يجدون شيئاً، أو يجدون بعض الكفاية والمساكين أحسن حالاً من الفقراء، فهم الذين يجدون نصف الكفاية أو أغلبها؛ ولهذا يقولون: إذا اجتمعا افترقا، يعني في المعنى، وإذا افترقا اجتمعا، وكذلك الإسلام والإيمان؛ فإذا أطلق الإسلام دخل فيه الإيمان؛ لأنه لا يكون إسلام صحيح بدون إيمان، وإذا ذكر الإيمان دخل فيه الإسلام؛ لأنه لا يكون إيمان بدون إسلام وقد ذكرا جميعاً كما في حديث جبريل، فإن الإسلام يكون في الأعمال الظاهرة، وأما الإيمان فيكون في الأعمال الباطنة، وكلاهما متلازمان، وهذه من دلالات الألفاظ في اللغة العربية وفي الشرع، التي لا بد للإنسان أن يعرفها.

وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ الْخَاصَّ الْمَعْطُوفَ عَلَى الْعَامِّ لَا يَدْخُلُ فِي الْعَامِّ حَالَ الِاقْتِرَانِ؛ فَلا يَكُونُ مِنْ هَذَا الْبَابِ. وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ هَذَا لَيْسَ لَازِماً، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨][١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝٧﴾ [الأحزاب: ٧][٢].

وَذِكْرُ الْخَاصِّ مَعَ الْعَامِّ يَكُونُ لِأَسْبَابٍ مُتَنَوِّعَةٍ: تَارَةً لِكَوْنِهِ لَهُ خَاصِّيَّةٌ لَيْسَتْ لِسَائِرِ أَفْرَادِ الْعَامِّ[٣]؛ كَمَا فِي نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى

الشَّرْح

[١] إن قيل: الخاص لا يدخل في العام في حالة اقترانهما؛ لأن العطف يقتضي المغايرة **فالجواب**: أن هذا موجود في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ فإن جبريل وميكال داخلان في الملائكة.

[٢] **وكذلك** في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾؛ فلفظ النبيين يشمل نوحاً، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمداً، ولكن ذُكر الخمسة بعد ذكر النبيين لخاصية هؤلاء الخمسة عليهم الصلاة والسلام، فهم أولو العزم من الرسل ذكروا في هذه الآية، وفي قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾ [الشورى: ١٣]؛ فالله ذكرهم بعد ذكر النبيين لاختصاصهم وفضلهم.

- **بيان أسباب ذكر الخاص مع العام:**

[٣] **أولاً**: (**لِكَوْنِهِ لَهُ خَاصِّيَّةٌ لَيْسَتْ لِسَائِرِ أَفْرَادِ الْعَامِّ**): كما ذكرنا في قوله: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، وقوله: =

وَعِيسَى. وَتَارَةً لِكَوْنِ الْعَامِّ فِيهِ إِطْلَاقٌ قَدْ لَا يُفْهَمُ مِنْهُ الْعُمُومُ[١]، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٢ ـ ٤]، فَقَوْلُهُ: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ يَتَنَاوَلُ الْغَيْبَ الَّذِي يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ؛ لَكِنْ فِيهِ إِجْمَالٌ فَلَيْسَ فِيهِ دِلَالَةٌ عَلَى أَنَّ مِنَ الْغَيْبِ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ[٢]، وَقَدْ يَكُونُ الْمَقْصُودُ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِالْمُخْبَرِ بِهِ وَهُوَ الْغَيْبُ[٣]، وَبِالْإِخْبَارِ بِالْغَيْبِ وَهُوَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ.

الشَّرْح

= ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨]، وقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]، هذا لاختصاص المعطوف، وزيادة فضله على المعطوف عليه.

[١] ثانياً: (**لِكَوْنِ الْعَامِّ فِيهِ إِطْلَاقٌ قَدْ لَا يُفْهَمُ مِنْهُ الْعُمُومُ**): فقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ هذا لفظ عام يتناول كل ما غاب عنَّا، ولم نشاهده من الأمور الماضية، ومن الأمور المستقبلة، فذكر الإيمان بالكتب المنزلة للاهتمام بها من بين سائر المغيبات ولأن العام فيه إطلاق قد لا يفهم منه العموم.

[٢] قوله: (**فَلَيْسَ فِيهِ دِلَالَةٌ عَلَى أَنَّ مِنَ الْغَيْبِ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ**): فقد يكون المعطوف لا يشمله المعطوف عليه، أو لا يتنبه السامع إليه؛ ففي عطفه عليه تنبيه على هذا الأمر وبيان أنه يدخل في الغيب ما أنزل على الرسل.

[٣] ثالثاً: (**وَقَدْ يَكُونُ الْمَقْصُودُ أَنَّهُم يُؤْمِنُونَ بِالْمُخْبَرِ بِهِ وَهُوَ الْغَيْبُ وَبِالْإِخْبَارِ بِالْغَيْبِ وَهُوَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ**)؛ **أي**: يؤمنون بالخبر وهو ما يذكر عن الماضي والمستقبل وبالمُخْبِر عنه وهو ما أُنزِل عليك وما أنزل من قبلك.

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ قَوْله تَعَالَى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [العنكبوت: ٤٥][١]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ

الشَّرْح

[١] ومما جاء فيه وهو عطف الخاص على العام هذه الآيات:

● ١ ـ **قَوْلـه تَـعَـالـى:** ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [العنكبوت: ٤٥] ليس المقصود بالتلاوة هنا مجرد القراءة، بل المقصود بها الاتباع، من تلا الشيء؛ **أي**: اتبعه، فإقام الصلاة داخل في تلاوة الكتاب؛ **أي**: اتباعه، ولكن عطفه من باب الاهتمام.

● ٢ ـ **وَقَوله:** ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأعراف: ١٧٠] عطف إقام الصلاة على التمسك بالكتاب مع أن إقام الصلاة من التمسك بالكتاب لكنه من أهم التمسك بالكتاب.

● ٣ ـ **وقوله تعالى:** ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١] وحق تلاوته تحليل الحلال، وتحريم الحرام، والتمشي وفق الأحكام الشرعية، هذا من تلاوة الكتاب، فليس المقصود بالتلاوة هنا مجرد القراءة، كما قد يفهمها بعض الناس، فالتلاوة على قسمين:

ـ التلاوة بمعنى الاتباع.

ـ والتلاوة بمعنى القراءة، وتلاوة القراءة وسيلة للاتباع.

● ٤ ـ **(وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ لِمُوسَى:** ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾ [طه: ١٤]): وإقامة الصلاة داخلة في قوله: ﴿فَٱعْبُدْنِى﴾، فالصلاة من العبادة، وذلك لأهمية الصلاة، ولأنها أعظم العبادات العملية.

● ٥ ـ **قوله تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠] فعطف القول السديد على تقوى الله مع أن القول السديد داخل في تقوى الله ﷻ؛ وذلك لأهمية القول السديد وفائدته. =

وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ﴾ [الأعراف: ١٧٠][١]، و«تِلَاوَةُ الْكِتَابِ» هِيَ اتِّبَاعُهُ، كَمَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١]، قَالَ: يُحَلِّلُونَ حَلَالَهُ وَيُحَرِّمُونَ حَرَامَهُ، وَيُؤْمِنُونَ بِمُتَشَابِهِهِ وَيَعْمَلُونَ بِمُحْكَمِهِ، فَاتِّبَاعُ الْكِتَابِ يَتَنَاوَلُ الصَّلَاةَ وَغَيْرَهَا، لَكِنْ خَصَّهَا بِالذِّكْرِ لِمَزِيَّتِهَا، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ لِمُوسَى: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَاعْبُدْنِى وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾ [طه: ١٤]، وَإِقَامَةُ الصَّلَاةِ لِذِكْرِهِ مِنْ أَجْلِ عِبَادَتِهِ، وَكَذَلِكَ قَوْله تَعَالَى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠]، وَقَوْلُهُ: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا

الشَّرْح

• ٦ ـ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوٓا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]؛ **أي**: اطلبوا ما يقربكم إلى الله؛ فالوسيلة هي الطاعة التي تقرب من الله ﷻ، وهذا داخل في قوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ فمن تقوى الله ابتغاء الوسيلة، وهي: التقرب إليه بالعبادة، فهذا مما يدل على أن المعطوف له خاصية.

• ٧ ـ **قوله تعالى**: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٩] فكونك تكون مع الصادقين داخل في قوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾، ولكن عطفه عليه لأهميته.

• ٨ ـ **قوله تعالى**: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، لما ذكر الشيخ هذه الأمثلة وتقررت القاعدة؛ إذاً فيكون قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ هو من هذا الباب وهو وجه عطف التوكل على العبادة؛ لأهمية التوكل على الله ﷻ؛ فالتوكل على الله من استعانة العبد به ﷻ، والاستعانة داخلة في العبادة، فعطفها من باب الاهتمام بها.

[١] **أي**: ليهتم بها بخصوصها، أما لو لم تُعطف فإنه قد لا يهتم بها.

إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]، وَقَوْلُهُ: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾ [التوبة: ١١٩]، فَإِنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ هِيَ أَيْضاً مِنْ تَمَامِ تَقْوَى اللهِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، فَإِنَّ التَّوَكُّلَ وَالِاسْتِعَانَةَ هِيَ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ؛ لَكِنْ خُصَّتْ بِالذِّكْرِ لِيَقْصِدَهَا الْمُتَعَبِّدُ بِخُصُوصِهَا؛ فَإِنَّهَا هِيَ الْعَوْنُ عَلَى سَائِرِ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ إِذْ هُوَ سُبْحَانَهُ لَا يُعْبَدُ إِلَّا بِمَعُونَتِهِ[١].

إِذَا تَبَيَّنَ هَذَا فَكَمَالُ الْمَخْلُوقِ فِي تَحْقِيقِ عُبُودِيَّتِهِ لِلهِ، وَكُلَّمَا ازْدَادَ الْعَبْدُ تَحْقِيقاً لِلْعُبُودِيَّةِ ازْدَادَ كَمَالُهُ وَعَلَتْ دَرَجَتُهُ[٢]، وَمَنْ تَوَهَّمَ أَنَّ الْمَخْلُوقَ يَخْرُجُ عَنِ الْعُبُودِيَّةِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ، أَوْ أَنَّ الْخُرُوجَ عَنْهَا أَكْمَلُ[٣]، فَهُوَ مِنْ أَجْهَلِ الْخَلْقِ وَأَضَلِّهِمْ.

الشَّرْح

[١] هذا من وجوه عطف الاستعانة على العبادة؛ لأن الاستعانة طلب العون، ولا يستطيع الإنسان أن يعبد الله إلا إذا أعانه الله، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله، وهذا يدل على حاجة العبد إليها في كل عباداته؛ ولذلك عطف الاستعانة على العبادة.

[٢] هذا فيه رد على الصوفية الذين يقولون: إن المخلوق إذا وصل إلى المعرفة وإلى مرتبة المشاهدة، لم يعد بحاجة إلى العبادة؛ لأنه كمل. ونقول: إن العبد بحاجة إلى العبادة دائماً، ولا يستغني عن العبادة أبداً، ولا يكمل إلا بالعبادة، فليس هناك حالة لا يحتاج فيها إلى العبادة. فالعبد بحاجة إلى العبادة دائماً وأبداً، لا يستغني عنها في لحظة من اللحظات، فهو عبد، ولا يخرج عن العبودية؛ ولهذا قال الله لنبيِّه: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ٩٩﴾ [الحجر: ٩٩]؛ **يعني**: الموت.

[٣] **كما تقوله الصوفية**: إن العبد يصل إلى مرحلة لا يحتاج معها إلى =

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾، إِلَى قَوْلِهِ:

الشَّرح

= العبودية ولا يحرم عليه شيء، ولا يجب عليه شيء، وهذا باطل، فالعبد لا يزال عبداً لله ﷻ، وكلما كثرت عبادته لله كمل، وكلما نقصت عبادته نقص، وليس هناك حد ينتهي إليه في العبادة إلا الموت. فإذا مات الإنسان انقطع عمله؛ فالصوفية يقولون: إن الخروج من العبودية أكمل؛ لأنه لا يخرج منها إلا من وصل إلى الله، فهو أكمل من العوام الذين لم يصلوا إلى الله فهم يحتاجون للعبودية، وهذا من تزيين وتسويل الشيطان لهم، فلا أحد يخرج عن حاجته إلى العبودية دائماً وأبداً؛ لأنه فقير محتاج إلى الله دائماً وأبداً في كل أحواله، لا يستغني عن الله طرفة عين، فهو بحاجة إلى العبادة التي تقربه إلى الله ﷻ، وتحببه إلى الله، فهو بحاجة إليها ولا يستغني عنها ما دام على قيد الحياة وعقله باق. وأفضل الخلق وهم الملائكة والأنبياء والرسل والأولياء والصالحون لا يخرجون عن العبودية ولا يتركونها كما ذكر الله عنهم في هذه الآيات:

١ ـ فالملائكة قال الله فيهم: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٨]، هؤلاء هم الملائكة الذين اعتقد المشركون أنهم بنات الله، كذّبهم الله بذلك، وبيّن أن الملائكة عباد من عباد الله، وأنهم يعبدون الله دائما وأبداً ولم يترفعوا عن العبادة أبداً، مع أنهم ملائكة ومقربون عند الله ﷻ، ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ مع أنهم ملائكة ومقربون من الله، فهم من خشية الله مشفقون وخائفون، يخافون غضب الله ﷻ، فلا يخرج عن العبودية أحد، لا الملائكة ولا غيرهم، بل هم: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل: ٥٠]. =

﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ۝٢٨﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝٨٨ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝٨٩﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٤ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ۝٩٥﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩٥]، وَقَالَ تَعَالَى فِي الْمَسِيحِ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩﴾ [الزخرف: ٥٩]، وَقَالَ تَعَالَى:

الشَّرح

= ٢ ـ قوله تعالى في الملائكة: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝٨٨ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٤ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ۝٩٥﴾، وهذا رد على من قالوا: إن الملائكة بنات الله، تعالى الله عن ذلك، والذين جعلوا بينه وبين الجِنَّة ـ **أي**: الجن ـ نسباً قالوا: إنه تزوج من الجن فأنجبت له الملائكة، فرد الله عليهم في قوله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣﴾ فكل من في السمٰوات من الملائكة ومن غيرهم يأتون عباداً لله، لا أحد يخرج عن العبودية، و(إنْ) بمعنى (ما) النافية، فهي نافية عن خروج أحد ممن في السمٰوات والأرض عن العبودية.

٣ ـ **(وَقَال تَعَالى فِي المَسِيح**: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩﴾ [الزخرف: ٥٩]): النصارى نسبوا الولد إلى الله ـ جلّ وعلا ـ فقالوا: المسيح عيسى ابن مريم ابن الله.

والشاهد في قوله عن المسيح: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ﴾ لا يخرج عن العبودية مع ما له من الفضل والمكانة عند الله، ولقوله: ﴿أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩﴾ [الزخرف: ٥٩]، (مثلاً)؛ **أي**: آية تدل على قدرة الله ـ جلّ وعلا ـ حيث خلقه من أم بلا والد، وليس هو ابن لله ﷻ، ولا جزءاً من الله؛ لأن الولد جزء من الوالد، ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ۝١٥﴾ [الزخرف: ١٥]، =

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ۝٢٠﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ۝١٧٢﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا

الشَّرْح

= وهو الولد، فهو عبد من عباد الله، وليس جزءاً منه تعالى عن ذلك.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ﴾؛ **يعني**: الملائكة، ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾؛ **أي**: لا أحد في السمٰوات والأرض مهما بلغ من الفضل والمكانة يخرج عن عبودية الله ـ جلّ وعلا ـ فله من في السمٰوات والأرض ملكاً وعبيداً، لا يستكبرون عن عبادته، ﴿وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ۝٢٠﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠] لا يفترون عن عبادته دائماً بخلاف الصوفية الذين يتركون عبادته استغناء عنها بزعمهم.

٥ ـ قال تعالى في المسيح: ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ۝١٧٢﴾ [النساء: ١٧٢]، فلا أحد يخرج عن عبوديته ﷻ، لا الملائكة ولا عيسى ولا غيره من الأنبياء.

وقوله تعالى: ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ﴾؛ فالمسيح معترف أنه عبد لله، لا يخرج عن العبودية، بل ولا الملائكة المقربون، فهم عباد، والله تعالى توعد من يستنكف عن عبوديته ويتوقف عنها من غير عذر حيث قال: ﴿وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ۝١٧٢﴾؛ فالمسيح لا ينكر أنه عبد لله، وكذا الملائكة المقربون لا ينكرون أنهم عباد لله ـ جلَّ وعلا ـ، فكيف ينكر الصوفية في آخر أحوالهم أنهم ليسوا عباداً لله، وأنهم مستغنون عن العبادة، وعن العبودية؟!. =

نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾ [النساء: ١٧٢، ١٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾﴾

الشرح

٦ ـ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠]، فمن يستكبر عن عبادة الله فإن الله توعدهم بجهنم، يدخلونها صاغرين بسبب أنهم استكبروا عن عبادة الله، فلا أحد يستكبر عن عبادة الله ـ جلّ وعلا ـ إلا الأشقياء وأهل النار. ومن استكبر على الله أهانه ومن تواضع له رفعه.

٧ ـ قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾﴾ [فصلت: ٣٧، ٣٨]، كانوا في الجاهلية يعبدون معبودات كثيرة متفرقة، ومنها أنهم يعبدون الشمس والقمر، فقال الله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾؛ فالشمس والقمر من آيات الله ومن مخلوقات الله، فكيف تُعبد مع الله سبحانه وتعالى؟!

ولهذا قال: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾؛ لأنها مخلوقة مثلكم مسخرة، ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾؛ **أي**: اسجدوا للذي خلق الشمس والقمر؛ لأنه الذي يستحق العبادة، أما الشمس والقمر فهما مخلوقان لا يستحقان العبادة، ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ فأخلصوا له العبادة، ثم قال: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا﴾؛ **أي**: استكبروا عن السجود لله عز وجل، ﴿فَالَّذِينَ عِندَ =

[فصلت: ٣٧، ٣٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٥، ٢٠٦].

وَهَذَا وَنَحْوُهُ مِمَّا فِيهِ وَصْفُ أَكَابِرِ الْمَخْلُوقَاتِ بِالْعِبَادَةِ[١]، وَذَمُّ مَنْ خَرَجَ عَنْ ذَلِكَ مُتَعَدِّدٌ فِي الْقُرْآنِ، وَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ أَرْسَلَ

الشَّرْح

= رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾﴾؛ فالملائكة لا يملون من العبادة، ولا يتركونها فهذا فيه أن الملائكة عباد الله، وأنهم لا يسأمون ولا يملون من عبادة الله، ولا يستكبرون عنها فهل الصوفية أفضل من الملائكة؟!.

٨ ـ قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٥، ٢٠٦]، وهذه مثل الآيات السابقة، وأن الملائكة لا يستكبرون عن عبادة الله ـ جلّ وعلا ـ ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾؛ **أي**: ينزهونه عن النقص، ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾؛ **أي**: يسجدون لله ـ جلّ وعلا ـ.

• **وصف الله بالعبودية من هو أكمل خلقه:**

[١] **أي**: هذا الأمر هو وصف أكمل الخلق وأفضل الخلق بالعبودية لله، وهو متعدد في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، من الملائكة والرسل والأنبياء والأولياء والصالحين، فهو متعدد في القرآن، وإنما هذه نماذج من الآيات التي ذكر الله فيها ذلك. وهذا كله رد على من يزعم أنه يخرج أحد عن العبودية لفضله ومكانته، كما تقوله الصوفية ومن اقتدى بهم، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠] فيه ذم الخروج عن عبادة الله، فالذي يخرج عن عبادة الله مستكبر، والذي يعبد الله ويعبد معه غيره مشرك، وكلٌّ مِنَ المشرك والمستكبر في نار جهنم.

جَمِيعَ الرُّسُلِ بِذَلِكَ[١]، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥][٢]، وَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦][٣]، وقَالَ تَعَالَى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ

الشَّرْح

[١] **أي**: أخبر الله أنه أرسل جميع الرسل بالعبادة وبالدعوة إليها، من أولهم إلى آخرهم، كلهم يعبدون الله ويأمرون بعبادة الله؛ فالذي لا يعبد الله يكون مخالفاً للرسل.

[٢] قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾؛ **أي**: جميع الرسل من محمد ﷺ ومن قبله أرسلهم الله يأمرون بعبادة الله وحده لا شريك له، ويقولون للناس قولوا: لا إله إلا الله فهذا دعت إليه جميع الرسل، فكل الرسل أمروا بعبادة الله ونهوا عن عبادة غيره، فأين الذين يزعمون أن لهم أن يخرجوا عن عبادة الله لفضلهم ومكانتهم؟!

[٣] فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا﴾ اللام لام القسم و(قد) للتحقيق تأكيداً لقوله، ﴿بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾؛ **أي**: أرسلنا في كل جيل من الناس من قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم إلى آخر الأمم، أرسلنا إليهم، ﴿رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ وهذا هو الذي خلق الله الخلق لأجله، فقد خلقهم لعبادته ولا يخرج عن عبادة الله أحد من خلقه إلا من استكبر والعياذ بالله، ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ فلا يكفي أن تعبد الله، بل لا بد من اجتناب الطاغوت وذلك بترك عبادة غيره؛ لأن هناك من يعبد الله ويعبد معه غيره، فالمشركون يعبدون الله ولكنهم يعبدون معه غيره، فيخلطون عبادتهم بالشرك، فتكون عبادتهم باطلة؛ لأن العبادة لا تصح ولا تُقبل إلا إذا كانت خالصة لوجه الله ﷻ، ليس فيها شرك، فكل الرسل جاؤوا بالأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك، وهذا فيه رد على الصوفية الذين يخرجون عن هذا ويتركون العبادة، ويزعمون أنهم ليسوا بحاجة إليها؛ لأنهم كملوا ووصلوا إلى الله.

ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [العنكبوت: ٥٦][١]، وقال: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾ [البقرة: ٤١]، وَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة: ٢١][٢]، وَقَالَ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦][٣]،

الشَّرح

[١] **فإذا مُنعت من عبادة الله في أرض**؛ فهناك أرض أخرى تخرج إليها وتعبد الله ﷻ فيها، قال تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ﴾ [النساء: ١٠٠].

[٢] **هذا أول أمر في المصحف**، وهو أمر لجميع الناس بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾، وفيه الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية، فبعد أن أمر بتوحيد الألوهية؛ استدل عليه بتوحيد الربوبية؛ لأنهم يعترفون بتوحيد الربوبية، وبأن الله هو الذي خلقهم، وخلق من قبلهم وجعل لهم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لهم، فجميع التدابير والرزق والحياة والموت والخلق بيد الله ﷻ، وفي ذلك يبدو تناقضهم، إذا كان لا يخلق ولا يرزق ولا يحيي ولا يميت ولا يدبر إلا الله؛ فكيف يُعْبَدُ غيره ممن لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً؟! قال ابن كثير رحمه الله: الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة، ولكن الشيطان ودعاة الضلال يزينون الشرك للناس، ويحسِّنون الشرك للناس ويسمونه بأسماء تروجه وهي لا تغير الحقائق؛ لأن الحقائق لا تتغير وإن تغيرت الأسماء وتعددت الحيل والشبهات، فالحقيقة باقية، وجميع المخلوقات عاجزة، وكل المخلوقات فقيرة إلى الله، والله ـ جلّ وعلا ـ هو الغني، وهو الذي خلق السمٰوات والأرض، فكيف يعترفون بتوحيد الربوبية، ولا يقومون بتوحيد الألوهية؟!!.

[٣] **بيَّن الحكمة من خلق الجن والإنس**، وهي أن الله خلقهم لعبادته، =

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٢ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٣ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ۝١٤ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ [الزمر: ١١ ـ ١٥][١].

الشَّرْح

= قال تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧﴾ [الذاريات: ٥٧]، فهو لا يريد منهم الرزق، بل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات: ٥٨]، وإنما خلقهم لعبادته فقط، والعبادة نفعها لهم والشرك ضرره عليهم، أما الله ـ جلّ وعلا ـ فلا تنفعه طاعة المطيع ولا تضره معصية العاصي، وإنما فضل ذلك ـ فائدته أو مضرته ـ يرجع ذلك كله إليهم، ولو أشركوا كلهم وكفروا كلهم فإنهم لا ينقصون من ملك الله ـ جلّ وعلا ـ ولا يضرون الله ـ جلّ وعلا ـ شيئاً، وإنما يضرون أنفسهم. ولو عبدوا الله كلهم ولم يشركوا به شيئاً ما زاد ذلك في ملكه شيئاً.

[١] **أمر الله رسوله محمداً** ﷺ أن يعلن ويصرح للناس أن الله أمره أن يعبد الله وحده، فإذا كان محمد مأموراً بالعبادة؛ لأنه بحاجة إليها؛ فكيف يدعي هؤلاء أنهم ليسوا بحاجة إلى العبادة؟!

وقوله: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١﴾: فلا يجوز أن يعبد الإنسان الله ويعبد معه غيره، بل لا بد أن يعبد الله ويخلص العبادة له من الشرك، فقوله: ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١﴾؛ **أي**: العبادة فسمى العبادة ديناً، ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٢﴾؛ **يعني**: المنقادين لأمر الله ﷻ، فمحمد ﷺ وجميع الرسل عليهم السلام هم أول من ينقاد لعبادة الله، ولأمر الله ﷻ، فكيف بغيرهم ممن لا ينقاد ويزعم أنه خرج عن نطاق العبودية، وصار وليّاً من الأولياء الذين ليسوا بحاجة إلى العبادة.

ثم قال: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٣﴾؛ **أي**: إذا عصى ربه فلم يعبده فإن الله يعذبه في يوم عظيم، فلو قُدِّر أن الأنبياء يشركون =

وَكُلُّ رَسُولٍ مِنَ الرُّسُلِ افْتَتَحَ دَعْوَتَهُ بِالدُّعَاءِ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ، كَقَوْلِ نُوحٍ وَمَنْ بَعْدَهُ عليهم السلام: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [المؤمنون: ٣٢][١].

الشَّرْح

= لحبطت أعمالهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر: ٦٥، ٦٦]، فالشرك لو وقع من أي أحد، نبيّاً كان أو ملكاً أو غير ذلك، فإنه يحبط أعماله، نسأل الله العافية، ولهذا قال: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ هذا أمر تهديد لهم ووعيد، لا أمر إباحة كما يقوله من يدعي حرية الاعتقاد وحرية التعبير اليوم، فالصوفية خرجوا من العبادة بزعم الوصول إلى الله، وهؤلاء خرجوا من العبادة بزعم الحرية في الاعتقاد.

[١] (**وَكُلُّ رَسُولٍ مِنَ الرُّسُلِ افْتَتَحَ دَعْوَتَهُ بِالدُّعَاءِ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ**)، وأولهم نوح عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣]، وكذا هود عليه السلام قال لقومه: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٦٥]، وكذا صالح عليه السلام قال لقومه: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [هود: ٦١]، وإبراهيم عليه السلام قال لقومه: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾ [العنكبوت: ١٦]، وشعيب عليه السلام قال لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [هود: ٨٤].

فكل نبي يقول لقومه أول ما يبدأ: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، فيبدأ بالتوحيد، وهكذا أتباع الرسل أول ما يبدؤون بالدعوة إلى التوحيد وإصلاح العقيدة، ثم بعد ذلك يتوجهون إلى إصلاح بقية أمور الدين، أما الذي يترك الدعوة إلى التوحيد ويدعو إلى أمور جانبية من أمور الدين فهذا مخالف لدعوة الرسل، فبعض الجمعيات وجماعات الدعوات والدعاة الآن الذين لا يهتمون بالتوحيد، ولا يدعون الناس إلى التوحيد وهم يشاهدون الشرك واقعاً في الناس ولا ينكرونه، هؤلاء مخالفون لدعوة الرسل، فأول مراتب الدعوة وأول =

وَفِي الْمُسْنَدِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «**بُعِثْتُ بِالسَّيْفِ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ**[١] **حَتَّى يُعْبَدَ اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ،**

الشَّرْح

= أوليات الدعوة الدعوة إلى التوحيد والنهي عن الشرك، فأي جمعية وأي داعية لا يهتم بالتوحيد؛ ولا ينهى عن الشرك فدعوته خاسرة وباطلة ولا تنجح أبداً؛ لأنها مخالفة لدعوة الرسل. بل هؤلاء الدعاة ينهون عن الدعوة إلى التوحيد ويقولون: لا تنفروا الناس اتركوهم على عقائدهم ونجتمع على ما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه فمهمتهم التجميع فقط، مع أنه لا يحصل الاجتماع الصحيح إلا على التوحيد. وأما الاجتماع على غير التوحيد فمستحيل ولو تظاهروا به ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الحشر: ١٤]، فالاجتماع الحقيقي هو اجتماع القلوب وما عداه فهو اجتماع صورّي، واجتماع مصالح سرعان ما ينفض.

[١] **يعني: الجهاد في سبيل الله**، جهاد المشركين بعد دعوتهم إلى الله، إذا أبوا قبول الدعوة فإنه يجاهدهم، حتى يكون الدين كله لله، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]، وقوله: (**بُعِثْتُ بِالسَّيْفِ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ حَتَّى يُعْبَدَ اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ**)، وكما قال ﷺ في الحديث الآخر: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِك عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ**»(١). فأين الذين ينادون بحرية العقيدة؛ فالحرية الصحيحة هي الحرية من عبادة غير الله فهي الذل والخسار.

وقوله: (**بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ**)؛ **يعني**: قرب قيام الساعة؛ لأنه آخر الرسل ﷺ، وليس بعده إلا قيام الساعة، وقوله: (**حَتَّى يُعْبَدَ اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ**)؛ فالغرض من الجهاد في سبيل أن يُعبد الله وحده لا شريك له، =

(١) أخرجه البخاري (٢٥).

وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي[١] وَجُعِلَ الذُّلُّ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي»[٢](١).

وَقَدْ بَيَّنَ أَنَّ عِبَادَهُ هُمُ الَّذِينَ يَنْجُونَ مِنَ السَّيِّئَاتِ، قَالَ

الشَّرح

= وأن تكون كلمة الله هي العليا، كما قال الرسول ﷺ: «**مَنْ قاتَلَ لِتَكونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيا فَهْوَ في سَبِيلِ اللهِ**»(٢)، وليس الغرض من الجهاد الاستيلاء على الناس أو سفك الدماء أو أخذ الأموال أو توسع الممالك، بل الغرض إقامة التوحيد والعبادة لله ﷻ؛ ولذلك فمن قَبِل الدعوة واستجاب فإنه لا يُقاتَل ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥﴾ [التوبة: ٥].

[١] **يعني بذلك: الغنائم**، فإن الله أحلَّها له ولأمته، قال ﷺ: «**وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ وَلَمْ تُحَلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي**»(٣). قال تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١]، وقال تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ﴾ [الأنفال: ٦٩]؛ فالغنائم هي ما يأخذه المسلمون من أموال الكفار في الجهاد في سبيل الله، فهي أحل شيء قال تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ﴾.

[٢] **لا شك أن من خالف أمر الرسول ﷺ فإنه ذليل صغير حقير**، وإن زعم أنه راقٍ، وأنه متحضر، وإن زعم أنه ملك وأنه رئيس فهو ذليل، فالذي يخالف أمر الرسول ذليل مهما كان، والذي يوافق أمر الرسول ﷺ عزيز ومرتفع عند الله ﷻ ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾ [المجادلة: ١١]، ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝١٣٩﴾ [آل عمران: ١٣٩]، ولو كان في أعين الناس ذليلاً.

---

(١) المسند (٥١١٥).
(٢) أخرجه البخاري (١٢٣).
(٣) أخرجه مسلم (٥٢١).

الشَّيْطَانُ: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ (٤٠)﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠][١]، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ (٤٢)﴾ [الحجر: ٤٢]، وَقَالَ: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ (٨٣)﴾ [ص: ٨٢، ٨٣][٢]، وَقَالَ فِي حَقِّ يُوسُفَ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ (٢٤)﴾ [يوسف: ٢٤][٣]، وَقَالَ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ

الشَّرْح

[١] **لما لعن الله إبليس بسبب تكبره عن أمر الله**، عند ذلك توعَّد الخبيث ذرية آدم بأنه سيهلكهم بالذنوب وبالكفر والمعاصي، قال: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ (٤٠)﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠]، فلا ينجو من الشيطان ومن تسلطه إلا من أخلص العبادة لله ﷻ، وعبد الله وحده لا شريك له، فليس للشيطان سبيل عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ (٤٢)﴾ [الحجر: ٤٢]، فالذي يتبع الشيطان ويشرك بالله يغوي عن أمر الله ويكون للشيطان عليه سلطان، وولاية، أما الذي يخلص العبادة لله فإنه فلا سبيل للشيطان عليه.

[٢] **أقسم بعزة الله**، وهذا دليل على أنه يعترف بتوحيد الربوبية، لقوله: ﴿رَبِّ﴾، وقوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾، ولكن الاعتراف بتوحيد الربوبية لا يكفي، بل لا بد من الاعتراف بالألوهية والعبادة، ولا بد من توحيد الألوهية.

[٣] **لما عصمه الله من كيد المرأة التي راودته عن نفسه تريد أن توقعه في الفاحشة**، وعصمه الله منها، وقال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٢٣)﴾ [يوسف: ٢٣]، فعصمه الله من كيد المرأة بسبب إخلاصه لله، قال - جلّ وعلا -: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾، والسبب: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ (٢٤)﴾ [يوسف: ٢٤]، =

﴿ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الصافات: ١٥٩، ١٦٠][١]، وَقَالَ: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠][٢].

وَبِهَا نَعَتَ كُلَّ مَنِ اصْطَفَى مِنْ خَلْقِهِ؛ كَقَوْلِهِ[٣]: ﴿وَٱذْكُرْ

الشَّرْح

= فالإخلاص لله في العبادة هو الذي يمنع من كيد الشيطان وأعوانه.

[١] **أي: تنزه الله ﷻ عما يصفه به المشركون من الشريك واتخاذ الولد والصاحبة**، فقد نزَّه نفسه عما يصفه به أعداء الرسل، واستثنى ما يصفه به عباده المؤمنون فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ من الرسل وأتباعهم فإنهم يصفون الله ـ جلَّ وعلا ـ بصفات الكمال، وينزهونه عن صفات النقص فيصفونه بما وصف به نفسه، أو وصفته به رسله، ولا يصفونه بالنقص والعجز وغير ذلك، واتخاذ الصاحبة واتخاذ الولد، فقد نزَّه نفسه عن ذلك، ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾ [الصافات: ١٨٠، ١٨١] لسلامة ما قالوه من العيب والنقص.

[٢] **وَقَال تَعَالى**: ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ **أي**: الشيطان، ﴿لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ﴾؛ **أي**: قوة يصْرف بها العبد المخلص لله ﷻ؛ لأن الله عصمه من ذلك، فهو ليس له سلطان ﴿...عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ﴾؛ **أي**: سلطان الشيطان، ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾؛ **أي**: يطيعونه وينقادون له، ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ في عبادته، هؤلاء يتسلط عليهم الشيطان.

[٣] **هذه الآيات في سياق خصوص العبودية لله ـ جلّ وعلا ـ وأنه لا يخرج عنها أحد**؛ ردّاً على الصوفية الذين يزعمون أنهم إذا وصلوا إلى مرحلة من القرب إلى الله ـ بزعمهم ـ يخرجون عن العبودية، وليسوا بحاجة إليها، فالشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرد عليهم بأن المصطفين من عباد الله من الملائكة والرسل موصوفون بدوام العبودية لله، فلا يخرج أحد عن العبودية لله ﷻ مهما بلغ من =

عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ [ص: ٤٥ ـ ٤٧][١]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ [ص: ١٧][٢]، وَقَالَ عَنْ سُلَيْمَانَ: ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ [ص: ٣٠][٣]، قَالَ: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ [ص: ٤١][٤]، وَقَالَ

الشَّرْح

= الصلاح والقرب كلٌّ فقيرٌ إلى الله ـ جلّ وعلا ـ وعبد لله عَزَّ وَجَلَّ.

[١] فقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ﴾ وصفهم بالعبودية مع أنهم أفضل الخلق، ﴿أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي﴾؛ **أي**: القوة في العبادة وفي التوكل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾؛ **أي**: البصائر النافعة، فسمَّاهم عباداً له.

[٢] **أي: ذا القوة في العبادة وفي الجهاد في سبيل الله**، وداود عَلَيْهِ السَّلَامُ من أنبياء بني إسرائيل وملوكهم، أثنى الله عليه بقوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ﴾ أيها الرسول، ﴿عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ﴾، فاقتدِ به وتَسَلَّ به لما أصابك من الناس.

[٣] **وكذلك قال تعالى عن سليمان بن داود ـ عليهما الصلاة والسلام ـ**: ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾؛ **أي**: رجَّاع إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو كذلك نبي وملك، أتاه الله الملك بعد أبيه، قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ﴾ [النمل: ١٦]، فقد ورثه في الملك والنبوة ولم يرثه في المال؛ لأن الأنبياء لا يورَّثون.

[٤] وقال عن أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي ابتلاه الله بالمرض الشديد، وأصاب منه المرض ما أصاب وجفاه الناس وتركوه، ثم شكا إلى ربه وشفاه الله، قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾، فقال الله ـ جلّ وعلا ـ له: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴿٤٢﴾﴾ [ص: ٤١، ٤٢]، فضرب الأرض برجله فنبع الماء، واغتسل منه فشفاه الله عَزَّ وَجَلَّ مما أصابه، وقد أجاب دعوته في الحال، وأزال سقمه، ورفع مرضه، ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ [ص: ٤٣]، والشاهد: أن =

عن نوح عليه السلام: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾ [الإسراء: ٣][١]، وقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، وقال: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، وقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، وقال: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ [النجم: ١٠][٢]، وقال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ

الشرح

= أيوب عليه السلام وصفه الله بالعبودية، وهذه عبودية خاصة، وإلا فكل الناس عباد لله العبودية العامة، كما سبق أن العبودية على قسمين: عبودية عامة يدخل فيها المؤمن والكافر، وعبودية خاصة لا تكون إلا للمؤمن.

[١] وكذا وصف نوحاً عليه السلام وهو أول الرسل بأنه عبد، قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ [القمر: ٩]، وقال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾ [الإسراء: ٣]، وصفه بالعبودية؛ ووصفه بأنه شكور لنعم الله عز وجل.

[٢] ووصف خاتم رسله محمداً صلى الله عليه وسلم بأنه عبد.

ففي مقام الوحي قال: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ [النجم: ١٠].

وفي مقام التنزيل، قال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣].

وفي مقام الإسراء قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١].

فوصفه بالعبودية في هذه المقامات العظيمة، وكذلك في قيامه بالصلاة والدعاء قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]؛ **يعني**: محمداً صلى الله عليه وسلم.

فلا يخرج عن العبودية لله عز وجل أحد مهما بلغ من المنزلة، لا كما تقول الصوفية. =

﴿ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦][١]، وَقَالَ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣][٢]، وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ مُتَعَدِّدٌ فِي الْقُرْآنِ[٣].

فَصْلٌ

إذَا تَبَيَّنَ ذَلِكَ[٤]: فَمَعْلُومٌ أَنَّ الناس في هَذَا الْبَابَ يَتَفَاضَلُونَ فِيهِ

الشَّرْح

= وقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ ﴿فَأَوْحَىٰٓ﴾؛ **أي**: أوحى جبريل، ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾؛ **أي**: عبد الله محمد ﷺ، فوصفه بالعبودية في مقام الوحي، وهذا من أشرف المقامات.

[١] كما وصف المقربين من عباده بالعبودية فقال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾، فوصف المقربين من أهل الجنة بأنهم عباد الله، فدل على أن أحداً لا يخرج عن العبودية لله ـ جلّ وعلا ـ.

[٢] **عباد الرحمٰن عموماً وصفهم الله بأوصاف جليلة**، أولها: أنهم يمشون على الأرض هوناً فليس فيهم تكبر في مشيتهم، وإنما يمشون مشية المتواضعين، كما قال لقمان لابنه: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝١٨﴾ [لقمان: ١٨]، وفي الآية الأخرى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ۝٣٧﴾ [الإسراء: ٣٧]؛ فأولياء الله وعباد الله عباد الرحمٰن يمشون مشية المتواضع، لا مشية المتبختر ولا المتكبر.

[٣] **أي: وصف الله عباده المتقين والأبرار والصالحين؛ بل الأنبياء والملائكة** وصفهم الله بالعبودية في كثير من القرآن، وهذا يرد على الصوفية الذين يزعمون أن من الناس من يخرج عن عبودية الله ويستغني عنها.

[٤] **يعني: الذي سبق** من أنه لا يخرج أحد عن عبوديته لله مهما بلغ من الفضل والمكانة خلافاً للصوفية الذين يزعمون خروج أئمتهم من العبودية إذا بلغوا حدّاً من العبادة.

تفاضلاً عَظِيماً[١]، وَهُوَ تَفَاضُلُهُمْ فِي حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ[٢]، وَهُمْ يَنْقَسِمُونَ فِيهِ إِلَى عَامٍّ وَخَاصٍّ، وَلِهَذَا كَانَتْ رُبُوبِيَّةُ الرَّبِّ لَهُمْ فِيهَا عُمُومٌ وَخُصُوصٌ وضروب[٣]. وَلِهَذَا كَانَ الشِّرْكُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ.

الشَّرح

[١] **أي**: في العبودية ليسوا على حد سواء، فهم يتفاضلون في الإيمان، ويتفاضلون في العبودية، ويتفاضلون في الأعمال الصالحة، ويتفاضلون في الجزاء (**تفاضلاً عَظِيماً**) عند الله ﷻ.

[٢] **أي**: تفاضلهم في العبودية هو بسبب تفاضلهم في حقيقة الإيمان؛ لأن العبودية من الإيمان، فالأعمال من الإيمان، وكلما كثرت الأعمال الصالحة قوي الإيمان، وكلما نقصت نقص الإيمان؛ ولهذا يقول أهل العلم: الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، فالمؤمنون يتفاضلون في الإيمان بناء على ذلك، ليسوا على حدٍّ سواء، وفي هذا رد على المرجئة، الذين يقولون: الإيمان شيء واحد ليس فيه تفاضل؛ لأنه التصديق بالقلب، وهذا لا تفاضل فيه، وهذا غلط، فالإيمان يتفاضل، بعضه أكمل من بعض. حتى التصديق في القلب يتفاضل.

[٣] **ولكون المؤمنين يتفاضلون** في الإيمان؛ فمنهم المخلص الإخلاص التام الذي لا يقع فيه شرك، ومنهم من يقع منه شرك خفي وهو الشرك الأصغر؛ ولهذا قال ﷺ: «**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ**» قَالُوا: وَمَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**الرِّيَاءُ**»(١)، وهو أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ كما من حديث أبي موسى الأشعري(٢): وفي حديث آخر: «**الشِّرْكُ الْخَفِيُّ أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ لِمَا يَرَى من نَظَرِ رَجُلٍ**»(٣): فالشرك الأصغر قد يحصل من المؤمن؛ ولذلك يجب الحذر منه، وقد خافه النبي ﷺ على الصحابة.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢٣٦٣٠). (٢) أخرجه الإمام أحمد (١٩٦٠٦).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٢٠٤).

وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ**[١]، **تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الْقَطِيفَةِ**[٢]، **تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ**[٣]، **تَعِسَ وَانْتَكَسَ**[٤]، **وَإِذَا شِيكَ**[٥] **فَلَا انْتَقَشَ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ مُنِعَ سَخِطَ**»[٦](١)؛ فَسَمَّاهُ النَّبِيُّ ﷺ عَبْدَ الدِّرْهَمِ وَعَبْدَ الدِّينَارِ وَعَبْدَ الْقَطِيفَةِ

الشَّرْح

[١] **أي**: الذي يتعلق قلبه بالدرهم، يرضى له ويسخط له، فهذا عبد للدرهم، فالطمع بالشيء عبودية لهذا الشيء، وهي عبودية شرك أصغر، و(**تعس**)؛ **يعني**: هلك، دعا عليه النبي ﷺ بالتعس وهو الهلاك، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٨﴾ [محمد: ٨]؛ **أي**: هلاكاً، والدرهم يكون من الفضة، و(**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ**) والدينار يكون من الذهب.

[٢] **وهي نوع من الفرش**؛ **أي**: يتعلق قلبه بطمع الدنيا، إما بدرهم أو بدينار وإما بقطيفة.

[٣] **الخميصة**: كساء يلبس.

[٤] **كرر النبي ﷺ الدعاء على من يتعلق قلبه بأطماع الدنيا**، ويرضى لها ويغضب لها، فالمؤمن لا يتعلق قلبه بحب المال، وإن كان يحب المال ولكن لا يتعلق قلبه به بحيث يرضى له ويسخط له: «**إن أعطي رضي، وإن منع سخط**».

[٥] **أي**: أصابته شوكة، (**فَلَا انْتَقَشَ**)؛ **أي**: لا يقدر على أخذ الشوكة من رجله، فهذا دعاء من الرسول ﷺ عليه بالعجز.

[٦] **هذا سبب دعاء النبي ﷺ عليه**: أن سخطه ورضاه من أجل الدنيا، يحب من أجلها، ويبغض من أجلها، ولا يحب من أجل الإيمان ولا يبغض من أجل الكفر والمعاصي.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٨٦، ٢٨٨٧، ٦٤٣٥).

وَعَبْدَ الْخَمِيصَةِ[١]، وَذَكَرَ مَا فِيهِ دُعَاءٌ وَخَبَرٌ، وَهُوَ قَوْلُهُ: **«تَعِسَ وَانْتَكَسَ وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ»**، وَالنَّقْشُ إِخْرَاجُ الشَّوْكَةِ مِنَ الرِّجْلِ[٢]، وَالْمِنْقَاشُ مَا يُخْرَجُ بِهِ الشَّوْكَةُ، وَهَذِهِ حَالُ مَنْ إِذَا أَصَابَهُ شَرٌّ لَمْ يَخْرُجْ مِنْهُ وَلَمْ يُفْلِحْ لِكَوْنِهِ تَعِسَ وَانْتَكَسَ[٣]، فَلَا نَالَ الْمَطْلُوبَ[٤]، وَلَا خَلَصَ مِنَ الْمَكْرُوهِ[٥]، وَهَذِهِ حَالُ مَنْ عَبَدَ الْمَالَ[٦]، وَقَدْ وُصِفَ ذَلِكَ بِأَنَّهُ «إِذَا أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِذَا مُنِعَ

الشَّرْح

[١] **فدل على** أن العبودية قد تكون للمخلوقات.

[٢] **يعني: يُصاب بالعجز**، وهذا دعاء عليه.

[٣] **أي**: أن معنى الحديث أنه إذا أصابه الشر لا يستطيع الخروج منه، بسبب أنه صار عبداً للدينار والدرهم والقطيفة والخميصة.

[٤] **أي**: ما حصل على الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة.

[٥] **أي**: لم يسلم من شر العبودية لغير الله ﷻ؛ ولذلك تعس وانتكس.

فهذا فيه التحذير من تعلق قلب المؤمن بالدنيا، لها يرضى ولها يغضب، إن أعطي رضي وإن لم يعطَ سخط؛ كحال المنافقين الذين قال الله فيهم: **﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝٥٨﴾** [التوبة: ٥٨]، فرضاهم وسخطهم لأجل الدنيا، وليس من أجل الدين، والواجب أن يرضى المؤمن ويغضب لأجل دينه، أما الدنيا فإن جاءت من طريق حلال أخذها واستعان بها على طاعة الله، وإن لم تأت لم يعلق قلبه بها.

[٦] **لأن هناك من الناس من يعبد المال**؛ ولذلك يقدمونه على طاعة الله ﷻ، وتجدهم دائماً في الأسواق والأسفار والبحار، ولا يأتون إلى =

سَخِطَ»[١]، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝٥٨﴾ [التوبة: ٥٨][٢]؛ فَرِضَاهُمْ لِغَيْرِ اللهِ وَسَخَطُهُمْ لِغَيْرِ اللهِ.

وَهَكَذَا حَالُ مَنْ كَانَ مُتَعَلِّقاً بِرِئَاسَةٍ[٣] أَوْ بِصُورَةٍ[٤] وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ أَهْوَاءِ نَفْسِهِ، إِنْ حَصَلَ لَهُ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ سَخِطَ، فَهَذَا عَبْدُ مَا يَهْوَاهُ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ رَقِيقٌ لَهُ[٥]، إِذِ الرِّقُّ وَالْعُبُودِيَّةُ فِي

الشَّرْح

= المساجد إلا نادراً ويتركون صلاة الجماعة، وفي هذا دليل على أنهم عبيد للدرهم والدينار.

[١] **فالضابط في عبودية المال أنه إذا أعطي منه رضي عن الذي يعطيه ولو كان عدوّاً** لله، وإن لم يُعط سخط على من لم يعطه وإن كان وليّاً لله، فهو لا يحب ويبغض من أجل الدين، وإنما يحب ويبغض من أجل الدنيا؛ لذلك عقد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ باباً في كتاب التوحيد فقال: (باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا).

[٢] **أي**: من المنافقين، ﴿مَّن يَلْمِزُكَ﴾؛ **أي**: يتنقص الرسول ﷺ، ويتكلم في حقه، ﴿فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾؛ **أي**: الزكوات التي هي من موارد بيت المال، ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝٥٨﴾ [التوبة: ٥٨]، هذا من صفات المنافقين أن رضاهم وسخطهم لأجل الدنيا ولغير الله، حتى مع الرسول ﷺ.

[٣] **لأنه** يبذل كل ما يستطيع لكي يحصل على الرئاسة على قومه أو على دولته، ولو قدَّم دينه ثمناً لذلك ـ والعياذ بالله ـ لم يبال.

[٤] **أو بصورة**: بأن كان عاشقاً لامرأة فيتعلق قلبه بهذه المرأة.

[٥] **أي**: رقيق لطمعه وهواه، يسترقه الطمع ويخضع من أجله. ولو على حساب دينه.

الْحَقِيقَةِ هُوَ رِقُّ الْقَلْبِ وَعُبُودِيَّتُهُ[١]، فَمَا اسْتَرَقَّ الْقَلْبَ وَاسْتَعْبَدَهُ فَهُوَ عَبْدُهُ[٢]، وَلِهَذَا يُقَالُ:

الْعَبْدُ حُرٌّ مَا قَنِعَ وَالْحُرُّ عَبْدٌ مَا طَمِعَ[٣]

وَقَالَ الْقَائِلُ:

أَطَعْتُ مَطَامِعِي فَاسْتَعْبَدَتْنِي وَلَوْ أَنِّي قَنَعْتُ لَكُنْت حُرّاً[٤]

الشَّرْح

[١] **فالرق رق القلب وعبودية القلب** ولو تظاهر الإنسان بخلاف ذلك.

[٢] **سواء كان من استرقه واستعبده هو الله**، وهذا هو المقصود، وهو الذي خُلق من أجله، أو يكون الذي استرقه واستعبده مخلوقاً من المخلوقين من مال أو امرأة أو غير ذلك، فهذا عبد لمن استرقه.

ولذلك قال الشاعر:

العبد حر ما قنع والحر عبد ما طمع

[٣] **فالقناعة هي الحرية**، والطمع هو الرق، فإذا طمعت فأنت رقيق لما طمعت به، وإذا قنعت فإنك تستغني عنه وتكون حرّاً ولا تتشوف إلى الأطماع؛ ولهذا يُقال: (القناعة كنز لا ينفذ)؛ فالقناعة كنز وهي غنى القلب، والغنى غنى النفس كما في الحديث: «**ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس**»(١)، فقد يكون الإنسان عنده أموال الدنيا، ولكن قلبه فقير، وقد يكون العكس إنسان ليس عنده شيء ولكنه قانع وحر من الأطماع، وعبوديته لله ﷻ، ولا يؤثر عليها طمع من مطامع الدنيا.

وكذلك قول الشاعر الآخر:

أطعت مطامعي فاستعبدتني ولو أني قنعت لكنت حرا

[٤] **فالطمع يسيطر على الإنسان ويكون عبداً له**، يأتمر بأمره وينتهي عن نهيه، فلو قنع لصار حرّاً، ولكنه لما طمع صار عبداً ورقيقاً لما يطمع به.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٤٦).

وَيُقَالُ: الطَّمَعُ غُلٌّ فِي الْعُنُقِ قَيْدٌ فِي الرِّجْلِ[١]، فَإِذَا زَالَ الْغُلُّ مِنَ الْعُنُقِ زَالَ الْقَيْدُ مِنَ الرِّجْلِ[٢]. وَيُرْوَى عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ؛ أَنَّهُ قَالَ: «الطَّمَعُ فَقْرٌ[٣]، وَالْيَأْسُ غِنًى[٤]، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا يَئِسَ مِنْ شَيْءٍ اسْتَغْنَى عَنْهُ»[٥]. وَهَذَا أَمْرٌ يَجِدُهُ الْإِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ؛ فَإِنَّ الْأَمْرَ الَّذِي يَيْأَسُ مِنْهُ لَا يَطْلُبُهُ وَلَا يَطْمَعُ بِهِ[٦]، وَلَا يبْقى قَلْبُهُ فَقِيراً إِلَيْهِ، وَلَا إِلَى مَنْ يَفْعَلُهُ، وَأَمَّا إِذَا طَمِعَ فِي أَمْرٍ مِنْ الْأُمُورِ وَرَجَاهُ تَعَلَّقَ قَلْبُهُ بِهِ، فَصَارَ فَقِيراً إِلَى حُصُولِهِ؛ وَإِلَى

الشَّرْح

[١] فالطمع يغل يدك ويقيد رجلك؛ فلا تستطيع التصرف؛ **بمعنى**: أنك تكون أسيراً لمطامعك.

[٢] لأن أصل الغل في العنق، فإذا زال زال القيد من الرِّجل، فإذا زال الطمع، زال الرق.

[٣] **فلو حاز الدنيا كلها فإنه يظل يريد الزيادة**، وفي الصحيح: «**لَوْ أَنَّ لِابْنِ آدَمَ وَادِياً مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَادِيَانِ وَلَنْ يَمْلَأَ فَاهُ إِلَّا التُّرَابُ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ**»(١).

[٤] **واليأس غنى** لأنه لا يلتفت إلى شيء، ولا يذل لشيء؛ ولهذا يقولون: اليأس قوة، أما الطمع فهو ضعف.

[٥] **وقال الشاعر**:

غني بلا مال عن الناس كلهم ... وليس الغنى إلا عن الشيء لا به

[٦] **فاليأس قوة كما يقولون**، فإذا يئست من الشيء استرحت، ولا يخطر على بالك.

---
(١) أخرجه البخاري (٦٤٣٩).

مَنْ يَظُنُّ أَنَّهُ سَبَبٌ فِي حُصُولِهِ، وَهَذَا فِي الْمَالِ وَالْجَاهِ[١] وَالصُّوَرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ[٢]. قَالَ الْخَلِيلُ عليه السلام: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت: ١٧][٣].

الشَّرْح

[١] **ولذلك إذا طمع في المال صار المال هو أكبر همه**، له يرضى وله يسخط وعليه يعادي وله يوالي، والجاه أيضاً بلاء، فحب الرئاسة بلاء؛ لأن المطوب التواضع، فمن يحب الرئاسة قد يترك دينه ليحصل عليها.

[٢] **المراد بذلك عشق النساء والتعلق بهن**؛ ولذلك أمر الله بغض البصر، قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣٠، ٣١]؛ وغض البصر فيه نجاة للمؤمن من الذلة والشهوات والعشق، فمن غض بصره سلم طهر قلبه، ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾، وأما النظر إلى ما حرم الله فإنه ذلة في القلب، ودنس في السلوك.

[٣] **وقال الخليل إبراهيم عليه السلام لقومه**: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ [العنكبوت: ١٧]؛ لأنهم حجارة ضعيفة، أو حيوانات أو آدميون، فهم لا يملكون لكم رزقاً؛ لأن الرزق بيد الله، ثم قال: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾؛ **أي**: لا تطلبوا الرزق من الناس، وإنما اطلبوه من الله ـ جلّ وعلا ـ الذي يملك الرزق، فإن الله هو الرزاق ذو القوة المتين، فعلق قلبك بالله عز وجل، ﴿وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾؛ **أي**: إليه مردكم فيحاسبكم، أما هذه الحجارة والأصنام؛ فلا تملك لكم ضرّاً ولا نفعاً وليس عندها جزاء لكم يوم القيامة، فإذا كنت تريد العزة فاعمل بهذه الوصية: اطلب الرزق من الله، واعبد الله عز وجل، واشكره إذا أنعم عليك نعمة فاعترف لله بالفضل والمنة ولا تقل: هذا بسبب فلان أو بسبب جهدي أو كدي، فهذه وصية إبراهيم عليه السلام لقومه، وهي وصية لكل الناس. وفي الآية دليل على أن طلب الرزق لا يتنافى مع العبادة بل هو عبادة.

فَالْعَبْدُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ رِزْقٍ، وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى ذَلِكَ[١]، فَإِذَا طَلَبَ رِزْقَهُ مِنَ اللهِ صَارَ عَبْداً للهِ، فَقِيراً إِلَيْهِ[٢]، وَإِنْ طَلَبَهُ مِنْ مَخْلُوقٍ صَارَ عَبْداً لِذَلِكَ الْمَخْلُوقِ فَقِيراً إِلَيْهِ[٣]. وَلِهَذَا كَانَتْ مَسْأَلَةُ الْمَخْلُوقِ مُحَرَّمَةً فِي الْأَصْلِ[٤]، وَإِنَّمَا أُبِيحَتْ لِلضَّرُورَةِ[٥]، وَفِي النَّهْيِ عَنْهَا أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ فِي الصِّحَاحِ وَالسُّنَنِ وَالْمَسَانِيدِ[٦]؛ كَقَوْلِهِ ﷺ: «**لَا تَزَالُ الْمَسْأَلَةُ بِأَحَدِكُمْ حَتَّى يَأْتِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَيْسَ**

الشَّرْح

[١] **أي: ليس معنى الكلام السابق في التحذير** من الطمع والحرص على تحصيل المال ليس معنى ذلك أنك لا تطلب الرزق، بل كما قال الخليل: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾، فالرزق عند الله فاطلبه منه ﷻ، ولكن لا تطلبه بذلة للمخلوقين؛ قال ﷻ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق: ٣].

[٢] **وهذا هو الواجب**، قال تعالى: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٧].

[٣] **لأنه يخضع له ويذل له ويلتمس رضاه**، ويخاف من سخطه عليه وغضبه، ويذل له ويداريه، وهو عبد مثله.

[٤] **الأصل أنه يحرم أن تسأل المخلوق مالاً**؛ لأن في المسألة ذلّاً للمخلوق، ولكن تُباح المسألة عند الحاجة كما يأتي، أما إذا استغنيت فلا تسأل الناس، واسأل الله ﷻ، فأصل السؤال للمخلوق محرم، وفيه وعيد شديد.

[٥] **أي**: أبيحت مسألة المخلوق في بعض الأحيان للضرورة التي لا تندفع إلا بها.

[٦] **كلها** تدل على تحريم مسألة الناس.

مثل قوله ﷺ: «**لَا تَزَالُ الْمَسْأَلَةُ بِأَحَدِكُمْ حَتَّى يَأْتِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَيْسَ فِي وَجْهِهِ مِزْعَةُ لَحْمٍ**».

فِي وَجْهِهِ مِزْعَةُ لَحْمٍ»(١)، وَقَوْلِهِ: **«مَنْ سَأَلَ النَّاسَ وَلَهُ مَا يُغْنِيهِ جَاءَتْ مَسْأَلَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خُدُوشاً أَوْ خُمُوشاً أَوْ كُدُوحاً فِي وَجْهِهِ»**[١](٢)، وَقَوْلِهِ: **«لَا تَحِلُّ الْمَسْأَلَةُ إِلَّا لِذِي غُرْمٍ مُفْظِعٍ أَوْ دَمٍ مُوجِعٍ أَوْ فَقْرٍ مُدْقِعٍ»**[٢](٣).

الشَّرْح

[١] هذا إذا كان يسأل من غير حاجة، ويتخذ المسألة حرفة، فإنها تكون لها آثار سيئة في وجهه يوم القيامة يفتضح بها.

[٢] دلَّ هذا على أن المسألة محرمة في الأصل، ولكنها تحل عند الضرورة لثلاثة أشخاص:

- **الأول**: (لِذِي غُرْمٍ مُفْظِعٍ)؛ **يعني**: ثقيل، بأن يكون عليه ديون مطالب بها ولا يستطيع سدادها، فهذا تحل له المسألة حتى يصيب ما يسدد ديونه التي يعجز عنها؛ لأنه غارم لنفسه، وكذلك الغارم لغيره؛ كالغارم لإصلاح ذات البين، بأن يتوسط للصلح بين القبائل المتنازعة، فيتحمل لذلك مالاً، فهذا يساعد من الزكاة، ولا يُترك ليتحمل الغرامة وحده؛ لأن ذلك يجحف بماله ويسد باب الإصلاح.
- **الثاني**: (أَوْ دَمٍ مُوجِعٍ)؛ **أي**: عليه دية ولا يستطيع التسديد؛ كدية العمد.
- **الثالث**: (أَوْ فَقْرٍ مُدْقِعٍ)؛ **أي**: به فقر شديد، فيسأل قدر ما يسد حاجته، ثم يمسك عن المسألة لقوله: **«حَتَّى يُصِيبَ سِدَاداً مِنْ عَيْشٍ»**(٤) ثم =

(١) أخرجه البخاري (١٤٧٤)، ومسلم (١٠٤٠).
(٢) أخرجه الترمذي (٦٥٣)، والنسائي (٢٥٩٢)، وابن ماجه (١٨٤٠).
(٣) أخرجه أبو داود (١٦٤١)، والترمذي (٦٥٣)، وابن ماجه (٢١٩٨)، والإمام أحمد (١٢١٣٤، ١٢٢٧٨).
(٤) أخرجه مسلم (١٠٤٤).

وَفِيهِ أَيْضاً: «**لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَذْهَبَ فَيَحْتَطِبَ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ**»[١](١)، وَقَالَ: «**مَا أَتَاكَ مِنْ هَذَا الْمَالِ وَأَنْتَ غَيْرُ سَائِلٍ ولا مُشْرِفٍ فَخُذْهُ. وَمَا لَا فَلَا تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ**»[٢](٢)، فَكَرِهَ أَخْذَهُ مِنْ سُؤَالِ اللِّسَانِ وَاسْتِشْرَافِ الْقَلْبِ[٣]، وَقَالَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «**مَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ**[٤]؛ **وَمَنْ**

الشَّرْح

= يمسك؛ **أي**: يمتنع عن السؤال، غير أن بعض الناس إذا ابتلي بالسؤال، فإنه يستمر يسأل ويصير السؤال حرفة له! فهذا هو الذي عليه الوعيد الشديد.

[١] هذا إرشاد منه ﷺ لطلب الرزق والاحتراف، إذا كان الإنسان يقدر على الاحتراف وطلب الرزق؛ فلا يسأل الناس ولو كان محتاجاً؛ لأنه غني بالقوة، فيأخذ حبله وفأسه ويذهب إلى الجبل، ويأتي بالحطب ويبيع، ويكف الله بذلك وجهه عن الناس، وهو ما أرشد إليه النبي ﷺ، فقد أرشد إلى العمل وطلب الرزق، ولا ينظر إلى أيدي الناس وما يعطونه، فالذي يحترف أي حرفة ولو كانت دنيئة يعيش بها أحسن من الذي يسأل الناس؛ لأن العمل وطلب الرزق شرف ورفعة وعزة، وصاحبه مأجور.

[٢] **أي**: إذا أعطيت شيئاً من غير أن تتطلع إليه، بأن ابتدأك صاحبه وأعطاك مالاً فخذه، فإن شئت انتفع به وإن شئت ادفعه لغيرك.

[٣] قال الشيخ: (**فَكَرِهَ أَخْذَهُ مِنْ سُؤَالِ اللِّسَانِ وَاسْتِشْرَافِ الْقَلْبِ**)؛ **أي**: تطلع القلب.

[٤] وقال ﷺ: (**مَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ الله**)؛ فالجزاء من جنس العمل، فمن =

---

(١) أخرجه البخاري بنحوه (١٤٧٠).
(٢) أخرجه البخاري (١٤٧٠، ١٤٧١، ١٤٨٠).

يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّـهُ اللهُ؛ وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ؛ وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْراً وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»(١). وَأَوْصَى خَوَاصَّ أَصْحَابِهِ أَنْ لَا يَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئاً[١]، وَفِي الْمُسْنَدِ: «**أَنَّ أَبَا بَكْرٍ كَانَ يَسْقُطُ السَّوْطُ مِنْ يَدِهِ فَلَا يَقُولُ لِأَحَدٍ نَاوِلْنِي إِيَّاهُ؛ وَيَقُولُ: إِنَّ خَلِيلِي أَمَرَنِي أَنْ لَا أَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئاً**»(٢)، وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» وَغَيْرِهِ عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَايَعَهُ فِي طَائِفَةٍ وَأَسَرَّ إِلَيْهِمْ كَلِمَةً خَفِيَّةً: «**أَنْ لَا تَسْأَلُوا**

الشَّرْح

= يستغن عن الناس يغنه الله، (وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ) عَنِ السُّؤَالْ يرزقه الله العفة (**يُعِفَّهُ الله**)؛ (**وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ؛ وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْراً وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ**) فيه: الصبر، فيصبر الإنسان ولو على شظف العيش، ويطلب الرزق ولو مع التعب ويصبر، ولا يذل للناس وينظر إلى ما بأيديهم، بل يصبر على العمل والتعب وعلى الحاجة غير الشديدة، ولا يسأل الناس.

[١] أوصى ﷺ خيار الصحابة عند البيعة، أنهم لا يسألون الناس شيئاً مهما كان؛ لأن السؤال فيه ذلة للمخلوق، حتى في غير المال، فكان أحدهم يسقط سوطه في الأرض، فلا يقول لأحد: ناولني إياه، بل ينزل هو ويأخذه استغناء عن الناس، ففي هذا رفعة وعزة وشرف، وأما إذا سأل الناس وطلب منهم ولو رفع سوطه إليه فإنه يذل لهم، والإنسان إذا عوَّد نفسه على الشيء ولو كان قليلاً فإنه يتجرأ على الكثير، فلا يفتح الباب على نفسه، مهما أمكنه الاستغناء عن الناس فإنه يستغني عنهم، والناس يملونه من سؤاله ويستثقلونه، قال الشاعر:

فلو سئل الناس التراب لأوشكوا إذا قيل هاتوا أن يملوا فيمنعوا

(١) أخرجه البخاري (١٤٢٧، ١٤٦٩، ٦٤٧٠).

(٢) المسند (٦٥) والذي جاء فيه أن الذي سقط خطام الناقة.

النَّاسَ شَيْئاً، فَكَانَ بَعْضُ أُولَئِكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ السَّوْطُ مِنْ يَدِ أَحَدِهِمْ؛ وَلَا يَقُولُ لِأَحَدٍ نَاوِلْنِي إِيَّاهُ»(١).

وَقَدْ دَلَّتِ النُّصُوصُ عَلَى الْأَمْرِ بِمَسْأَلَةِ الْخَالِقِ وَالنَّهْيِ عَنْ مَسْأَلَةِ الْمَخْلُوقِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ[١] كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾[٢] ....

الشَّرح

[١] **أي**: دلت الأحاديث الكثيرة على وجوب مسألة الخالق ﷻ والاستغناء عن سؤال المخلوق. فتسأل الله كل ما تحتاج إليه؛ لأن هذا من العبودية والاستغاثة، والاستعانة بالله ﷻ، وكل هذا من أنواع العبودية. ومن كمال العبودية أن لا تسأل الناس شيئاً، وإنما تحصر سؤالك بالله ﷻ، وهو الذي ييسر لك ما تسأله، وأما المخلوق فهو وإن سألته وأعطاك؛ فإن سؤالك له فيه ذلة للمخلوق، كما أن المخلوق يكره أن تسأله، أما الله ـ جلّ وعلا ـ فإنه يفرح إذا سألته؛ ولهذا يقول الشاعر:

لا تسألن بُنَيَّ آدم حاجة ... وسل الذي أبوابه لا تحجب
اللَّه يغضب إن تركت سؤاله ... وبُنَيَّ آدم حين يُسأل يغضب

وقد قال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس وكان صغيراً: «**إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ الله، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ**»(٢)، فهذا منه تربية لهذا الشاب على أن يعلق قلبه بالله ﷻ، ولا ينظر إلى ما بأيدي الناس.

وسبق حديث: «**لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَذْهَبَ فَيَحْتَطِبَ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ**»، فمهما أمكن أن الإنسان يستغني عن سؤال الناس فإنه لا يفعل ذلك وهو أعز له.

[٢] **هذا خطاب للنبي ﷺ**، وهو خطاب لأمته أيضاً؛ **أي**: إذا فرغت من =

(١) أخرجه مسلم (١٠٤٣).
(٢) أخرجه الترمذي (٢٥١٦).

﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾﴾ [الشرح: ٧، ٨][١]، وَقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ لِابْنِ عَبَّاسٍ: «**إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ**»[٢](١)، وَمِنْهُ قَوْلُ الْخَلِيلِ: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٧][٣]، وَلَمْ

الشَّرح

= أشغالك وأعمالك الدنيوية فانصب لعبادة ربك بالصلاة وذكر الله ﷻ، واشغل فراغك بطاعة الله ﷻ.

ومعنى: «**انصب**»؛ **أي**: اتعب في ذلك واشغل فراغك في ذلك، وهو خير لك؛ لأنك تجده عند الله ﷻ. وكثير من الناس يشغلون فراغهم بما يضرهم من اللهو واللعب والغفلة، ويقولون: نقتل الوقت، نحن عندنا فراغ ماذا نصنع به، وكأنهم نسوا أن الوقت من ذهب، وأن اللائق بالمسلم أن يستغل وقته لآخرته، فليس عند المسلم فراغ أبداً، بل يشغل وقته بما ينفعه عند الله ﷻ. فكما يُؤَمِّن مستقبله في الدنيا ـ كما يقولون ـ يؤمن مستقبله في الآخرة.

[١] **هذا محل الشاهد**، فتقديم ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ﴾ يفيد الحصر؛ **أي**: فإلى ربك وحده فارغب؛ **أي**: اطمع بما عنده لا إلى غيره، فارغب فيما عند الله واسأل ما عنده ﷻ، واسأل كل ما ترغب من الأمور واطلبه من الله ﷻ.

[٢] **فإن الله هو الغني الحميد الذي عنده حوائجك**، ولا تسأل غيره، واستغن بالله عن غيره، وهذا توجيه لابن عباس ولغيره بأن يوجهوا سؤالهم لله ﷻ.

(**إذا استعنت فاستعن بالله**) الاستعانة: أن تطلب من يعينك على تحصيل شيء، والاستعانة بالمخلوقين فيما يقدرون عليه لا بأس بها، ولكن الاستغناء عنها والاستعانة بالله أحسن. وأما الاستعانة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه فهي شرك.

[٣] قال الشيخ: (**وَمِنْهُ قَوْلُ الْخَلِيلِ: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾** =

(١) انظر السابقة.

يَقُلْ فَابْتَغُوا الرِّزْقَ عِنْدَ اللهِ؛ لِأَنَّ تَقْدِيمَ الظَّرْفِ يُشْعِرُ بِالِاخْتِصَاصِ وَالْحَصْرِ؛ كَأَنَّهُ قَالَ لَا تَبْتَغُوا الرِّزْقَ إِلَّا عِنْدَ اللهِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٣٢][١]، وَالْإِنْسَانُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ حُصُولِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الرِّزْقِ وَنَحْوِهِ[٢]، وَدَفْعِ مَا يَضُرُّهُ؛ وَكِلَا

الشَّرْح

= [العنكبوت: ١٧]، **وَلَمْ يَقُلْ فَابْتَغُوا الرِّزْقَ عِنْدَ اللهِ؛ لِأَنَّ تَقْدِيمَ الظَّرْفِ يُشْعِرُ بِالِاخْتِصَاصِ وَالْحَصْرِ؛ كَأَنَّهُ قَالَ لَا تَبْتَغُوا الرِّزْقَ إِلَّا عِنْدَ اللهِ)** خاطب الخليل عليه السلام قومه بقوله: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت: ١٧]، فقدَّم المعمول ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ على المفعول وهو الرزق، فلم يقل: ابتغوا الرزق عند الله؛ لأن تقديم المعمول يفيد الحصر؛ والمعنى: لا تبتغوا الرزق من غير الله سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٨].

[١] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾ [النساء: ٣٢]، فوجه سبحانه وتعالى عباده إلى أن يسألوه ولا يتمنوا ما عند الآخرين؛ بل تسأل الله أن يكون لك مثل فلان، فاطلب الرزق منه سبحانه وتعالى، واسأل الله أن يعطيك مثل ما أعطى فلاناً وهو سبحانه وتعالى قريب مجيب، بدل أن تتمنى ما عند فلان.

[٢] لا شك أن الإنسان دائماً في حاجة فهو فقير، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥]، فالإنسان فقير وبحاجة إلى من يعينه، مهما كان فهو فقير ومحتاج إلى الإعانة، ولكن يوجه طلب إعانته إلى الله تعالى.

الْأَمْرَيْنِ شُرِعَ لَهُ أَنْ يَكُونَ دُعَاؤُهُ للهِ؛ فَلَهُ أَنْ يَسْأَلَ اللهَ وَإِلَيْهِ يَشْتَكِي، كَمَا قَالَ يَعْقُوبُ عليه السلام: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦].

وَاللهُ تَعَالَى ذَكَرَ فِي الْقُرْآنِ «الْهَجْرَ الْجَمِيلَ» و«الصَّفْحَ الْجَمِيلَ» و«الصَّبْرَ الْجَمِيلَ». وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ «الْهَجْرَ الْجَمِيلَ» هُوَ هَجْرٌ بِلَا أَذًى. وَالصَّفْحَ الْجَمِيلَ صَفْحٌ بِلَا مُعَاتَبَةٍ. وَالصَّبْرَ الْجَمِيلَ صَبْرٌ بِغَيْرِ شَكْوَى إِلَى الْمَخْلُوقِ؛ وَلِهَذَا قُرِئَ عَلَى أَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ فِي مَرَضِهِ أَنَّ طاوساً كَانَ يَكْرَهُ أَنِينَ الْمَرِيضِ[١] وَيَقُولُ: إِنَّهُ شَكْوَى فَمَا أَنَّ أَحْمَدُ حَتَّى مَاتَ.

وَأَمَّا الشَّكْوَى[٢] إِلَى الْخَالِقِ فَلَا تُنَافِي الصَّبْرَ الْجَمِيلَ؛ فَإِنَّ يَعْقُوبَ قَالَ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ٨٣]، وَقَالَ: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]، «وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَقْرَأُ فِي الْفَجْرِ بِسُورَةِ (يُونُسَ) وَ(يُوسُفَ) وَ(النَّحْلِ) فَمَرَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ فِي

الشَّرْح

[١] هو: **طاوس بن كيسان اليماني أحد أئمة التابعين**، كان يكره الأنين للمريض؛ لأنه نوع جزع، وشكوى إلى المخلوقين، فلما بلغ الإمام أحمد ذلك في مرضه ترك الأنين حتى مات رحمه الله، تجنباً للمحذور.

[٢] **الشكوى هي ذكر حاجتك فليكن ذلك إلى الخالق والمشتكى إلى الله**، فالشكوى إلى الخالق عبادة ولا تنافي الصبر، ولهذا قال يعقوب عليه السلام لما فقد أولاده الثلاثة: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ٨٣]، ثم قال بعد ذلك: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]، فدل على أن الشكوى إلى الله لا تتنافى مع الصبر.

قِـرَاءَتِهِ فَبَكَى حَتَّى سُمِـعَ نَشِيجُهُ مِـنْ آخِـرِ الصُّفُوفِ»[١](١)، وَمِنْ دُعَاءِ مُوسَى: «**اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ وَإِلَيْكَ الْمُشْتَكَى وَأَنْتَ الْمُسْتَعَانُ وَبِكَ الْمُسْتَغَاثُ وَعَلَيْكَ التكلان وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ**»[٢](٢).

وَفِي الدُّعَاءِ الَّذِي دَعَا بِهِ النَّبِيُّ ﷺ لَمَّا فَعلَ بِهِ أَهْلُ الطَّائِفِ مَا فَعَلُوا: «**اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي**[٣]، **وَهَوَانِي عَلَى**

الشَّرح

[١] **أي**: لما مر على قول يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]، عند ذلك بكى عمر واشتد بكاؤه من رغبته إلى الله.

[٢] **الشاهد في قوله: (وَإِلَيْك المشتكى)**: فالشكوى إلى الله لا تنافي الصبر والاحتساب، فهذا كليم الله موسى عليه السلام كان يقول في دعائه: **(وَإِلَيْكَ الْمُشْتَكَى)**: فهو يشكو إلى الله ما أصابه من أذى فرعون وبني إسرائيل.

[٣] **لما كان النبي ﷺ في مكة وأذاه المشركون وضايقوه غاية المضايقة**، وازداد ذلك الأذى عليه لما مات عمه أبو طالب الذي كان يدافع عنه، ويحميه من أذى قومه، وكذا توفيت زوجته خديجة رضي الله عنها التي كانت تؤنسه وتطمئنه وتُسرِّي عنه ما يصيبه؛ فاشتد عليه فقدهما وتسلط عليه المشركون، وخرج إلى الطائف يدعوهم إلى الله لعلهم يستجيبون له، لما جفاه أهل مكة وضايقوه خرج يلتمس من يؤويه حتى يبلغ دعوة ربه عز وجل، ولكن أهل الطائف قابلوه مقابلة سيئة وردوا عليه، وسلطوا سفهاءهم وصبيانهم يرمونه بالحجارة عليه الصلاة والسلام، ثم رجع ولم يحصل على طائل، أهل مكة ضايقوه وضيقوا عليه، وأهل الطائف ردوه، فلجأ إلى الله سبحانه وتعالى، فدعا بهذا الدعاء العظيم =

(١) أخرجه البخاري (٧١٥).
(٢) الطبراني من الأوسط (٣٣٩٤).

النَّاسِ؛ أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَأَنْتَ رَبِّي. اللَّهُمَّ إِلَى مَنْ تَكِلُنِي؟ إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي أَمْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي؛ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فَلَا أُبَالِي؛ غَيْرَ أَنَّ عَافِيَتَكَ أَوْسَعُ لِي؛ أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ بِهِ الظُّلُمَاتُ؛ وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَنْ يَنْزِلَ بِي سَخَطُكَ؛ أَوْ يَحِلَّ عَلَيَّ غَضَبُكَ؛ لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى؛ فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ» - وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ -: «**وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ**»(١).

وَكُلَّمَا قَوِيَ طَمَعُ الْعَبْدِ فِي فَضْلِ اللهِ[١] وَرَحْمَتِهِ وَرَجَائِهِ لِقَضَاءِ حَاجَتِهِ وَدَفْعِ ضَرُورَتِهِ قَوِيَتْ عُبُودِيَّتُهُ لَهُ وَحُرِّيَّتُهُ مِمَّا سِوَاهُ؛ فَكَمَا أَنَّ طَمَعَهُ فِي الْمَخْلُوقِ يُوجِبُ عُبُودِيَّتَهُ[٢] لَهُ فَيَأْسُهُ مِنْهُ يُوجِبُ غِنَى قَلْبِهِ عَنْهُ، كَمَا قِيلَ: اسْتَغْنِ عَمَّنْ شِئْتَ تَكُنْ نَظِيرَهُ[٣]، وَأَفْضِلْ عَلَى مَنْ

الشَّرح

= المشهور بدعاء الطائف، فقال: «**اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي**» فالرسول ﷺ اشتكى إلى الله ﷻ مع ما آتاه الله من الصبر، فهذا دليل على أن الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر.

[١] أي: كلما قويت الرغبة فيما عند الله؛ لأن هذا يدل على كمال الإيمان، وكمال التوحيد، والتوكل على الله والدعاء والاستغاثة والاستعانة به، كما قال الله عن المؤمنين: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝٥٩﴾ [التوبة: ٥٩].

[٢] أي: كلما نظرت إلى ما عند المخلوقين ورجوتهم وسألتهم صرت عبداً لهم، وذليلاً لهم فترفع عن هذا إلى عبودية الخالق وسؤال الخالق ﷻ تعتز.

[٣] هذه حكمة تقول: إذا استغنيت عن شخص صرت مساوياً له، هو عبد وأنت عبد، فلا أنت تحتاج إليه ولا هو يحتاج إليك.

(١) الدعاء للطبراني (١٠٣٦)، ومصنف عبد الرزاق (٩٢٣٤).

شِئْتَ تَكُنْ أَمِيرَهُ[١]؛ وَاحْتَجْ إِلَى مَنْ شِئْتَ تَكُنْ أَسِيرَهُ[٢]. فَكَذَلِكَ طَمَعُ الْعَبْدِ فِي رَبِّهِ وَرَجَاؤُهُ لَهُ يُوجِبُ عُبُودِيَّتَهُ لَهُ[٣]؛ وَإِعْرَاضَ قَلْبِهِ عَنِ الطَّلَبِ مِنْ غَيْرِ اللهِ، وَالرَّجَاءِ لَهُ يُوجِبُ انْصِرَافَ قَلْبِهِ عَنِ الْعُبُودِيَّةِ للهِ[٤]؛ لَا سِيَّمَا مَنْ كَانَ يَرْجُو الْمَخْلُوقَ وَلَا يَرْجُو الْخَالِقَ، بِحَيْثُ يَكُونُ قَلْبُهُ مُعْتَمِداً إِمَّا عَلَى رِئَاسَتِهِ وَجُنُودِهِ وَأَتْبَاعِهِ وَمَمَالِيكِهِ؛ وَإِمَّا عَلَى أَهْلِهِ وَأَصْدِقَائِهِ؛ وَإِمَّا عَلَى أَمْوَالِهِ وَذَخَائِرِهِ؛ وَإِمَّا عَلَى سَادَاتِهِ وَكُبَرَائِهِ؛ كَمَالِكِهِ وَمَلِكِهِ، وَشَيْخِهِ وَمَخْدُومِهِ وَغَيْرِهِمْ[٥]،

الشَّرح

[١] **أي**: إذا أعطيت أحداً شيئاً تكون أرفع منه كالأمير عليه.

[٢] **أي**: إذا احتجت إلى شخص فأنت أسير وعبد له؛ لأن قلبك متعلق به وأنت ترغب فيما عنده.

[٣] **أما طمع العبد فيما عند الله ورجاؤه له ورغبته فيما عند الله فترسخ عقيدته**؛ لأن العبرة بالحاجة، فإذا احتاج إلى أحد من الخلق تعلق قلبه به، أما إذا علق الإنسان قلبه بالله وأنزل حوائجه بالله صار عبداً لله، وإذا أنزل حوائجه بالمخلوقين صار عبداً لهم، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٠].

[٤] ولهذا قال: (**وَإِعْرَاضَ قَلْبِهِ عَنِ الطَّلَبِ مِنْ غَيْرِ اللهِ، وَالرَّجَاءِ لَهُ يُوجِبُ انْصِرَافَ قَلْبِهِ عَنِ الْعُبُودِيَّةِ للهِ**): إذا انصرف القلب عن الله فإن ذلك يصرفه عن عبوديته لله ﷻ. فهو إما أن يعتمد على الله فيكون عبداً لله. . .

[٥] (**وَإِمَّا عَلَى سَادَاتِهِ وَكُبَرَائِهِ؛ كَمَالِكِهِ وَمَلِكِهِ؛ وَشَيْخِهِ وَمَخْدُومِهِ وَغَيْرِهِمْ..**): فإنه يكون عبداً لهم حتى الملوك إذا ذلوا لخدامهم وقصروا نظرهم عليهم صاروا عبيداً لهم، مع أنهم ملوك فإنهم يحتاجون إلى المخلوقين، =

مِمَّنْ هُوَ قَدْ مَاتَ أَوْ يَمُوتُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [الفرقان: ٥٨].

وَكُلُّ مَنْ عَلَّقَ قَلْبَهُ بِالْمَخْلُوقَاتِ أَنْ يَنْصُرُوهُ أَوْ يَرْزُقُوهُ أَوْ أَنْ يَهْدُوهُ خَضَعَ قَلْبُهُ لَهُمْ، وَصَارَ فِيهِ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ لَهُمْ بِقَدْرِ ذَلِكَ[١]؛ وَإِنْ كَانَ فِي الظَّاهِرِ أَمِيراً لَهُمْ مُدَبِّراً لَهُمْ مُتَصَرِّفاً بِهِمْ؛ فَالْعَاقِلُ يَنْظُرُ إِلَى الْحَقَائِقِ لَا إِلَى الظَّوَاهِرِ[٢]؛ فَالرَّجُلُ إِذَا تَعَلَّقَ قَلْبُهُ بِامْرَأَةٍ وَلَوْ كَانَتْ مُبَاحَةً لَهُ يَبْقَى قَلْبُهُ أَسِيراً لَهَا[٣] تَحْكُمُ فِيهِ وَتَتَصَرَّفُ بِمَا تُرِيدُ، وَهُوَ

الشَّرْح

= أما لو أنهم علقوا طمعهم بالله ﷻ، ورجاءهم بالله لاجتمع لهم عز الدنيا والآخرة، فالملك يزول ولا يبقى والمال والثروة تزول والأصدقاء والأقارب يموتون، ويعود الإنسان فقيراً وذليلاً، فإذا اعتمد على الحي الذي لا يموت عز، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [الفرقان: ٥٨].

[١] فإذا تعلق قلبك بالمخلوقين وطمعت فيما عندهم صرت عبداً لهم، تحاول إرضاءهم وتخاف من سخطهم وغضبهم، فعلق قلبك بالله ولا تعلق قلبك بالمخلوق مهما كان هذا المخلوق، قال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [آل عمران: ١٦٠]، فالنصر يُطلب من الله ﷻ، بل كل الأمور تُطلب من الله، وهذا فيه عز العبد وترفعه عن الحاجة للمخلوقين.

[٢] فالملك إذا علق أمره بخدمه وعبيده وقوته وجيوشه وجنوده فإنه يكون عبداً لهم وإن كان ملكاً عليهم في الظاهر.

[٣] إذا تعلق الرجل بامرأة وأحبها ولو كانت زوجته ومباحة له فإنه يبقى أسيراً لها يتلمس رضاها، ويتجنب ما يسخطها، وفي ذلك ذلة له وعبودية لها، بحيث: (**تَحْكُمُ فِيهِ وَتَتَصَرَّفُ بِمَا تُرِيدُ**).

فِي الظَّاهِرِ سَيِّدُهَا لِأَنَّهُ زَوْجُهَا[١]، وَفِي الْحَقِيقَةِ هُوَ أَسِيرُهَا وَمَمْلُوكُهَا لَا سِيَّمَا إِذَا دَرَتْ بِفَقْرِهِ إِلَيْهَا، وَعِشْقِهِ لَهَا[٢]، وَأَنَّهُ لَا يَعْتَاضُ عَنْهَا بِغَيْرِهَا، فَإِنَّهَا حِينَئِذٍ تَحْكُمُ فِيهِ بِحُكْمِ السَّيِّدِ الْقَاهِرِ الظَّالِمِ فِي عَبْدِهِ الْمَقْهُورِ، الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ الْخَلَاصَ مِنْهُ، بَلْ أَعْظَمُ[٣]، فَإِنَّ أَسْرَ الْقَلْبِ أَعْظَمُ مِنْ أَسْرِ الْبَدَنِ[٤]، وَاسْتِعْبَادَ الْقَلْبِ أَعْظَمُ مِنَ اسْتِعْبَادِ الْبَدَنِ، فَإِنَّ مَنِ اسْتُعْبِدَ بَدَنُهُ وَاسْتُرِقَّ لَا يُبَالِي إِذَا كَانَ قَلْبُهُ مُسْتَرِيحاً مِنْ ذَلِكَ مُطْمَئِنّاً، بَلْ يُمْكِنُهُ الِاحْتِيَالُ فِي الْخَلَاصِ[٥].

الشَّرح

[١] **هو في الظاهر سيد لهذه المرأة**، ولكنه في الباطن عبد لها؛ لأنه متعلق قلبه بها ويراقب طاعتها وما تريده، ويحذر من إغضابها، وقد دعا يوسف عليه السلام ربه بقوله: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [يوسف: ٣٣]؛ **أي**: أميل إليهن وألتمس رضاهن.

[٢] **أي**: فإنها تتسلط عليه زوجته إذا علمت أنه يطمع فيها وأنه يحبها، فينبغي له أن لا يظهر لها ذلك.

[٣] **أي**: إذا علمت (**أَنَّهُ لَا يَعْتَاضُ عَنْهَا بِغَيْرِهَا؛ فَإِنَّهَا حِينَئِذٍ تَحْكُمُ فِيهِ بِحُكْمِ السَّيِّدِ الْقَاهِرِ الظَّالِمِ فِي عَبْدِهِ الْمَقْهُورِ؛ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ الْخَلَاصَ مِنْهُ، بَلْ أَعْظَمُ**)؛ لأن كيد النساء عظيم.

[٤] **لأنه لما تعلق قلبه بها صار أسيراً**، وأسير البدن مُكبل بالحديد أو بالحبال، وأسير القلب مكبل بالحب وهو أشد من الحديد والحبال؛ فقد يكون الإنسان موثقاً في بدنه، ولكن قلبه حر قوي؛ لأنه متعلق بالله سبحانه وتعالى، فأسر القلب أشد من أسر البدن.

[٥] **وذلك بذكر الله وعبادته ولا يضره أسر البدن**، ولكن إذا كان قلبه هو الأسير حتى ولو كان طليق البدن، فالأعضاء تابعة للقلب، فإذا كان القلب أسيراً كانت الأعضاء مأسورة بخلاف العكس.

وَأَمَّا إِذَا كَانَ الْقَلْبُ الَّذِي هُوَ الْمَلِكُ رَقِيقاً مُسْتَعْبَداً مُتَيَّماً لِغَيْرِ اللهِ[١]، فَهَذَا هُوَ الذُّلُّ وَالْأَسْرُ الْمَحْضُ، وَالْعُبُودِيَّةُ لِمَا اسْتَعْبَدَ الْقَلْبَ. وَعُبُودِيَّةُ الْقَلْبِ وَأَسْرُهُ هِيَ الَّتِي يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ؛ فَإِنَّ الْمُسْلِمَ لَوْ أَسَرَهُ كَافِرٌ، أَوِ اسْتَرَقَّهُ فَاجِرٌ بِغَيْرِ حَقٍّ لَمْ يَضُرَّهُ ذَلِكَ إِذَا كَانَ قَائِماً بِمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنَ الْوَاجِبَاتِ[٢]، وَمَنِ اسْتُعْبِدَ بِحَقٍّ[٣] إِذَا أَدَّى حَقَّ اللهِ وَحَقَّ مَوَالِيهِ لَهُ أَجْرَانِ[٤]، وَلَوْ أُكْرِهَ

الشَّرح

[١] **أي**: إذا كان محبّاً لغير الله، فالتتيم درجة من درجات المحبة. إذا كان فإنه لا ينفعه أن يكون طليق البدن.

[٢] **أي**: إذا أُسر بدنه وأعضاؤه ولكن قلبه طليق ومتعلق بالله ﷻ؛ فإن ذلك لا يضره، بخلاف العكس، إذا كانت أعضاؤه مطلقة ولكن قلبه مأسور فهذا عبد ذليل، ولا ينفعه إطلاق أعضائه وجسمه؛ ولذلك لما سُجن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ صاحب هذه الرسالة قال: «أنا ما يصنع أعدائي بي، جنتي في صدري»؛ لأنه يذكر الله ﷻ، ويتلو القرآن، ويتأمل، ويتدبر كتاب الله، فهو مرتاح في السجن، كأنه في روضة، ويقول: «سجنهم لي خلوة بربي».

[٣] **يعني**: من أصابه الرق الشرعي في الحرب، أما الاستعباد بالغصب والنهب فهو بغير حق وهو من أشد المحرمات، قال ﷺ: (**قَالَ اللهُ: ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**)، وذكر منهم: (**وَرَجُلٌ بَاعَ حُرّاً فَأَكَلَ ثَمَنَهُ**)(١)، والدول الكافرة اليوم تنادي بالحرية وهي تسترق الشعوب.

[٤] **أجر أدائه لحق الله، وأجر أدائه لحق مواليه**، وصبره على ذلك؛ لأنه حكم الله فيه. وأما ما يقوله بعض الكُتَّاب الجهال: إنه ليس هناك رق شرعي =

(١) أخرجه البخاري (٢٢٢٧).

عَلَى التَّكَلُّمِ بِالْكُفْرِ فَتَكَلَّمَ بِهِ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ لَمْ يَضُرَّهُ ذَلِكَ[١]، وَأَمَّا مَنِ اسْتَعْبَدَ قَلْبَهُ فَصَارَ عَبْداً لِغَيْرِ اللهِ فَهَذَا يَضُرُّهُ ذَلِكَ، وَلَوْ كَانَ فِي الظَّاهِرِ مَلِكَ النَّاسِ[٢].

فَالْحُرِّيَّةُ حُرِّيَّةُ الْقَلْبِ، وَالْعُبُودِيَّةُ عُبُودِيَّةُ الْقَلْبِ[٣]، كَمَا أَنَّ

الشَّرْح

= وإنما الإسلام وجد الرق في الناس فشرع التخلص منه بالتدريج لأنه لا يستطاع منعه دفعة واحدة. فهذا كلام باطل ناشئ عن جهل، فالإسلام شرع الرق الشرعي وأجاز بيع المملوك والتسري بالأمة بملك اليمين.

[١] **لأن المدار على القلب**، فلا يجوز للإنسان أن يتكلم بالكفر وهو مختار، وإذا تكلم بكلام كفر وهو مختار؛ فإنه يرتد عن الإسلام؛ لأن ذلك من نواقض الإسلام ومن أنواع الردة. أما إذا أُكره على كلام كفر وقلبه مطمئن بالإيمان، فنطق بكلام الكفر لأجل التخلص من الإكراه فقط؛ ولم يوافق عليه في قلبه، فقد أباح الله له ذلك، قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠٧ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٠٨ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٠٩﴾ [النحل: ١٠٦ ـ ١٠٩]، فيباح للإنسان أن يتكلم بكلام الكفر إذا أُكره عليه ليتخلص به من الإكراه فقط دون أن يعتقد ذلك بقلبه، فدل على أن المدار على القلب.

[٢] **إذا استرق قلبه لغير الله**، فصار يخشى ويخاف ويرجو الناس ولا يخاف ولا يرجو الله فهذا عبد ذليل للخلق، ولو كان ملكاً من الملوك، فهو عبد مستعبد للمخلوقين؛ لأنه يرضى لهم ويغضب لهم ويطيعهم، ولو في سخط الله ﷻ.

[٣] **هذه هي القاعدة**: أن الحرية حرية القلب، والأعضاء تبع له، =

الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ وَإِنَّمَا الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ**»[١](١)، وَهَذَا لَعَمْرِي إِذَا كَانَ قَدِ اسْتَعْبَدَ قَلْبَهُ صُورَةٌ مُبَاحَةٌ فَأَمَّا مَنِ اسْتَعْبَدَ قَلْبَهُ صُورَةٌ مُحَرَّمَةٌ: امْرَأَةٌ أَوْ صَبِيّاً، فَهَذَا هُوَ الْعَذَابُ الَّذِي لَا يُدَانُ فِيهِ[٢].

وَهَؤُلَاءِ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ عَذَاباً وَأَقَلِّهِمْ ثَوَاباً[٣]، فَإِنَّ

الشَّرح

= والعبودية عبودية القلب والأعضاء تبع له، فالمدار على القلوب.

[١] **فربما** يكون كثير المال فقير النفس وربما يكون قليل المال غني النفس.

فكثير من الناس عنده الملايين والمليارات والأرصدة الضخمة، ولكنه فقير القلب لا يجد لذة بأمواله، ويريد دائماً الزيادة؛ لأن قلبه فقير، لا يقنع بشيء، أما من رُزق القناعة وغنى القلب؛ فهو غني وإن لم يكن عنده إلا القليل من المال.

[٢] **إذا تعلق قلبه بامرأة،** حتى وإن كانت زوجة له، فهذا في تعلقه بالمرأة ذليل لها وعبد لها.

[٣] **أي: الذين يعشقون الصور وهي النساء،** يكونون في عذاب دائم. والسبب في ذلك: (**إِنَّ الْعَاشِقَ لِصُورَةٍ إِذَا بَقِيَ قَلْبُهُ مُتَعَلِّقاً بِهَا، مُسْتَعْبَداً لَهَا اجْتَمَعَ لَهُ مِنْ أَنْوَاعِ الشَّرِّ وَالْفَسَادِ مَا لَا يُحْصِيهِ إِلَّا رَبُّ الْعِبَادِ**): ولذلك أمر الله بغض البصر، قال الله ﷻ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [النور: ٣٠]، فمن غض بصره فإن الله يزكي قلبه ويطهره من التعلق بهذه المعشوقات أو هذه المناظر الفاتنة، فغض البصر ينير القلب ويزكيه، وأما إطلاق البصر إلى ما حرم الله؛ فإنه =

---

(١) سبق تخريجه (ص١٢٤).

الْعَـاشِقَ لِصُـورَةٍ إِذَا بَقِيَ قَلْبُـهُ مُتَعَلَّقاً بِهَـا، مُسْتَعْبَداً لَهَـا اجْتَمَعَ لَـهُ مِـنْ أَنْـوَاعِ الشَّـرِّ وَالْفَسَـادِ مَـا لَا يُحْصِيهِ إِلَّا رَبُّ الْعِبَـادِ، وَلَوْ سَلِمَ مِنْ فِعْلِ الْفَاحِشَةِ الْكُبْرَى[١]، فَدَوَامُ تَعَلُّقِ الْقَلْبِ بِهَا بِلَا فِعْلِ الْفَاحِشَةِ

الشَّرْح

= يؤثر في القلب ويعميه، ويعلقه بما يعشق، ولا يحصل له ما عشق فيبقى في عذاب.

والعبد ما دامت له عين يقلبها — في أعين الغيد موقوف على الخطر

وقد استشرى التعلق بالصور في وقتنا من خلال الصور الفاتنة التي تعرض في الجرائد والمجلات والشاشات، وأشد من ذلك في الفضائيات والإنترنت وفي شاشات التلفزيونات وفي الندوات والحفلات وفي الاختلاط بين الرجال والنساء وهن متجملات متبرجات في هذه الأمكنة المختلطة، وكأنها أمنت الفتنة وذهبت الشهوة من الرجال والنساء مع أنها لم تذهب الشهوة ولم تؤمن الفتنة بل اشتدت ولكنها فقدت الغيرة وسرت فينا أخلاق الغرب والكفرة، وهل إذا قربت البنزين من النار يؤمن الحريق؟!

[١] **فالعاشق**، إذا تعلق قلبه بامرأة لا تحل له أو بصبي فإنه بين أمرين: إما أن يقع في الفاحشة الكبرى ـ والعياذ بالله ـ.

وإما أن يبقى قلبه معلقاً بهذه الصورة دائماً وأبداً فيظل في عذاب، وهذا أشد ممن وقع في الفاحشة؛ لأن من وقع في الفاحشة يمكن أن تنتهي رغبته ويندم ويتوب إلى الله ﷻ، لكن من تعلق قلبه بهذه الصور والمعشوقات؛ فإنه لا يستطيع أن يتوب بل يزيد ذلك في قلبه، ويؤثر فيه؛ ولهذا جاء في الحديث: «**النَّظْرَةُ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ مَسْمُومَةٌ**»(١)؛ لأنه يقع السم في قلبه من هذا السهم ولا يقع في جسمه.

(١) مستدرك الحاكم (٤/ ٣١٣).

أَشَدُّ ضَرَراً عَلَيْهِ، مِمَّنْ يَفْعَلُ ذَنْباً ثُمَّ يَتُوبُ مِنْهُ وَيَزُولُ أَثَرُهُ مِنْ قَلْبِهِ، وَهَؤُلَاءِ يُشَبَّهُونَ بِالسُّكَارَى وَالْمَجَانِينِ. كَمَا قِيلَ:

سَكْرَان سُكْرُ هَوًى وَسُكْرُ مُدَامَةٍ ... وَمَتَى إِفَاقَةُ مَنْ بِهِ سُكْرَانِ[١]

وَقِيلَ:

قَالُوا جُنِنْتَ بِمَنْ تَهْوَى فَقُلْتُ لَهُمْ ... الْعِشْقُ أَعْظَمُ مِمَّا بِالْمَجَانِينِ

الْعِشْقُ لَا يَسْتَفِيقُ الدَّهْرَ صَاحِبُهُ ... وَإِنَّمَا يُصْرَعُ الْمَجْنُونُ فِي الْحِينِ[٢]

وَمِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ هَذَا الْبَلَاءِ إِعْرَاضُ الْقَلْبِ عَنِ اللهِ، فَإِنَّ الْقَلْبَ إِذَا ذَاقَ طَعْمَ عِبَادَةِ اللهِ وَالْإِخْلَاصِ لَهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ شَيْءٌ قَطُّ أَحْلَى مِنْ ذَلِكَ، وَلَا أَلَذَّ وَلَا أَطْيَبَ، وَالْإِنْسَانُ لَا يَتْرُكُ مَحْبُوباً إِلَّا بِمَحْبُوبٍ آخَرَ يَكُونُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْهُ أَوْ خَوْفاً مِنْ مَكْرُوهٍ، فَالْحُبُّ

الشَّرْح

[١] السكر على قسمين:

سكر الهوى، وهذا لا يفيق صاحبه.

وسكر المدامة وهي الخمر، وهذا يمكن أن يصحو منه.

ومن اجتمع فيه هذان السكران ـ سكر الهوى، وسكر الخمر ـ فإنه يصعب أن يتخلص منهما.

[٢] العشق أشد من الجنون؛ لأن العاشق لا يفيق الدهر كله، بل قلبه متعلق بمعشوقه، أما المجنون فإنه يصرع في بعض الأحيان ويفيق، ولكن العاشق لا يستفيق أبداً، فسكره مستمر، نسأل الله العافية، فهل يتنبه لهذا الخطر من يدعون إلى السفور والاختلاط والخلوة بين الرجل والمرأة بحجة أنها زميلة أو سكرتيرة له أو غير ذلك.

الْفَاسِدُ إِنَّمَا يَنْصَرِفُ الْقَلْبُ عَنْهُ بِالْحُبِّ الصَّالِحِ[١]، أَوْ بِالْخَوْفِ مِنَ الضَّرَرِ، قَالَ تَعَالَى فِي حَقِّ يُوسُفَ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ

الشَّرْح

[١] لا علاج لهذا العشق والغرام واتباع الهوى إلا بالرجوع إلى الله ﷻ، وتعليق القلب بالله ﷻ، وحينئذٍ يشفيه الله - جلّ وعلا - ويزيل عنه هذا البلاء إذا رجع وتاب إلى الله ﷻ.

فالذي يريد أن يعالج ما أصابه من العشق والهوى اللذين هما أخطر شيء عليه في حياته وأخلاقه؛ لا يُعالج هذا إلا بالتوبة والرجوع إلى الله وغض البصر، والابتعاد عن مواطن الشر والفتنة وعدم النظر في الشاشات الهابطة، والامتناع عن الذهاب إلى معارض وأسواق النساء ومتابعتهن، فالإنسان يبتعد عن مواطن الفتنة وبذلك ينجو بإذن الله. فلا تسلم من الشر إلا إذا تجنبت أسبابه.

ومن أعظم أسباب الفتنة اليوم: اختلاط النساء بالرجال في المكاتب، والمستشفيات، والمدارس، ومواطن الأعمال، والبيع والشراء والحفلات والندوات واللقاءات، وهذا من أعظم أسباب الفتنة. فمن أعظم أسباب الفتنة: اختلاط الرجال والنساء المتبرجات المتزينات بأنواع الزينة! فالفتنة شديدة؛ ولذلك تشتد غربة الدين في آخر الزمان ويكون القابض على دينه كالقابض على الجمر، فهذه فتن عظيمة نسأل الله العافية منها، وقد تلاحق الإنسان وهو في بيته وعلى فراشه بواسطة الفضائيات والشاشات والجوالات التي تعرض الجرائم والشرور على الناس، وتدخل عليهم في بيوتهم. فالفتنة شديدة، وغربة الدين شديدة، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ولذلك ضاع كثير من شباب الأمة بل ورجال الأمة ونساؤها، فأين ذهبت الغيرة يا مسلمون؟ كيف ترضون لمحارمكم الدخول في هذه الأخطار الأخلاقية لأجل الدراسة أو الوظيفة، لا بارك الله بعد العِرض بالمال يقول أبو تمام:

فلا واللّه ما في العيش خير ... ولا الدنيا إذا ذهب الحياء

﴿وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: ٢٤][١].

فَاللهُ يَصْرِفُ عَنْ عَبْدِهِ مَا يَسُوؤُهُ[٢]........................

الشَّرح

[١] **فيوسف عليه السلام لما راودته امرأة العزيز عن نفسه،** قال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يوسف: ٢٣]، وقد هرب منها يريد الخروج من المكان فلحقته، وجذبته في ثوبه حتى شقت قميصه من شدة الجذب منها وشدة الهرب منه، ووقع الشق في دبر الثوب لأنه مُعْرِض عنها، ولما وجدا زوجها عند الباب قلبت الدعوى عليه، وقالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [يوسف: ٢٥]، فانظر إلى كيد النساء، ولكن الله خلَّص نبيَّه منها ومن شرها بسبب إخلاصه لله عز وجل، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: ٢٤]، وفي النهاية قالت: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ [يوسف: ٥١]، ثم اعترفت فقالت: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [يوسف: ٥٣]، وفي الأول كانت قد قالت للنساء لما رأين يوسف ومظهره الكريم العفيف: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [يوسف: ٣٢]، فقد اعترفت ببراءته وسوء تصرفها معه مرتين.

ففتنة النساء فتنة عظيمة وأليمة، واختلاط الرجال مع النساء تحصل بسببه فتن عظيمة. لا سيما في هذا الزمان الذي تمردت فيه النساء على الآداب الشرعية لما ترك لهن الحبل على الغارب؛ بل شجعن على التمرد ونزع الحجاب وعلى الاختلاط بالرجال وكسرت الحواجز بينهن وبين الرجال، وشجعهن العلمانيون والمستغربون.

[٢] **كما خلص الله نبيَّه يوسف عليه السلام** من كيد المرأة ومن كيد النساء بسبب إخلاصه لله عز وجل، وإيمانه بالله، فقد رغَّبته في أول الأمر، استعملت =

الشَّرْح

= المرغبات وتزينت له ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ﴾ [يوسف: ٢٣]، ولم تؤثر فيه هذه الأشياء لورعه وتقواه ولما امتنع استخدمت الترهيب فقالت: ﴿وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ٣٢﴾ [يوسف: ٣٢]، فقال يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾ [يوسف: ٣٣]، فصبر على السجن عليه السلام ابتعاداً عن المرأة وفتنتها.

فإذا كان يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ـ عليهم الصلاة والسلام ـ جرى عليه من الابتلاء والامتحان ما قصَّه الله تبارك وتعالى في سورة كاملة فابتلي بأخذه من أبيه، وفراقه لأبيه وهو طفل صغير، وبإلقائه في الجب وهو البئر، يريدون التخلص منه، ثم بعد إخراجه من الجب بِيعَ وصار رقيقاً خادماً عند ملك مصر، فلما بلغ أشده واستوى وكان جميلاً بهيّاً؛ لما ألقى الله عليه الجمال الذي خصه به، فامرأة العزيز ـ والنساء عادة تبتلى بالعشق والتعلق بالرجال ـ بحكم أن يوسف عندها في بيتها أرادت منه الفاحشة، فانتقل من ابتلاء الجسم إلى الابتلاء بالنعمة وهو أشد، فامرأة العزيز حاولت معه، وهي امرأة ملك وعندها من الرفاهية والجمال ما ليس عند غيرها، فتصنعت وغلقت الأبواب، وطلبت منه مواقعتها ولكنه أبى، واستعاذ بالله، وألحت عليه تطلب منه ما تريد ولكنه أبى وصمم وقال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾ [يوسف: ٢٣].

فلما رأى منها الإلحاح وخاف منها هرب يريد الخروج من الباب، فلحقت به، وجرت قميصه، تريد إمساكه عن الخروج، فصادف عند الباب قدوم زوجها، فلما رأت زوجها قلبت الدعوى عليه عليه السلام، وكذبت عليه، وادعت أنه هو الذي يراوده عن نفسها، وقالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٥﴾ [يوسف: ٢٥]، فقد ألقت التهمة والدعوى عليه، وهذا من مكر وكيد النساء. =

الشَّـرْح

= ولكن الله بيّن الحق وبيّن كذبها بعلامة في قميصه، وهو أنه لما هرب أمسكت قميصه فانشق بيدها من خلفه، ثم ألقت التهمة عليه ﴿...قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ [يوسف: ٢٥، ٢٦] يريد أن يكذبها، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ﴾؛ **أي**: أمر بالنظر في القرينة إن كان الشق من الأمام فهي صادقة؛ لأنه أقبل يريدها فدفعته حتى انشق ثوبه، ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يوسف: ٢٧]؛ **أي**: إن كان الشق من الخلف فهي كاذبة وهو الصادق؛ لأنها جذبته وهو مدبر عنها وهارب منها، ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [يوسف: ٢٨]، فأكذبها الله ﷻ، وبيَّن صدق يوسف عليه الصلاة والسلام، والسبب في ذلك إخلاصه لله ﷻ، فهو الذي فرَّج عنه عند الشدة وخلصه من هذه التهمة، وعند ذلك قالوا له: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ وقالوا لها: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يوسف: ٢٩].

والشاهد: أن الله قال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: ٢٤]، فالله ـ جلّ وعلا ـ خلصه ونجاه وصرف عنه السوء والفحشاء فصرف عنه الأمرين ثم علل ﷻ ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ وكلمة ﴿عِبَادِنَا﴾ هنا تعني: العبودية الخاصة، ثناء عليه، وإلا فإن كل الناس من عباد الله العبودية العامة، ولكن هذه كلمة ثناء عليه، ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ فبسبب عبوديته الخاصة وإخلاصه لله ﷻ؛ نجاه الله من هذه المحنة.

فدل على أن من أخلص لله ﷻ فإن الله ينجيه، فهذا تعليل عام، فكل من أخلص لله ﷻ وعبد الله حق عبادته فإن الله يخلصه من الشدائد، كما قال =

مِنَ الْمَيْلِ إِلَى الصُّوَرِ وَالتَّعَلُّقِ بِهَا، وَيَصْرِفُ عَنْهُ الْفَحْشَاءَ بِإِخْلَاصِهِ للهِ. وَلِهَذَا يَكُونُ قَبْلَ أَنْ يَذُوقَ حَلَاوَةَ الْعُبُودِيَّةِ للهِ وَالْإِخْلَاصِ لَهُ تَغْلِبُهُ نَفْسُهُ عَلَى اتِّبَاعِ هَوَاهَا[١]؛ فَإِذَا ذَاقَ طَعْمَ الْإِخْلَاصِ وَقَوِيَ فِي قَلْبِهِ انْقَهَرَ لَهُ هَوَاهُ بِلَا عِلَاجٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾[٢] [العنكبوت: ٤٥]، ....

الشَّرْح

= النبي ﷺ: «تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ»(١)، كما أن في هذه القصة العظيمة التحذير من الاختلاط بين الرجال والنساء، والتحذير من الخلوة بالمرأة؛ لأن ذلك سبب للفتنة، وهذا ما نعاني منه اليوم مع دعاة الاختلاط، والخلوة كما أن في هذه القصة التحذير من تبرج النساء أمام الرجال.

[١] **أي**: يحصل عنده قبل ذلك ميل إلى الفتن، ولكنه إذا ذاق حلاوة الإيمان والإخلاص لله؛ فإنه يستقر قلبه مع الله ﷻ، فلا يلتفت إلى فتنة أو إلى مناظر سوء، أو إلى لذة عاجلة، وشهوة حاضرة، وإنما ينظر إلى المستقبل والعواقب.

[٢] **قال الله لنبيه** ﷺ وهذا أمر لجميع الأمة: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، ثم بيّن فائدة الصلاة فقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت: ٤٥]؛ لأن المقصود من تلاوة الكتاب ليس الترنم باللفظ والتغني بالقرآن وتحسين الصوت والترتيل، فهذه وسيلة، وأما الغاية فهي العبادة ولهذا قال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ﴾ والصلاة أعظم أنواع العبادة؛ لأنها تمتاز عن غيرها من العبادات بهاتين الميزتين:

- **الأولى: كونها تنهى عن الفحشاء والمنكر**: فالصلاة تنهى عن =

---

(١) مستدرك الحاكم (٣/ ٥٤١).

الشَّرْح

= الفحشاء؛ لأن الذي يلازم الصلاة وطاعة الله ومناجاة الله ـ جلّ وعلا ـ فإن صلاته تبعده عن الوقوع في الفحشاء وهي المعصية القبيحة والمنكر عموماً، فتجد المصلين يمتازون على غيرهم بالاستقامة والمحافظة على الدين؛ لأن الصلاة تورث في قلوبهم خشية الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ومحبته، وأما من أضاع الصلاة فإنه يضيع، وتضييع نفسه، ويكون مع هواه، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهذه فائدة عظيمة، ولهذا أوجبها الله خمس مرات في اليوم والليلة.

● **والفائدة الثانية في الصلاة ذكر الله**: لأنها تشتمل على الذكر بالقول وبالفعل؛ فالصلاة كلها ذكر لله عَزَّ وَجَلَّ، والذكر يُحيي القلب وينيره؛ فالعبد الذي يحافظ على هذه الصلوات الخمس مع الجماعة يجد هذه الفوائد العظيمة، أما من يضيع الصلاة فإنه يفقد هذه المزايا؛ ولهذا قال ـ جلّ وعلا ـ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۝٥٩﴾ [مريم: ٥٩]، فالذي يضيع الصلاة يتبع شهوات نفسه، ويتبع هواه، أما الذي يحافظ على الصلاة فإنها تحجبه عن الشهوات المحرمة، وعن الهوى، ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾؛ **أي**: أكبر من النهي عن الفحشاء فذكر الله أكبر من كل شيء؛ فالصلاة فيها الذكر لله عَزَّ وَجَلَّ، والذكر يُحيي القلب وينيره، ويحببه إلى ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فدل على أن الصلاة تكون مربية للعبد على الخير، ومانعة له من الشر، ومانعة له من الفحشاء والمنكر ومربية له على ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، والرغبة إليه والإقبال على الله ـ جلّ وعلا ـ.

كما أن الصلاة أيضاً فيها إعانة على المشاق والمكاره في الدنيا، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٣﴾ [البقرة: ١٥٣]، فهذه الصلاة عبادة عظيمة، ومن رحمته تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أنه شرعها لعباده المؤمنين، أوجبها عليهم لمصلحتهم وفائدتهم، أما من لا يجد للصلاة لذة ولا يجد فيها راحة، فهذا دليل على أنه لم يُصلِّ الصلاة المطلوبة، فلم =

فَإِنَّ الصَّلَاةَ فِيهَا دَفْعٌ لِلْمَكْرُوهِ وَهُوَ الْفَحْشَاءُ وَالْمُنْكَرُ، وَفِيهَا تَحْصِيلُ الْمَحْبُوبِ وَهُوَ ذِكْرُ اللهِ[١]، وَحُصُولُ هَذَا الْمَحْبُوبِ أَكْبَرُ مِنْ دَفْعِ الْمَكْرُوهِ[٢]، فَإِنَّ ذِكْرَ اللهِ عِبَادَةٌ للهِ، وَعِبَادَةُ الْقَلْبِ للهِ مَقْصُودَةٌ لِذَاتِهَا؛ وَأَمَّا انْدِفَاعُ الشَّرِّ عَنْهُ فَهُوَ مَقْصُودٌ لِغَيْرِهِ عَلَى سَبِيلِ التَّبَعِ[٣].

وَالْقَلْبُ خُلِقَ يُحِبُّ الْحَقَّ وَيُرِيدُهُ وَيَطْلُبُهُ[٤]، فَلَمَّا عَرَضَتْ

الشَّرْح

= يذق طعمها، ولم يتلذذ بفائدتها، وإنما يعتبرها من العادات والتقاليد كما يقولون؛ لأنهم لم يذوقوا طعمها وفائدتها. ولهذا قال ﷻ: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝٤٥﴾ [البقرة: ٤٥].

[١] **أي**: ذكر الله بالقول والعمل واللسان والقلب.

[٢] **ذكر الله الذي في الصلاة أكبر من النهي عن الفحشاء والمنكر**، وأعلى درجة، وكلاهما عظيم، لكن الأعمال تتفاوت.

[٣] **فترك المحرمات والمعاصي والمنكرات هذه وسيلة للغاية**، والغاية هي عبادة الله وحده لا شريك له.

[٤] **الأصل أن القلب مفطور على محبة الله وعبادته**، هذا هو الأصل، وإنما يكون الانحراف لسبب عارض:

إما التربية السيئة، كما قال ﷺ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**»(١): فالتربية السيئة تفسد الفطرة.

وإما أن يتبع الشهوات والرغبات النفسية، فذلك بسبب التربية السيئة، فتنحرف به عن الفطرة التي فُطر عليها. فلذلك يجب عليه تجنب الفتن الشهوانية والفتن الشبهاتية وتجنيب الأطفال منها لأنها تفسد الفطرة عندهم، وتفسد القلب. =

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٥).

لَـهُ إِرَادَةُ الشَّـرِّ طَلَبَ دَفْـعَ ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ يُفْسِـدُ الْقَلْبَ كَمَا يَفْسُـدُ الزَّرْعُ بِمَا يَنْبُتُ فِيهِ مِـنَ الدَّغَلِ، وَلِهَـذَا قَالَ تَعَـالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٩، ١٠][١]، وَقَـالَ تَعَـالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ

الشَّرْح

فالموفق من يدفع هذه العوارض التي قد تعرض امتحاناً وابتلاء، ولكن الموفق يدفعها بالعبادة وطاعة الله ﷻ.

[١] قال تعالى في سورة (الشمس): ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾ [الشمس: ١ ـ ٧]، فأقسم بالنفس من جملة ما أقسم به من مخلوقاته؛ لأن النفس فيها عجائب من خلق الله ﷻ، قوله ﷻ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشمس: ٨]، فألهمها الله ﷻ ذلك، إما أن تكون فاجرة متبعة للمعاصي والشهوات، وهذا هو الغالب على نفوس البشر، أو تكون تقية زكية، تبتعد عن هذه العوارض وتتعلق بربها ﷻ، ثم قال ـ جلّ وعلا ـ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾؛ **أي**: من زكى نفسه؛ **يعني**: طهرها وكملها ورفعها بطاعة الله ﷻ، ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾؛ **أي**: دسها بالمعاصي والذنوب، ودنسها ودسها في التراب بدل أن يرفعها بالعبادة، فالإنسان هو الذي يضع نفسه: إما في موضع الردى، وإما في موضع الهدى، والإنسان حيث وضع نفسه، قال الشاعر:

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه فكن طالباً في الناس أعلى المراتب

والله أسند إليه توجيهها فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ فهو الذي يزكيها، ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ هو الذي يدسيها بأفعاله وتصرفاته.

وتزكية النفس على قسمين:

تزكية مأمور بها، مطلوبة وهي تزكيتها بالطاعة والعبادة. ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾.

مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥]، وَقَالَ تعالى: ﴿قُل[١] لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٣٠][٢]، وَقَالَ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ

الشَّرْح

= **وتزكية مذمومة** وهي مدح النفس والإعجاب بها، قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم: ٣٢]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ [النساء: ٤٩].

[١] وقوله تعالى: ﴿قُل﴾ أيها الرسول، ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ **أي**: يبلغهم عن الله ـ جلّ وعلا ـ أن ﴿يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾؛ **أي**: يغضوا أبصارهم عن المحرمات، فلا يتبع الإنسان نظره المحرمات؛ لأن ذلك يجر عليه الوبال، وقال تعالى: ﴿يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ ولم يقل: (يغضوا أَبْصَارهم)؛ لأنه ليس مطلوباً من المؤمن أن يغمض عينيه، بل المطلوب أن ينظر ببصره إلى ما يحتاج النظر إليه، إلى طريقه وإلى الحوائج التي يريدها من المباحات، وإنما يغض بصره عن المحرمات فقط.

[٢] ثم قال: ﴿وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾؛ لأن غض البصر وسيلة لحفظ الفرج، وعدم غض البصر وسيلة للوقوع في الفواحش، فالنظر المحرم بريد إلى المعصية، وسهم مسموم كما وصفه النبي ﷺ: «**سهم من سهام إبليس مسمومة**»(١)، ولا بد للسهم الذي يطلق من الرمية من إصابة وسهم النظر يصيب القلب، ويجلب له الشهوة، فعلى المسلم أن يغض بصره عما حرم الله من المناظر المحرمة من النساء، والمردان، والصور الفاتنة، وفي وقتنا يكف النظر إلى الفضائيات وما فيها من الفتن من عرض النساء متبرجات سافرات، وأصحابها لا يختارون إلا أجمل النساء لأجل فتنة من ينظر إليهن، فالمسلم =

(١) سبق تخريجه (ص١٤٣).

أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١][١]، فَجَعَلَ سُبْحَانَهُ غَضَّ الْبَصَرِ وَحِفْظَ الْفَرْجِ هُوَ أَزْكَى لِلنَّفْسِ، وَبَيَّنَ أَنَّ تَرْكَ الْفَوَاحِشِ مِنْ زَكَاةِ النُّفُوسِ[٢]،

الشَّرْح

= يغض بصره ولا ينظر إلى هذه المناظر، وإلا فإنه سيقع إما على المدى القريب أو البعيد فيما حرم الله ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ﴾؛ **أي**: أطهر لهم، ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [النور: ٣٠]، فهو: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر: ١٩] وليس هذا خاصّاً بالرجال بل والنساء أيضاً، ولهذا قال: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣١]، وسبب حفظ الفرج: غض البصر، والحجاب للمرأة، ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] إلى آخر الآية، فالمرأة تغض بصرها عن الرجال ومتابعتهم، وتحتجب عنهم، وتستر نفسها عن الرجال الذين ليسوا من محارمها، فهذه كلها وسائل لحفظ الفروج.

[١] قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١]، لما تكلم من تكلم فيما أشاعه المنافقون حول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها من الإفك والكذب يريدون أن يكيدوا للرسول ﷺ، ويضيقوا صدره ﷺ، وتكلم معهم بعض المؤمنين الغافلين الذين استمعوا إلى المنافقين، وانطلى عليهم هذا الإفك - والعياذ بالله - بيَّن سبحانه وتعالى أنه المتفضل بحفظ المؤمنين من الوقوع في المواقف القذرة التي يدعو إليها المنافقون وأصحاب الخلاعة والمجون فالمؤمن كما يصون بصره عن الحرام يصون سمعه عن استماع الكلام المحرم.

فالعبد يبتعد عن إطلاق البصر إلى ما حرم الله، وعن سماع الكلام المحرم، والله - جلّ وعلا - يزكيه بذلك، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾، فالعبد يزكي نفسه بفعل الأسباب، والله يزكيه بمنعه وحفظه من الوقوع فيما لا يجوز.

[٢] **تركها من قبل العبد يزكي نفسه**، ثم الله - جلّ وعلا - يوفقه ويزكيه ويمنعه ويطهره من هذه الأمور. =

وَزَكَـاةُ النُّفُوسِ تَتَضَمَّنُ زَوَالَ جَمِيعِ الشُّرُورِ مِنَ الْفَوَاحِشِ وَالظُّلْمِ وَالشِّرْكِ وَالْكَذِبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَكَذَلِكَ طَالِبُ الرِّئَاسَةِ[١] وَالْعُلُوِّ فِي الْأَرْضِ قَلْبُهُ رَقِيقٌ لِمَنْ يُعِينُهُ عَلَيْهَا[٢]، وَلَوْ كَانَ فِي الظَّاهِرِ مُقَدَّمَهُمْ[٣] وَالْمُطَاعَ فِيهِمْ، فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ يَرْجُوهُمْ وَيَخَافُهُمْ فَيَبْذُلُ لَهُمُ الْأَمْوَالَ وَالْوِلَايَاتِ[٤]،

الشَّرْح

= إنما تُزكى النفوس بالطاعة، وترك المعصية، فتزكية النفوس: تكون بطاعة الله وتوحيده وعبادته وفعل ما يرضاه، وترك ما نهى الله عنه من الشـرك، وسائر المعاصي، والكبائر والصغائر.

[١] **عاد الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ إلى سياق كلامه الأول بأن الإنسان يكون رقيقاً لرغبته**، وهواه؛ ولذلك يخضع ويذل لمطامعه، وإن كانت تضره، ويخضع أيضاً لمن يعينه على مطامعه ويكون رقيقاً له حتى ولو كان ملكاً أو رئيساً، فإنه يخضع لخدمه وأعوانه الذين يعينونه على ما يريد، فهو وإن كان في الظاهر سيداً لهم، ولكنه رقيق لهم، يلتمس رضاهم، ولا يريد أن يبتعدوا عنه؛ لأنه يستخدمهم لأغراضه وأهوائه، وهم يتسلطون عليه ويتهددونه بهجره وتركه والبعد عنه إن لم يحقق لهم رغباتهم.

(وَكَذَلِكَ طَالِبُ الرِّئَاسَةِ)؛ **أي**: وطالب رئاسة يريد أن يحصل على الرئاسة بأي ثمن.

[٢] **أي**: على الحصول على الرئاسة والعلو في الأرض، يريد ذلك بأي وسيلة، ولو أدى ذلك إلى أن يذل ويخضع للناس، وللخدم، ولرجاله ولحاشيته. ولرعيته وشعبه كمن يستأجرون من يصوت لهم في الانتخابات اليوم.

[٣] **فهو في الظاهر رئيسهم وملكهم**، ولكنه في الباطن رقيق لهم مأسور لهم، يراعيهم ويرغبهم في خدمته.

[٤] **يبذل لهم الأموال**، ويعطيهم الرواتب الضخمة والأعطيات ويوليهم =

وَيَعْفُو عَنْهُمْ لِيُطِيعُوهُ، وَيُعِينُوهُ[١]، فَهُوَ فِي الظَّاهِرِ رَئِيسٌ مُطَاعٌ، وَفِي الْحَقِيقَةِ عَبْدٌ مُطِيعٌ لَهُمْ[٢]، وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ كِلَاهُمَا فِيهِ عُبُودِيَّةٌ لِلْآخَرِ[٣]، وَكِلَاهُمَا تَارِكٌ لِحَقِيقَةِ عِبَادَةِ اللهِ[٤]، وَإِذَا كَانَ تَعَاوُنُهُمَا

الشَّرْح

= الوظائف الكبيرة من أجل أن يحققوا له رغباته ومطامعه؛ كمن يشترون الأصوات في الانتخابات.

[١] **أي**: قد يخطؤون فيعفو عن ذلك من أجل أن يتألفهم لخدمته، وتحقيق رغباته، فيصبر على ما يكره منهم من أجل هذا، ولا يقيم الحق عليهم إذا وجب عليهم حق لله أو لخلقه.

[٢] **لأنه لو لم يطعهم فيما يريدون لنفروا منه**، وهو لا يستطيع أن يحقق مطامعه إلا بهم.

[٣] **فالحاشية فيها عبودية لرئيسها**؛ لأنه يحقق لهم مطامعهم ووظائفهم، ومعطياتهم، والرئيس رقيق للحاشية؛ لأنها تحقق له الرئاسة والعلو في الأرض، فكل طرف رقيق للآخر؛ ولهذا يقول الشاعر:

الناس للناس من بدو وحاضرة — بعض لبعض وإن لم يشعروا خدمُ

فالملك يخدم الحاشية، والحاشية تخدمه.

[٤] **فينقص من عبادته لله بقدر ما يذل لغيره**، وقد يترك عبادة الله من أجلهم، أما المؤمن فيُعلق قلبه بالله، ومن علق قلبه بالله كفاه الله كل شيء، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾ [الطلاق: ٣]؛ فالمؤمن يعلق قلبه بالله ﷻ، ولا يعص الله من أجل أن يطيعه الناس؛ ولهذا ورد في الحديث: «**مَنِ الْتَمَسَ رِضَى اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ، رَضِيَ اللهِ عَنْهُ وَأَرْضَى النَّاسَ عَنْهُ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ، سَخَطَ اللهِ عَلَيْهِ، وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ**»(١)؛ فالمؤمن الحق يعلق قلبه بالله ﷻ، =

(١) صحيح ابن حبان (١/ ٥١٠).

عَلَى الْعُلُوِّ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ كَانَا بِمَنْزِلَةِ الْمُتَعَاوِنَيْنِ عَلَى الْفَاحِشَةِ[١] أَوْ قَطْعِ الطَّرِيقِ، فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الشَّخْصَيْنِ لِهَوَاهُ الَّذِي اسْتَعْبَدَهُ وَاسْتَرَقَّهُ يَسْتَعْبِدُهُ الْآخَرُ. وَهَكَذَا أَيْضاً طَالِبُ الْمَالِ فَإِنَّ ذَلِكَ يَسْتَعْبِدُهُ وَيَسْتَرِقُّهُ[٢].

الشَّرْح

= ولا يذل لغير الله، ولا يطمع إلا فيما عند الله ﷻ؛ لأن الله بيده الملك، وبيده كل شيء، فعلى المؤمن أن يعلق قلبه بالله ـ جلّ وعلا ـ وسيذل له الناس والمخلوقات بأمر الله ﷻ، ولا تأخذه في الله لومة لائم.

وليس معنى ذلك: أن الإنسان لا يذل للناس ولا يخضع للناس وأنه يستغني عن الناس نهائيّاً، بل هو محتاج إلى الناس فيتعاون معهم، ولكن لا يذل لهم ولا يخضع لهم، وإنما يذل ويخضع لله ويستعين بالناس فيما يقدرون عليه وفيما لا يغضب الله أو يكون فيه ظلم للآخرين.

[١] **إذا كان التعاون بين الراعي والرعية لأجل** العلو في الأرض ولم يُفعل فيه شيء من المحرمات أو يُترك فيه شيء من الواجبات فهو تعاون على الإثم والعدوان.

[٢] **إذا تعلق قلبه بالمال وحب المال،** فإن همه في تحصيل المال بأي وسيلة، من حلال أو من حرام، بالسرقة وبالقمار والميسر وبالرشوة وببيع المخدرات وبأي وسيلة؛ لأنه يحب المال، فهو عبد للمال ـ والعياذ بالله ـ ولذلك يطلب المال بما يسخط الله وبأي وسيلة، أما المؤمن فهو وإن كان يحب المال كما قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾ [الفجر: ٢٠]، ولكنه لا يقدم محبة المال على محبة الله ﷻ، فإذا تعارضت محبة المال مع محبة الله فإنه يقدم محبة الله؛ ولذلك يترك المحرمات، ويترك الربا، ويترك الخديعة والكذب، ويترك الميسر والقمار، ويترك المكاسب المحرمة، فلا يحمله حب المال على هذه الأمور وإنما يقتنع بالمكاسب المباحة الطيبة ولو كانت قليلة، =

وَهَذِهِ الْأُمُورُ نَوْعَانِ[١]:

(مِنْهَا): مَا يَحْتَاجُ الْعَبْدُ إِلَيْهِ كَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ طَعَامِهِ[٢]

الشَّرْح

= فإن الله يبارك فيها، أما المكاسب المحرمة وإن كانت كثيرة؛ إلا أنها منزوعة البركة، قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

فقد يجمع الإنسان الأموال الطائلة ولا ينتفع منها لا في دينه ولا في دنياه ولا في آخرته، وإنما يتعب في جمعها فقط ويتركها لغيره، فليس المهم أن يجمع الإنسان الأموال، بل المهم كيفية جمع الأموال، ومن أي طريق، فالذي يقنع بما أحل الله يبارك الله له، وينمي ماله، ويغني قلبه ويسعد بماله، وينفق في سبيل الله، وأما العكس فإنه إنما يكون مجرد آلة تجمع الأشياء ولا تنتفع بها.

[١] **أي: الأموال على قسمين:**

• **الأول**: قسم يحتاجه العبد، فهذا لا لوم عليه إذا سعى في طلبه وتحصيله من الحلال، بل هو مأجور على هذا. وقد قال النبي ﷺ: «**وَلَا تُلَامُ عَلَى كَفَافٍ**»(١).

• **الثاني**: فضول المال الزائدة عن الحاجة، لا ينبغي للعبد أن يتعلق بها بحيث إذا حصلت له رضي، وإن لم يحصل له سخط.

[٢] وهذا معنى قوله: **(مِنْهَا: مَا يَحْتَاجُ الْعَبْدُ إِلَيْهِ كَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ طَعَامِهِ)** فليس معنى مذمة حب المال أن يترك المال، ويقتصر على العبادة، بل إن طلب الرزق الحلال من العبادة، يؤجر عليه، فهو يطلب ما يستعين به على حياته وعبادة الله ولكن من الكسب الحلال الطيب، قال ﷺ: «**نِعْماً بِالْمَالِ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ**»(٢): والجهاد بالمال مقدم على الجهاد بالنفس في كتاب الله، وفي سُنَّة رسول الله ﷺ؛ لأن الجهاد بالمال يتعدى نفعه. =

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٣٦).
(٢) أخرجه الإمام أحمد (١٧٧٦٣).

وَشَرَابِهِ وَمَسْكَنِهِ وَمَنْكَحِهِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ. فَهَذَا يَطْلُبُهُ مِنَ اللهِ وَيَرْغَبُ إِلَيْهِ فِيهِ[١]، فَيَكُونُ الْمَالُ عِنْدَهُ يَسْتَعْمِلُهُ فِي حَاجَتِهِ بِمَنْزِلَةِ حِمَارِهِ الَّذِي يَرْكَبُهُ[٢]، وَبِسَاطِهِ الَّذِي يَجْلِسُ عَلَيْهِ؛ بَلْ بِمَنْزِلَةِ الْكَنِيفِ الَّذِي يَقْضِي فِيهِ حَاجَتَهُ[٣] مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْتَعْبِدَهُ[٤]، فَيَكُونُ هَلُوعاً؛ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً؛ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً.

الشَّرْح

= فالمال مطلوب ولكن له طرق شرعها الله ﷻ لكسبه وإنفاقه، غير أن كثيراً من الناس لا يقنع بهذه الطرق، ولا ترضيه، فهذا هو عبد المال، أما الذي يقنع بالطرق المباحة ويأخذ المال للاستعانة به على عبادة الله ﷻ فهذا عبد لله، والفرق بين هذا وذاك بيِّنٌ.

[١] **الإنسان بحاجة إلى طعام**، وإلى شراب، وهذا لا يصل إليه إلا بالمال، وكذا بحاجة إلى الزواج، ولا يتزوج إلا بمال؛ لذا يطلبه من الله، ويبذل السبب لطلب الرزق مع الدعاء والتعلق بالله ﷷ.

[٢] **أي**: يكون المال خادماً لك، ووسيلة تستعملها مثل المركوب الذي تركبه، مثل الفراش التي يُجلس ويُنام عليه، فهو بحاجة إلى هذه الأمور؛ لأن الإنسان بحاجة إلى ما يؤمِّن له حياته من المال الحلال، وقد جعل الله ـ جلّ وعلا ـ في الحلال غنية عن الحرام.

[٣] **أي**: لا يعلق قلبه بالمال بل يعتبره لحاجته مثل الكنيف: وهو محل قضاء الحاجة، فالإنسان بحاجة إلى هذه الأمور، بحاجة إلى أن يبني كنيفاً، ودورة مياه ليقضي فيها حاجته، بحاجة إلى أن يبني غرفة يجلس فيها وينام فيها، كل هذا من حوائجه.

[٤] **أي**: من غير أن يستعبده المال، فيطلبه من أي وسيلة وينسى رضا الله ﷻ، فيكون هلوعاً، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢١]، ثم قال =

و(مِنْهَا)[١]: مَا لَا يَحْتَاجُ الْعَبْدُ إِلَيْهِ، فَهَذِهِ لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُعَلِّقَ قَلْبَهُ بِهَا؛ فَإِذَا تَعَلَّقَ قَلْبُهُ بِهَا صَارَ مُسْتَعْبَداً لَهَا؛ وَرُبَّمَا صَارَ مُعْتَمِداً عَلَى غَيْرِ اللهِ فَلَا يَبْقَى مَعَهُ حَقِيقَةُ الْعِبَادَةِ للهِ، وَلَا حَقِيقَةُ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ[٢]؛ بَلْ فِيهِ شُعْبَةٌ مِنَ الْعِبَادَةِ لِغَيْرِ اللهِ، وَشُعْبَةٌ مِنَ التَّوَكُّلِ عَلَى

الشَّرح

= ـ جلّ وعلا ـ: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ [المعارج: ٢٢]؛ فالمصلون كما قال الله ـ جلّ وعلا ـ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]؛ فالصلاة تنهى عن الهلع، وطلب المال من غير حلِّه، ومن غير وجهه، فهي تنهى عن الفحشاء والمنكر، وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾؛ **أي**: إذا حصل على الخير وهو المال والغنى منع ما أوجب الله عليه من الزكاة، ومن الحقوق، ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾﴾؛ **أي**: إذا مسه الشر وهو الفقر والحاجة فإنه يجزع ويسخط، ولا يقول: هذا من عند الله ومن قضاء الله وقدره ويرضى؛ لأنه يعبد المال.

[١] أمور الدنيا تنقسم إلى قسمين:

• **القسم الأول**: ما يحتاجه العبد من هذه الدنيا، من المال والزوجة والأولاد، فهذا لا لوم عليه إذا طلبه من وجهه، ومن حِله، بل هو مأمور بذلك.

• **القسم الثاني**: ما يزيد عن حاجته، فهذا يطلبه من حله ولكن لا يعلق قلبه به، فيكون عبداً له، كمن قال فيه الرسول ﷺ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ؛ تَعِسَ عَبْدُ الْقَطِيفَةِ؛ تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ**»، لأنه ليس بحاجة إليه فلا يعلق قلبه به، بل إن جاء فالحمد لله وهو عون على الخير، وإن لم يأت فلا يكون هذا أكبر همه وغاية قصده، له يحب وله يبغض، ويوالي ويعادي من أجل الدنيا.

[٢] إذا تعلق قلبه بطمع الدنيا فإن هذا يأخذ قسماً من عبادته وقلبه، =

غَيْرِ اللهِ، وَهَـذَا مِنْ أَحَقِّ النَّاسِ بِقَوْلِهِ ﷺ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ؛ تَعِسَ عَبْدُ الْقَطِيفَةِ؛ تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ**»(١)[١]، وَهَذَا

الشَّرْح

= ويكون فيه شرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا، كما في الحديث: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ**»، فقد سماه عبداً للمال حيث أشرك في العبودية.

فحب الدنيا وطلبها والتعلق بها، والانشغال بها عن عبادة الله ﷻ هو ما أوقع كثيراً من الناس في الخلل في دينهم، فالمسلم يعبد الله ويطلب المال الحلال، قال تعالى: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٧]، وقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]، وقال: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٧]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩]، فلا يطغى طلب المال على الصلاة في المساجد في وقتها، بل ربما ينشغل عن عبادة الله كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون: ٩]، وقال في مدح المؤمنين: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور: ٣٧].

فالعبادة لله والتوكل عليه أمر مطلوب، فمن أدخل مع عبادة الله حب الدنيا والتعلق بها لم يخلص العبادة لله، وهذا نوع من الشرك في العبادة؛ لأنه لم يبق معه حقيقة التوكل على الله.

[١] في هذا الحديث سمَّى النبي ﷺ الذي يطلب هذه الأشياء ويتعلق بها إذا كان يرضى عند حصولها ويسخط عند عدم حصولها عبداً لها، قال: «**إِنْ أعطي رَضِي، وَإِن منع سخط**»، فهو في الحقيقة يعبد هذا المال، والدليل على ذلك أنه إن أعطي رضي، وإن لم يعطَ سخط، وأما أنه لو أعطي حمد الله =

---

(١) سبق تخريجه (ص١٢١).

هُـوَ عَبْدُ هَذِهِ الْأُمُورِ، فَلَوْ طَلَبَهَا مِنَ اللهِ فَإِنَّ اللهَ إِذَا أَعْطَاهُ إِيَّاهَا رَضِيَ؛ وَإِذَا مَنَعَهُ إِيَّاهَا سَخِطَ[١]، وَإِنَّمَا عَبْدُ اللهِ مَنْ يُرْضِيهِ مَا يُرْضِي اللهَ؛ وَيُسْخِطُهُ مَا يُسْخِطُ اللهَ؛ وَيُحِبُّ مَا أَحَبَّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَيُبْغِضُ مَا أَبْغَضَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ؛ وَيُوَالِي أَوْلِيَاءَ اللهِ وَيُعَادِي أَعْدَاءَ اللهِ تَعَالَى، وَهَذَا هُوَ الَّذِي اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ[٢]، كَمَا فِي الْحَدِيثِ: «مَنْ

الشَّرح

= وشكره، وإن لم يعط رضي بذلك وعلم أن الله ـ جلّ وعلا ـ لم يقدر له ذلك فهو في هذه الحال ليس عبداً للمال وإنما هو عبد لله.

[١] الفرق بين عبد الله وعبد المال:

١ ـ عبد المال: هو عبد هذه الأمور، فلو طلبها من الله فإن الله إذا أعطاه إياها رضي، وإذا منعه إياها سخط، هذه العلامة على عبوديته للدنيا، أنه يعلق رضاه وسخطه بحصولها، أو عدم حصولها.

٢ ـ (**عَبْدُ اللهِ مَنْ يُرْضِيهِ مَا يُرْضِي اللهَ؛ وَيُسْخِطُهُ مَا يُسْخِطُ اللهَ؛ وَيُحِبُّ مَا أَحَبَّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَيُبْغِضُ مَا أَبْغَضَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ؛ وَيُوَالِي أَوْلِيَاءَ اللهِ وَيُعَادِي أَعْدَاءَ اللهِ تَعَالَى**)، هذا هو عبد الله الحقيقي، الذي يحب ويبغض لله ﷻ، يحب ما يحبه الله ويبغض ما يبغضه الله، ويوالي في الله ويعادي في الله، لا يعادي من أجل هواه ورغبته، ولا يوالي من أجل ذلك، وإنما يكون ولاؤه وعداوته، أو يكون حبه وبغضه تابعاً لما يحب الله وما يبغض الله ﷻ، فيغضب لغضب الله، ويرضى لرضا الله، ويحب من يحبهم الله، ويبغض من يبغضهم الله، وتلك علامة العبودية الصحيحة، أما من خلا من هذه الأمور فهذا دليل على نقص عبوديته لله ﷻ، أو إنه ليس لديه عبودية لله ﷻ.

[٢] **أي**: هذا الذي يحب في الله ويبغض في الله ويوالي لله، ويعادي لله، ويحب ما يحبه الله ويكره ما يكرهه الله؛ هذا علامة على إخلاصه لله ﷻ، وعلى كمال إيمانه لله ﷻ.

أَحَـبَّ للهِ وَأَبْغَضَ للهِ وَأَعْطَى للهِ وَمَنَعَ للهِ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ»[١](١)، وَقَالَ: «**أَوْثَقُ عُرَى الْإِيمَانِ الْحُبُّ فِي اللهِ؛ وَالْبُغْضُ فِي اللهِ»**[٢](٢).

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْهُ ﷺ: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ**[٣]:

الشَّرح

[١] لقوله ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ للهِ وَأَبْغَضَ للهِ وَأَعْطَى للهِ وَمَنَعَ لله فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ**»، فمن فعل هذه الأشياء لأجل الله، ومنعها لأجل الله، فقد استكمل إيمانه بالله ﷻ؛ لأن هواه ورغبته ومحبته وكراهيته كلها تابعة لله ﷻ، لا يحب من أجل الدنيا أو يبغض من أجل الدنيا أو من أجل أمور شخصية، إنما هو تابع لربه ﷻ، هذا قد استكمل الإيمان. فمن أحب في الله، وأبغض في الله، وأعطى لله ومنع لله، فقد استكمل الإيمان، ومن نقص من ذلك فقد نقص إيمانه بحسبه، وقليل من يسلم من هذا.

[٢] **العُروة هي ما يتمسك به الإنسان عند المخاطر وعند الأضرار لينجو من المكاره**، قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة: ٢٥٦]؛ لأن العُرى قد لا تكون وثقى، يتمسك بها الإنسان فتنصرم به وتنقطع فيهلك، ولكن العروة الوثقى التي لا تنفصم هي الإيمان بالله والكفر بالطاغوت، والطاغوت هو كل ما عُبد من دون الله ﷻ ورضي بذلك أو دعا إليه؛ فالإيمان له عرى يتمسك بها المسلم، أوثقها الحب في الله والبغض في الله، لا يحب إلا لله ﷻ، ولا يبغض إلا لله، لا يحب ولا يبغض من أجل الدنيا أو الهوى، وإنما حبه وبغضه لأجل الله ﷻ، وبذلك يكون قد تمسك بأوثق عرى الإيمان.

[٣] وقال ﷺ: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ كَانَ يُحِبُّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَمَنْ كَانَ** =

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٨١).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ٢٢٩)، الإمام أحمد (١٨٥٢٤).

مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُـهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَـنْ كَانَ يُحِبُّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَمَنْ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَرْجِعَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ»[(١)]، فَهَـذَا وَافَقَ رَبَّهُ فِيمَـا يُحِبُّهُ وَمَـا

الشَّرْح

= **يَكْرَهُ أَنْ يَرْجِعَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ»**، الإيمان له حلاوة وله لذة، وليس كل مؤمن يجد هذه اللذة وهذه الحلاوة، إلا إذا استقر الإيمان وتوثق في قلبه، فإنه يجد هذه الحلاوة وهذه اللذة، وقد بيّن النبي ﷺ في هذا الحديث الأشياء والعلامات التي يجد بها العبد حلاوة الإيمان:

• **الأولى**: (**مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا**)؛ **أي**: أحب إليه من والديه ومن أولاده ومن الدنيا وما فيها، يكون الله ورسوله أحب إليه من كل شيء.

• **الثانية**: (**وَمَنْ كَانَ يُحِبُّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ**)، وهذا هو الحب في الله ومن أجل الله ﷻ، وهو تابع لمحبة الله، ودليل على صدقها.

• **الثالثة**: (**وَمَنْ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَرْجِعَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ**)، فهو يكره كل ما خالف دين الإسلام من الأديان، ولا يحب إلا دين الإسلام، فلذلك يكره أن يعود في الكفر الذي هو ضد الإسلام، بعد إذ أنقذه الله منه، (**كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ**)، فلا أحد يحب أن يقذف في النار؛ فالمسلم الحق والمؤمن الحق يكره الكفر، ويكره أن يعود إليه، ويكره أهله، كما يكره أن يُقذف في النار، فهذه الخصال من وجدها في نفسه وجد حلاوة الإيمان، والطمأنينة، واللذة، ومن فقدها أو فقد شيئاً منها فإنه لا يجد حلاوة الإيمان، وهنا استقرار إيماني، لا يزحزحه شيء، ولا يلتفت إلى من يلومه من الناس، فلا تأخذه في الله لومة لائم، هذا هو الذي استقر الإيمان في قلبه، ووجد حلاوته فتمسك به، واطمأن إليه.

---

(١) أخرجه البخاري (١٦، ٢١، ٦٠٤١).

يَكْـرَهُـهُ[١]، فَكَانَ اللهُ وَرَسُولُـهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَحَبَّ الْمَخْلُوقَ للهِ لَا لِغَرَضٍ آخَرَ، فَكَانَ هَذَا مِنْ تَمَامِ حُبِّهِ للهِ، فَإِنَّ مَحَبَّةَ مَحْبُوبِ الْمَحْبُوبِ مِنْ تَمَامِ مَحَبَّةِ الْمَحْبُوبِ؛ فَإِذَا أَحَبَّ أَنْبِيَاءَ اللهِ وَأَوْلِيَاءَ اللهِ لِأَجْلِ قِيَامِهِمْ بِمَحْبُوبَاتِ الْحَقِّ لَا لِشَيْءٍ آخَرَ فَقَدْ أَحَبَّهُمْ للهِ لَا لِغَيْرِهِ[٢].

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤][٣]، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن

الشَّرْح

[١] الموافقة لله: أن لا يحب إلا ما يحبه ولا يكره إلا ما يكرهه.

[٢] **فيحب المرء لا يحبه إلا لله**، وأولى الخلق أن يحبهم هم أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام، فيحب أنبياء الله محبة شديدة، ويتلذذ في ذكرهم، وذكر سيرهم، ويطمئن إليهم، وكذلك يحب أتباع أنبياء الله من المؤمنين، يحب المؤمنين في أي مكان كانوا، وفي أي زمان، ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ١٠]، فلا يكون الحب مقتصراً على مؤمني زمانه، أو على مؤمني بلده فقط، بل يكون حبه لكل مؤمن على وجه الأرض، وهذه علامة صدق الإيمان. وأما إذا كان لا يحب إلا مَنْ في بلده أو في دولته فهذه عنصرية، وهذا دليل على نقص إيمانه؛ فالمؤمن يحب المؤمنين في كل مكان أحياء وأمواتاً، ويبغض الكفار في أي مكان حتى ولو كانوا أقرب الناس إليه نسباً ومكاناً، يبغضهم لله ﷻ، ولو كانوا من بلده، بل لو كانوا آباءه أو أبناءه أو إخوانه.

فهو يحب أنبياء الله وأتباعهم (**لِأَجْلِ قِيَامِهِمْ بِمَحْبُوبَاتِ الْحَقِّ**)، لا يحبهم من أجل الدنيا أو من أجل القرابة والوطن، بل يحبهم لقيامهم بمحبوبات الله ﷻ.

[٣] قال الله ـ جلّ وعلا ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ وعلاماتهم:

=

كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[١] [آل عمران: ٣١]، فَإِنَّ الرَّسُولَ

الشَّرح

= • **أولاً**: أنهم ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة: ٥٤]، الشاهد في قوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾، يحبهم الله ـ جلّ وعلا ـ وهم يحبون الله، فمن أعظم صفاتهم محبتهم لله ومحبة الله لهم، ومن صفاتهم أيضاً أنهم:

• **ثانياً**: أنهم ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ **يعني**: يلينون لإخوانهم المؤمنين، ولا يتكبرون عليهم بل يتواضعون لهم.

• **ثالثاً**: أنهم ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فيهم قوة على الكافرين، فيبغضونهم ويعادونهم ويقاتلونهم؛ لأنهم يبغضونهم في الله عز وجل.

• **رابعاً**: أنهم ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ **أي**: يبذلون أنفسهم وأموالهم لأجل إرضاء الله تبارك وتعالى، ولأجل إعلاء كلمته، وكون المسلم يبذل نفسه في سبيل الله ويُعرض حياته للموت والخطر ويدخل المعركة ويحمل السلاح؛ فإن هذا دليل على صدق محبته لله عز وجل، وأنه يحب الله أكثر مما يحب نفسه؛ ولذلك قدَّم نفسه لله.

• **خامساً**: أنهم لا ﴿يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾؛ لأنهم سيلقون من ينتقصهم ومن يلومهم، ومن يتكلم فيهم ويستخف عقولهم، ولكن لا يلتفتون إليه، ولا تأخذهم في الله لومة لائم.

• **سادساً**: أن يقدم ما يحبه الله على ما تحبه نفسه.

هذه صفات أولياء الله تبارك وتعالى وعلامات الذين يحبونه حقّاً.

[١] **ادَّعى قوم كاليهود والنصارى أنهم يحبون الله**، وقالت اليهود والنصارى: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨] فامتحنهم الله في هذه الآية، فقال: ﴿قُلْ﴾؛ **أي**: أيها الرسول لمن يدَّعون محبة الله ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١]، فهذه الآية تسمى آية الامتحان، فقد امتحنهم الله عز وجل، فهم يدَّعون أنهم =

الشَّرح

= يحبون الله ولكنهم لا يتبعون محمداً ﷺ، ولا يؤمنون به، فكان قولهم باطلاً، وهذا ينطبق على كل من يدَّعي محبة الله، وهو يخالف الرسول ﷺ في كثير من أوامره ونواهيه، ويتقرب إلى الله بالبدع والمحدثات، فهذا دليل على أنه كاذب في دعوى محبته لله ﷻ إذا كان لا يتبع رسوله.

• **علامات محبة الله تعالى:**

• **العلامة الأولى:** التوحيد وإخلاص العبادة له، فمن أحب الله ﷻ؛ أخلص له العبادة ولم يشرك به شيئاً، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾ [البقرة: ١٦٥]، فلو كانوا يحبون الله حقّاً؛ لأفردوه بالعبادة ولما أحبوا معه غيره محبة عبادة.

• **العلامة الثانية:** أن يتبع الرسول ﷺ؛ لأنه رسول الله إلى البشرية والناس عامة، فمن يدعي أنه يحب الله ويكفر بمحمد ﷺ فهو كذاب في دعوى محبته لله.

• **العلامة الثالثة:** أن يقدِّم ما يحبه الله ورسوله ﷺ على ما تحبه نفسه، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟﴾ [التوبة: ٢٤]؛ **أي:** انتظروا العقوبة.

فهذه علامات محبة الله.

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١]، ذكر علامة محبة الله وذكر ثمرتها، أما علامتها فهي اتباع الرسول ﷺ، وأما ثمرتها فهي قوله تعالى: ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ﴾.

يَأْمُرُ بِمَا يُحِبُّ اللهُ وَيَنْهَى عَمَّا يُبْغِضُهُ اللهُ وَيَفْعَلُ مَا يُحِبُّهُ اللهُ[١] وَيُخْبِرُ بِمَا يُحِبُّ اللهُ التَّصْدِيقَ بِه، فَمَنْ كَانَ مُحِبّاً للهِ لَزِمَ أَنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ فَيُصَدِّقَهُ فِيمَا أَخْبَرَ[٢]، وَيُطِيعَهُ فِيمَا أَمَرَ، وَيَتَأَسَّى بِهِ فِيمَا فَعَلَ، وَمَنْ فَعَلَ هَذَا فَقَدْ فَعَلَ مَا يُحِبُّهُ اللهُ؛ فَيُحِبُّهُ اللهُ.

الشَّرْح

[١] فالرسول ﷺ معصوم فيما يبلِّغ عن الله، لا يأتي بشيء من عنده، فهو معصوم في الرسالة والتبليغ؛ فلذلك كان اتباعه علامة على محبة الله؛ لأنه لا يأمر إلا بما أمر الله به، ولا ينهى إلا عما نهى الله عنه، لا يفعل ذلك لهوى نفسه أو لأغراضه، وإنما هو كله لله، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، فالرسول ﷺ معصوم فيما يبلِّغه عن الله، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴿٤﴾﴾ [النجم: ٣، ٤]، أما غير الرسول ﷺ فيمكن أن يأمر بغير ما يأمر الله به، وينهى عن غير ما نهى الله عنه، ويكون هذا لغرض من أغراضه ولشهوة من شهواته، أما الرسول فهو معصوم من ذلك، (وَيُخْبِرُ بِمَا يُحِبُّ اللهُ التَّصْدِيقَ بِه).

[٢] علامات محبة الرسول ﷺ:

• الأولى: (إن كَانَ مُحِبّاً للهِ لَزِمَ أَنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ فَيُصَدِّقَهُ فِيمَا أَخْبَرَ)، فقد أخبر ﷺ عن أمور غائبة في الماضي والمستقبل فلا بد أن يُصدق ذلك؛ لأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، فالذي يشكك في أخبار الرسول ﷺ الثابتة كافر بالله ﷻ.

• الثانية: أن يُطِيعَهُ فِيمَا أَمَرَ، يطيع الرسول ﷺ فيما أمر به؛ لأنه لا يأمر إلا بما أمر الله به.

• الثالثة: أن تكون محبته للرسول مقدمة على محبته لكل شيء.

• الرابعة: أن (يَتَأَسَّى بِهِ فِيمَا فَعَلَ): قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]؛ أي: قدوة، فهو القدوة ﷺ. =

فَجَعَلَ اللهُ لِأَهْلِ مَحَبَّتِهِ عَلَامَتَيْنِ: اتِّبَاعَ الرَّسُولِ، وَالْجِهَادَ فِي سَبِيلِهِ[١]. وَذَلِكَ لِأَنَّ الْجِهَادَ حَقِيقَتُهُ الِاجْتِهَادُ فِي حُصُولِ مَا يُحِبُّهُ اللهُ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ[٢]؛ وَمِنْ دَفْعِ مَا يُبْغِضُهُ اللهُ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾[٣] [التوبة: ٢٤]؛

الشَّرْح

= • **الخامسة**: أن لا يعبد الله إلا بما شرعه الرسول ﷺ فيجتنب البدع والمحدثات في العبادة، فالذين يحدثون البدع والموالد ويدعون أنهم يحبون الرسول كاذبون في دعواهم؛ لأنهم فعلوا ما نهى عنه الرسول من البدع.

[١] قوله: (**فَجَعَلَ اللهُ لِأَهْلِ مَحَبَّتِهِ عَلَامَتَيْنِ**) الأولى: (**اتباع الرسول**)؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾ [آل عمران: ٣١]، والثانية قال: (**وَالجهَاد فِي سَبِيله**): قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٥٤﴾ [المائدة: ٥٤].

[٢] **معنى الجهاد في سبيل الله**:

الجهاد بذل الوسع فيما يحبه الله وهو أنواع:

- **الأول**: جهاد النفس.
- **الثاني**: جهاد الشيطان.
- **الثالث**: جهاد العصاة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- **الرابع**: جهاد المنافقين، برد شبهاتهم وإبطال دعواهم.
- **الخامس**: جهاد الكفار بالسلاح وخوض المعارك.

فمن قام بما يستطيع من هذه الأنواع فهو المؤمن الإيمان الصادق.

[٣] **هذه من علامات محبة الله التي سبق بيانها**: أن يقدم ما يحبه الله =

فَتَوَعَّدَ مَنْ كَانَ أَهْلُهُ وَمَالُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ بِهَذَا الْوَعِيدِ. بَلْ قَدْ ثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحِ؛ أَنَّهُ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**»(١)، وَفِي الصَّحِيحِ: أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَالَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ وَاللهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي؛ فَقَالَ: «**لَا يَا عُمَرُ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ**»؛ فَقَالَ: فَوَاللهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي فَقَالَ: «**الْآنَ يَا عُمَرُ**»[١](٢). فَحَقِيقَةُ الْمَحَبَّةِ لَا تَتِمُّ

الشَّرْح

= على ما تحبه نفسه، ولمَّا تأخر قوم عن الهجرة في سبيل الله شُحّاً ببلادهم وأولادهم وأزواجهم ومساكنهم وتجارتهم عاتبهم الله ﷻ فقال: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤]، هذه الثمانية يحبها الإنسان بطبيعته ولا يُلام على ذلك، ولكن يُلام إذا قدم محبتها على محبة الله ﷻ، وعلى ما يحبه الله، فإن كانت هذه الأمور أحب إليكم من الله ورسوله فقصرت بكم عن الجهاد في سبيل الله، وعن الهجرة، فهذا دليل على نقص محبة الله، أو على عدم تحققها، قال الله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾ وهذا تهديد لهم. ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ وعيد لهم بالعقوبة.

وقال ﷺ: (**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**)، فبعد محبة الله تأتي محبة الرسول ﷺ، وتكون محبة الرسول مقدمة على محبة كل مخلوق؛ حتى أقرب الأقربين إلى الإنسان.

[١] **فلا يؤمن العبد حتى يكون الرسول** ﷺ أحب إليه من نفسه ومن =

(١) أخرجه البخاري (١٥). (٢) أخرجه البخاري (٦٦٣٢).

إِلَّا بِمُوَالَاةِ الْمَحْبُوبِ، وَهُوَ مُوَافَقَتُهُ فِي حُبِّ مَا يُحِبُّ، وَبُغْضِ مَا يُبْغِضُ، وَاللهُ يُحِبُّ الْإِيمَانَ وَالتَّقْوَى، وَيُبْغِضُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ[١].

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْحُبَّ يُحَرِّكُ إِرَادَةَ الْقَلْبِ[٢]، فَكُلَّمَا قَوِيَتِ الْمَحَبَّةُ فِي الْقَلْبِ طَلَبَ الْقَلْبُ فِعْلَ الْمَحْبُوبَاتِ، فَإِذَا كَانَتِ الْمَحَبَّةُ تَامَّةً اسْتَلْزَمَتْ إِرَادَةً جَازِمَةً فِي حُصُولِ الْمَحْبُوبَاتِ، فَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ قَادِراً عَلَيْهَا حَصَّلَهَا، وَإِنْ كَانَ عَاجِزاً عَنْهَا فَفَعَلَ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ كَانَ لَهُ كَأَجْرِ الْفَاعِلِ[٣]، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ**

الشَّرح

= ولده ومن والده والناس أجمعين، ولذلك تجد المؤمنين يبذلون أنفسهم في سبيل الله، يقاتلون ويقتلون؛ لأن محبة الله أغلى عليهم من محبتهم لأنفسهم، ونصرة الرسول ﷺ أغلى عليهم من محبتهم لأنفسهم.

[١] **المؤمن يحب هذه الأعمال**، يحب الإيمان، والبر، والتقوى؛ لأن الله يحب هذه الأعمال، والمؤمن يحب ما يحبه الله.

[٢] **محبة الله ﷻ هي أعظم أنواع العبادة**، وهي أساس العبادات كلها، فإن المؤمن إذا أحب الله ﷻ تحرك في طاعته، وترك المحرمات، والجوارح والجسم تبعٌ للقلب، فإذا أحب القلب الله ﷻ وأحب رسوله ﷺ؛ تحرك جسمه وجوارحه في طاعة الله ورسوله وأقدم على ذلك، أما إذا لم يكن في القلب محبة لله ولرسوله؛ فإنه لا يتحرك في طاعة الله عن رغبة ونشاط.

[٣] **قد يعجز الإنسان الذي يحب الخير ويحب ما يحبه الله ورسوله عن فعل كل ما يحبه الله ورسوله**، فإذا عجز وهو ينوي لو امتلك القدرة لفعل ذلك، كتب الله له أجر من فعله، قال ﷺ: **«إِنَّ بِالْمَدِينَةِ لَرِجَالاً مَا سِرْتُمْ مَسِيراً وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِياً إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ. قَالُوا: وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ؟! قَالَ: وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ** =

لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنِ اتَّبَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقِصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً؛ وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْوِزْرِ مِثْلُ أَوْزَارِ مَنِ اتَّبَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقِصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئاً»[1]. وَقَالَ: «**إِنَّ بِالْمَدِينَةِ لَرِجَالاً**

الشَّرح

= **حَبَسَهُمْ الْعُذْرُ**»، قال هذا وهو في غزوة تبوك، وهم الذين أقعدهم المرض، وأقعدهم الفقر ولم يخرجوا مع الرسول ﷺ في هذه الغزوة، وقد ذكرهم الله في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾ [التوبة: ٩١]، أخبر عنهم ﷺ أنهم يسيرون مع المجاهدين وهم في المدينة، ما قطعوا وادياً إلا وهم معهم بنيَّاتهم وعزائمهم فنالوا مثل أجر المجاهدين بالنية الطيبة.

وقد ينال مثل أجر العامل إذا كان قد دعا إلى هدى، قال ﷺ: «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنِ اتَّبَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقِصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً؛ وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْوِزْرِ مِثْلُ أَوْزَارِ مَنِ اتَّبَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقِصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئاً**»، وهذا في الدعوة إلى الله، فمن دعا إلى الله ﷻ، واستجاب له مَن استجاب، فإنه يُكتب له مثل أجور من تبعه إلى يوم القيامة، وفي مقدمتهم رسول الله ﷺ، يُكتب له مثل أجور أمته من أول الأمة إلى آخرها، وعلى العكس ـ والعياذ بالله ـ من دعا إلى ضلالة فإنه يكون عليه إثمها وإثم من عمل بها إلى يوم القيامة، فدعاة الضلال يحملون مثل أوزار من تبعهم، قال الله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ﴾ [النحل: ٢٥]: فيُكتب عليهم من الإثم مثل إثم من اقتدى بهم إلى يوم القيامة، فالإنسان يكون قدوة إما في الخير، وإما في الشر.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٤).

مَا سِرْتُمْ مَسِيراً وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِياً إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ». قَالُوا: وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ؟! قَالَ: «وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ»(١).

و«الْجِهَادُ» هُوَ بَذْلُ الْوُسْعِ، وَهُوَ الْقُدْرَةُ فِي حُصُولِ مَحْبُوبِ الْحَقِّ وَدَفْعُ مَا يَكْرَهُهُ الْحَقُّ، فَإِذَا تَرَكَ الْعَبْدُ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنَ الْجِهَادِ كَانَ دَلِيلاً عَلَى ضَعْفِ مَحَبَّةِ اللهِ وَرَسُولِهِ فِي قَلْبِهِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمَحْبُوبَاتِ لَا تُنَالُ غَالِباً إِلَّا بِاحْتِمَالِ الْمَكْرُوهَاتِ[١]، سَوَاءٌ كَانَتْ مَحَبَّةً صَالِحَةً أَوْ فَاسِدَةً، فَالْمُحِبُّونَ لِلْمَالِ وَالرِّئَاسَةِ وَالصُّوَرِ لَا يَنَالُونَ مَطَالِبَهُمْ إِلَّا بِضَرَرٍ يَلْحَقُهُمْ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يُصِيبُهُمْ مِنَ الضَّرَرِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَالْمُحِبُّ للهِ وَرَسُولِهِ إِذَا لَمْ يَحْتَمِلْ مَا يَرَى ذُو الرَّأْيِ مِنَ الْمُحِبِّينَ لِغَيْرِ اللهِ مِمَّا يَحْتَمِلُونَ فِي حُصُولِ مَحْبُوبِهِمْ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى ضَعْفِ مَحَبَّتِهِمْ للهِ إِذَا كَانَ مَا يَسْلُكُهُ أُولَئِكَ هُوَ الطَّرِيقَ الَّذِي يُشِيرُ بِهِ الْعَقْلُ[٢].

الشَّرْح

- **بماذا تنال المحبوبات:**

[١] **فلا يحصل المحبوب عفواً**؛ بل لا بد من تحمل المكروه في سبيله، فالجنة محبوبة، ولكن لا تحصل إلا بتحمل المشاق، والعمل الصالح، والجهاد في سبيل الله، والإنفاق، والأعمال الصالحة، فالمحبوب لا يُنال إلا بتحمل المكاره؛ ولهذا جاء في الحديث: «**حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ**»(٢).

[٢] **فلا أحد يدعي أنه يحب الله ويحب رسول الله**؛ إلا بأن يتحمل في سبيل ذلك ما تكرهه نفسه وما يشق عليه، كما أن المحبين لغير الله يتحملون في سبيل محبوبهم ما يشق عليهم فيبذلون أنفسهم وأموالهم دون معبوداتهم لأنهم يحبونها حبّاً شديداً.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٣٩، ٤٤٣٣). (٢) أخرجه مسلم (٢٨٢٢).

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْمُؤْمِنَ أَشَدُّ حُبّاً للهِ[١]، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. نَعَمْ قَدْ يَسْلُكُ الْمُحِبُّ لِضَعْفِ عَقْلِهِ، وَفَسَادِ تَصَوُّرِهِ طَرِيقاً لَا يَحْصُلُ بِهَا الْمَطْلُوبُ، فَمِثْلُ هَذِهِ الطَّرِيقِ لَا تُحْمَدُ إِذَا كَانَتِ الْمَحَبَّةُ صَالِحَةً مَحْمُودَةً، فَكَيْفَ إِذَا كَانَتِ الْمَحَبَّةُ فَاسِدَةً، وَالطَّرِيقُ غَيْرَ مُوصِلٍ! كَمَا يَفْعَلُهُ الْمُتَهَوِّرُونَ فِي طَلَبِ الْمَالِ وَالرِّئَاسَةِ وَالصُّوَرِ فِي حُبِّ أُمُورٍ تُوجِبُ لَهُمْ ضَرَراً[٢]، وَلَا تُحَصِّلُ لَهُمْ مَطْلُوباً، وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ الطُّرُقُ الَّتِي يَسْلُكُهَا الْعَقْلُ لِحُصُولِ مَطْلُوبِهِ، وَإِذَا تَبَيَّنَ هَذَا؛ فَكُلَّمَا ازْدَادَ الْقَلْبُ حُبّاً للهِ ازْدَادَ لَهُ عُبُودِيَّةً، وَكُلَّمَا ازْدَادَ لَهُ عُبُودِيَّةً ازْدَادَ لَهُ حُبّاً وَحُرِّيَّةً عَمَّا سِوَاهُ[٣].

الشَّرْح

[١] **المؤمنون أشد حبّاً لله؛ لأنهم يحبونه محبة خالصة**، ليس فيها شرك، أما المشركون فهم يحبون الله، ولكن يشركون معه غيره في المحبة، فمحبتهم لله غير خالصة؛ ولذلك صار المؤمنون أشد حبّاً لله من المشركين؛ لأن محبة المؤمنين لله خالصة، ومحبة المشركين له غير خالصة.

[٢] **الذين يحبون المال والصور الجميلة** من النساء يبذلون في سبيل محبوبهم كل ما يستطيعون.

فالمبتدعة يزعمون أنهم يحبون الله، ولكنهم يتقربون إليه بما يكره، وما لم يشرعه من البدع، فالله ـ جلّ وعلا ـ شرع شريعة، والذي يحب الله يتمسك بهذه الشريعة ويتقرب إليه بما شرعه، وأما إذا ادعى أنه يحب الله ولكن لا يعمل بشرعه وإنما يعمل بالبدع والمحدثات فهذا لا ينفعه عمله بل يبعده عن الله ﷻ، ويعذب بذلك، وهو تعب عليه بما يضره.

- **النتيجة مما سبق ذكره:**

[٣] **(إِذَا تَبَيَّنَ هَذَا؛ فَكُلَّمَا ازْدَادَ الْقَلْبُ حُبّاً للهِ ازْدَادَ لَهُ عُبُودِيَّةً، وَكُلَّمَا** =

وَالْقَلْبُ فَقِيرٌ بِالذَّاتِ إِلَى اللهِ مِنْ «وَجْهَيْنِ»[١]: مِنْ جِهَةِ

الشَّرْح

= ازْدَادَ لَهُ عُبُودِيَّةً ازْدَادَ لَهُ حُبّاً وَحُرِّيَّةً عَمَّا سِوَاهُ)، فالمحبة لله تحرك للعمل لله، وكذلك المحبة لغيره تحرك على العمل لغير الله عَزَّوَجَلَّ، فالمحبة للشيء هي الباعث على تحمل المشقة في تحصيله.

[١] أي: قلب المؤمن فقير إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى من وجهين:

● **الوجه الأول**: أنه مفتقر إلى العبادة؛ لأن العبادة هي الغاية التي خُلق من أجلها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، فلا يستغنى عن عبادة الله بحال.

* ولذلك: (**فَالْقَلْبُ لَا يَصْلُحُ، وَلَا يُفْلِحُ، وَلَا يَلْتَذُّ وَلَا يُسَرُّ، وَلَا يَطِيبُ، وَلَا يَسْكُنُ، وَلَا يَطْمَئِنُّ إِلَّا بِعِبَادَةِ رَبِّهِ، وَحُبِّهِ وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ**): فقلب المؤمن لا يطمئن ولا يسكن إلا بعبادة ربه، كما قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝٢٨﴾ [الرعد: ٢٨]، فلا يطمئن المؤمن إلى شيء إلا إلى ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى، أما بقية الأمور وإن مال إليها فإنه لا يطمئن إليها، ولهذا قال:

(**وَلَوْ حَصَلَ لَهُ كُلُّ مَا يَلْتَذُّ بِهِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ لَمْ يَطْمَئِنَّ**)؛ **أي**: لو حصلت له كل الملذات الدنيوية من الملك والمال والولد والصحة والعافية وأنواع المأكولات والمشروبات؛ فإنه لا يطمئن قلبه إليها؛ لأنها على سبيل الزوال ولا يبقى إلا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وما أريد به وجهه، والسبب في ذلك:

أنه (**فِيهِ فَقْرٌ ذَاتِيٌّ إِلَى رَبِّهِ مِنْ حَيْثُ هُوَ مَعْبُودُهُ وَمَحْبُوبُهُ وَمَطْلُوبُهُ**)؛ ولذلك تجد المؤمن مطمئناً منشرح الصدر على أية حال كان؛ لأنه متعلق بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وتجد غير المؤمن في قلق وفي هم وفي خوف، فتجد الكفار وإن كانوا أعطوا من الدنيا وزهرتها إلا أنهم في همٍّ، وفي قلق وفي خوف ولا يرتاحون ولا يتلذذون بما في أيديهم من متاع الدنيا؛ لأنهم حرموا من عبادة الله ومعرفة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى. =

الْعِبَادَةِ، وَهِيَ الْعِلَّةُ الْغَائِيَّةُ. وَمِنْ جِهَةِ الِاسْتِعَانَةِ وَالتَّوَكُّلِ، وَهِيَ الْعِلَّةُ الْفَاعِلِيَّةُ؛ فَالْقَلْبُ لَا يَصْلُحُ، وَلَا يُفْلِحُ، وَلَا يَلْتَذُّ وَلَا يُسَرُّ، وَلَا يَطِيبُ، وَلَا يَسْكُنُ، وَلَا يَطْمَئِنُّ إِلَّا بِعِبَادَةِ رَبِّهِ، وَحُبِّهِ وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ، وَلَوْ حَصَلَ لَهُ كُلُّ مَا يَلْتَذُّ بِهِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ لَمْ يَطْمَئِنَّ وَلَمْ يَسْكُنْ إِذْ فِيهِ فَقْرٌ ذَاتِيٌّ إِلَى رَبِّهِ، وَمِنْ حَيْثُ هُوَ مَعْبُودُهُ وَمَحْبُوبُهُ وَمَطْلُوبُهُ، وَبِذَلِكَ يَحْصُلُ لَهُ الْفَرَحُ وَالسُّرُورُ وَاللَّذَّةُ وَالنِّعْمَةُ وَالسُّكُونُ وَالطُّمَأْنِينَةُ.

وَهَذَا لَا يَحْصُلُ لَهُ إِلَّا بِإِعَانَةِ اللهِ لَهُ، لَا يَقْدِرُ عَلَى تَحْصِيلِ ذَلِكَ لَهُ إِلَّا اللهُ، فَهُوَ دَائِمًا مُفْتَقِرٌ إِلَى حَقِيقَةِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]، فَإِنَّهُ لَوْ أُعِينَ عَلَى حُصُولِ مَا يُحِبُّهُ وَيَطْلُبُهُ وَيَشْتَهِيهِ وَيُرِيدُهُ، وَلَمْ يَحْصُلْ لَهُ عِبَادَتُهُ للهِ بِحَيْثُ يَكُونُ هُوَ غَايَةَ مُرَادِهِ وَنِهَايَةَ مَقْصُودِهِ وَهُوَ الْمَحْبُوبَ لَهُ بِالْقَصْدِ الْأَوَّلِ[١]، وَكُلَّ

الشَّرْح

= • **الوجه الثاني**: أنه (**دَائِماً مُفْتَقِرٌ إِلَى حَقِيقَةِ**: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]): فالعبادة هي الغاية، والاستعانة هي الوسيلة والموصلة إلى العبادة، فلو لم يُعِنْكَ الله لم تستطع أن تعبده؛ ولهذا من أفضل الذكر: لا حول ولا قوة إلا بالله.

[١] فمتى لم يحصل له هذا لم يكن قد حقق حقيقة لا إله إلا الله، فالإعانة من الله إذا كانت على أمور الدنيا ومطامعها فإنها لا تغني عن العبد شيئاً، أما إذا كانت الإعانة للعبد من الله ـ جلّ وعلا ـ على عبادته فهذا هو السعيد في الدنيا والآخرة، المطمئن الواثق من ربه ﷻ.

فالعبد لا يحصل على الراحة والطمأنينة إلا بعبادة الله ﷻ، وأما إذا =

مَا سِوَاهُ إِنَّمَا يُحِبُّهُ لِأَجْلِهِ[١] لَا يُحِبُّ شَيْئاً لِذَاتِهِ إِلَّا اللهَ[٢]، فَمَتَى لَمْ يَحْصُلْ لَهُ هَذَا لَمْ يَكُنْ قَدْ حَقَّقَ حَقِيقَةَ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، وَلَا حَقَّقَ التَّوْحِيدَ وَالْعُبُودِيَّةَ وَالْمَحَبَّةَ، وَكَانَ فِيهِ مِنَ النَّقْصِ وَالْعَيْبِ بَلْ مِنَ الْأَلَمِ وَالْحَسْرَةِ وَالْعَذَابِ بِحَسَبِ ذَلِكَ[٣].

الشَّرح

= لم يوفق لعبادة الله وحده؛ فإنه لن يطمئن ولن يرتاح أبداً، وحينئذ يكون قد فَقَدَ أصل الطمأنينة وأصل الراحة، والدنيا لا يطمئن إليها ولا يركن إليها المؤمن لأنها تزول، والأصحاب والأعوان والجنود كذلك إلى زوال ولا يبقى إلا ما بين العبد وبين ربه؛ لأنه ﷻ هو الذي تألهه القلوب وتحبه، وتلتذ بطاعته، وتأنس بقربه ﷻ، فهذه كلها فوائد العبودية وثمراتها ونتائجها.

[١] **أي: ما سوى الله** فلا يحبه لذاته، وإنما يحبه لأجل الله ﷻ، فإذا كان محبوبه من عباد الله المؤمنين فإنه يحبه لأجل الله ﷻ.

[٢] **أي**: لا يُحب شيء من الأشياء لذاته إلا الله ـ جلّ وعلا ـ، وأما غير الله فإنه لا يحب لذاته، وإنما يُحب لغرض من الأغراض، وحاجة من الحوائج.

[٣] إذا فقد العبد الطمأنينة، والأنس بالله، فإنه لم يحقق لا إلٰه إلا الله؛ لأن معنى (لا إله إلا الله)؛ **أي**: لا معبود بحق إلا الله ﷻ، والإلـٰه معناه: المحبوب، وعبادة الله هي التي تحصل بها الطمأنينة والراحة واللذة والسرور، والصبر والاحتساب والثبات، ومعنى (لا إله إلا الله): لا معبود بحق إلا الله، وكل معبود سوى الله فعبادته باطلة؛ لأن هناك معبودات غير الله، وآلهة غير الله، ولكن كلها باطلة وكلها حسرة على أصحابها، وكلها يوم القيامة يكون بينها وبين عابديها بغض وبراءة وتحسر، كما ذكر الله ذلك، وأنه يلعن بعضهم بعضاً، فكل هذا يزول، ولا يبقى إلا الله وما أُريد به وجهه ﷻ، فالمسلم يعرف ذلك، ويعرف ثمرة العبادة؛ فالعبادة ليست عادة من العادات، =

[عاقبة من فقد التوكل على الله والاستعانة به]:

وَلَوْ سَعَى فِي هَذَا الْمَطْلُوبِ وَلَمْ يَكُنْ مُسْتَعِيناً بِاللهِ مُتَوَكِّلاً عَلَيْهِ مُفْتَقِراً إِلَيْهِ فِي حُصُولِهِ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ، فَإِنَّهُ مَا شَاءَ اللهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، فَهُوَ مُفْتَقِرٌ إِلَى اللهِ مِنْ حَيْثُ هُوَ الْمَطْلُوبُ الْمَحْبُوبُ الْمُرَادُ الْمَعْبُودُ، وَمِنْ حَيْثُ هُوَ الْمَسْؤُولُ الْمُسْتَعَانُ بِهِ الْمُتَوَكَّلُ عَلَيْهِ، فَهُوَ إِلَهُهُ لَا إِلَهَ لَهُ غَيْرُهُ، وَهُوَ رَبُّهُ لَا رَبَّ لَهُ سِوَاهُ[١].

وَلَا تَتِمُّ عُبُودِيَّتُهُ للهِ إِلَّا بِهَذَيْنِ، فَمَتَى كَانَ يُحِبُّ غَيْرَ اللهِ لِذَاتِهِ أَوْ يَلْتَفِتُ إِلَى غَيْرِ اللهِ أَنَّهُ يُعِينُهُ كَانَ عَبْداً لِمَا أَحَبَّهُ، وَعَبْداً لِمَا رَجَاهُ بِحَسَبِ حُبِّهِ لَهُ وَرَجَائِهِ إِيَّاهُ[٢]. وَإِذَا لَمْ يُحِبَّ لِذَاتِهِ إِلَّا اللهَ، وَكُلَّمَا

الشَّرْح

= أو تقليداً من التقاليد كما يقول الذين لا يجدون لذة العبادة ولا فائدتها، بل العبادة نعمة عظيمة، يرتاح بها المؤمن في حياته، فإن أصابته سراء شكر الله، وإن أصابته ضراء صبر احتساباً لوجه الله، فهو لا تضيره الحوادث والنكسات التي تأتي على الناس؛ لأنه واثق بالله ﷻ، وأنه لن يصيبه شيء إلا من صالحه: إما تمحيصاً لذنوبه، وإما زيادة في حسناته. وإما تنبيهاً له ليتوب.

[١] **فلو أنه أراد أن يعبد الله ولكنه لا يستعين بالله**؛ فإنه لن يحصل على مطلوبه؛ لأنه لا يعينه على العبادة ويمكنه منها، وييسِّرها له، ويقويه عليها ويرغبه فيها إلا الله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥].

[٢] **من التفت إلى غير الله وظن أنه ينفعه**، وأنه يدفع عنه الضرر، فإن هذا الغير لن ينفعه وإنما يكون حسرة عليه؛ ولذلك المسلم لا يحب إلا لله ولا يبغض إلا لله، ولا يوالي إلا في الله، ولا يعادي إلا في الله، ولا يتوكل إلا على الله، فلا غنى بالعبد عن الله ﷻ، ولا يعينه على طاعته وعبادته إلا الله =

أَحَبَّ سِوَاهُ فَإِنَّمَا أَحَبَّهُ لَهُ، وَلَمْ يَرْجُ قَطُّ شَيْئاً إِلَّا اللهَ، وَإِذَا فَعَلَ مَا فَعَلَ مِنَ الْأَسْبَابِ أَوْ حَصَّلَ مَا حَصَّلَ مِنْهَا كَانَ مُشَاهِداً أَنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي خَلَقَهَا وَقَدَّرَهَا[١]، وَأَنَّ كُلَّ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَاللهُ رَبُّهُ وَمَلِيكُهُ وَخَالِقُهُ[٢]، وَهُوَ مُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ كَانَ قَدْ حَصَلَ لَهُ مِنْ تَمَامِ

الشَّرح

= ـ جلّ وعلا ـ وهناك أسباب جعلها الله تعين، ولكنها ليست الإعانة المطلقة، وإنما هي أسباب قد تفيد وقد لا تفيد.

فمن أحب الله، وأحب في الله ولله، فهو الذي وُفِقَ لعبادة ربه، والاتصال بربه، أما إذا كان يحب لغير الله ويرجو غير الله ويتعلق بغير الله فإن الله يَكِلُه لغيره، وفي الحديث: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئاً وُكِلَ إِلَيْهِ»(١): فمن تعلق بالله كفاه الله، والله حسبه، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، ومن توكل على غير الله واعتمد على غير الله؛ فإن الله يكله إلى غيره، وكل ما سوى الله فهو عاجز وفقير.

فمعنى العبودية: أن يعلق الإنسان أموره بالله، فعلق أمورك وأطماعك ورجاءك وخوفك ومحبتك بالله ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، وخذ بالأسباب النافعة المفيدة التي تعينك على ذلك.

[١] فالأسباب لا بد أن يُعتقد أن الله هو الذي خلقها، فهو مُسبب الأسباب، هو الذي خلق هذه الأسباب وأوجدها لتستعين بها وتستعملها في طاعته، فهي فضل من الله ﷻ.

[٢] أي: إذا اعتقد العبد أن كل ما في السمٰوات والأرض من عبيد الله ومخلوقات الله وأنها بيد الله، يتصرف فيها، فهذا هو الذي عرف الحقيقة، وعرف ربه، وعرف حكمته، فيما يجري في هذا الكون، أما من يعتقد أن هذه =

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٧٢).

عُبُودِيَّتِهِ لله بِحَسَبِ مَا قُسِمَ لَـهُ مِنْ ذَلِكَ[١].

وَالنَّاسُ فِي هَذَا عَلَى دَرَجَاتٍ مُتَفَاوِتَةٍ لَا يُحْصِي طَرَفَيْهَا

الشَّرْح

= المخلوقات مستقلة بالتأثير، وأن الحوادث طبيعية كما يقولون، فهذا لم يعرف الله سبحانه وتعالى، وإنما يعرف هذه الأشياء يظنها أنها هي الفاعلة، مع أنها أسباب فقط وليست هي الفاعلة والموجدة، فكل ما في السموات والأرض، ومن في السموات والأرض إنما هم خلق الله وعبيده، يدبرهم، ويسخرهم لك، يخدمونك وينفعونك، وإذا عصيت الله سلَّطهم عليك، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفتح: ٤]، فيسلط عليك هذه المخلوقات، وكل شيء بيد الله، قال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ [الملك: ١]، كل شيء بيد الله، فلماذا تلتفت عن الله، وتطلب من غير الله طلب اعتماد على غير الله سبحانه وتعالى، علق قلبك بالله عز وجل، واعلم أن كل شيء بيده، وكل شيء مطيع لله إما طاعة اختيارية، وإما طاعة اضطرارية، حتى الكفار والشياطين كلهم يطيعون أقدار الله فيهم وفي غيرهم؛ لأنهم عبيده، فهم يطيعونه طاعة اضطرارية، قال تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ۝٨٣﴾ [آل عمران: ٨٣]، وأما المؤمن فإنه يطيع الله طاعة اختيارية، ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ۝١١٦﴾ [البقرة: ١١٦].

كل الكون بما فيه الجن والشياطين وكل شيء كلهم بيد الله مسخرون مطيعون لله عز وجل، قال تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ۝١١٦﴾.

[١] **أي: إذا عرف أن كل شيء في الكون هو بيد الله**، وأنهم خلْقه وعبيده، فإذا عرف أن الله هو الرب المدبر للكون وما فيه؛ فعبده وحقق العبودية لله، **(بِحَسب مَا قسم لهُ من ذَلك)؛ أي**: بحسب ما قسم له من معرفة ذلك، فقد يكون الإنسان عنده قصور في المعرفة، فالناس يتفاوتون في ذلك، فكلٌّ يحصل له من العبودية بقدر ما يدرك من هذه الأمور.

إِلَّا اللهُ[١]. فَأَكْمَلُ الْخَلْقِ وَأَفْضَلُهُمْ وَأَعْلَاهُمْ وَأَقْرَبُهُمْ إِلَى اللهِ وَأَقْوَاهُمْ وَأَهْدَاهُمْ أَتَمُّهُمْ عُبُودِيَّةً للهِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. وَهَذَا هُوَ حَقِيقَةُ دِينِ الْإِسْلَامِ الَّذِي أَرْسَلَ بِهِ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ وَهُوَ أَنْ يَسْتَسْلِمَ الْعَبْدُ للهِ لَا لِغَيْرِهِ[٢]؛ فَالْمُسْتَسْلِمُ لَهُ وَلِغَيْرِهِ

الشَّرْح

[١] ولهذا قال: (وَالنَّاسُ فِي هَذَا عَلَى دَرَجَاتٍ مُتَفَاوِتَةٍ): فمنهم من يحصل له الشيء الكثير من المعرفة لهذه الحقائق، ومنهم من لا يحصل له شيء وهو الملحد والكافر، ومنهم من يحصل له بعض الشيء، فأنت إذا نظرت في الناس عرفت أنهم متفاوتون في الإدراك ومعرفة حقيقة العبودية لله ﷻ. وحقيقة الكون.

ولهذا لما هددوا نبي الله هوداً عليه السلام بآلهتهم، قال متحدياً لهم: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٦]، فهو رجل واحد هدد دولة عاتية قوية، فكانت النتيجة أن الله نجَّاه وأهلك هذه الأمة العاتية عن آخرها، وهم يقولون: ﴿يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [هود: ٥٣]، فهذه أعظم آية ومعجزة كبيرة أنه تحداهم هذا التحدي، وعندهم القوة ولم يستطيعوا أن يصلوا إليه بقوتهم وجبروتهم وهو يقول لهم: ﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم﴾ [هود: ٥٥، ٥٦].

[٢] **فالإسلام معناه**: الاستسلام لله ﷻ بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله، هذا معنى الإسلام الذي شرعه الله سبحانه وتعالى، وهو الإسلام الاختياري، أما الإسلام الاضطراري المذكور في قوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ٨٣]، فهو إسلام اضطراري؛ معناه: أنهم تنفذ فيهم أقداره الكونية ولا يستطيعون ردها، والتخلص منها.

مُشْرِكٌ[١]، وَالْمُمْتَنِعُ عَنِ الِاسْتِسْلَامِ لَهُ مُسْتَكْبِرٌ[٢]، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: **«إِنَّ الْجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ كَمَا أَنَّ النَّارَ لَا يَدْخُلُهَا مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ»**(١)، فَجَعَلَ الْكِبْرَ مُقَابِلاً لِلْإِيمَانِ[٣]، فَإِنَّ الْكِبْرَ يُنَافِي حَقِيقَةَ الْعُبُودِيَّةِ[٤]، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ:

الشَّرْح

- **أقسام الناس بالنسبة للإسلام:**

[١] **(فَالْمُسْتَسْلِمُ لَهُ وَلِغَيْرِهِ مُشْرِكٌ)؛ أي:** المستسلم لله ولغيره من الأصنام مشرك بالله.

[٢] **(وَالْمُمْتَنِعُ عَنِ الِاسْتِسْلَامِ لَهُ مُسْتَكْبِرٌ)**: عن عبادته.

- **فالناس منهم:**

ـ من يستسلم لله وحده، وهذا هو المؤمن.

ـ من يستسلم لله ولغيره، وهذا مشرك.

ـ من لا يستسلم لله أصلاً وهذا مستكبر على الله وعاقبة المستكبر كما جاء في الحديث: **(إِنَّ الْجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ كَمَا أَنَّ النَّارَ لَا يَدْخُلُهَا مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ)**، من كبر المشركين، والمراد: الكبر الذي يمنع من عبادة الله ﷻ، فالمستكبر عن عبادة الله، حرَّم الله عليه الجنة، وأما الكبر الذي لا يمنع من عبادة الله فقد يكون في المؤمن شيء من الكبر وهو كبيرة، ولكن لا يحرم من دخول الجنة كما أن الكبر الذي في المؤمن قد يعرضه لعذاب الله ودخوله النار، لكنه لا يخلد فيها.

[٣] **أي: لأهل الإيمان**، وهو الكبر الذي لا يدخل صاحبه الجنة.

[٤] **فالكبر الذي يمنع دخول الجنة**، هو الكبر الذي يقابل الإيمان، =

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (٩١).

«**يَقُولُ اللهُ: الْعَظَمَةُ إِزَارِي وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِداً مِنْهُمَا عَذَّبْتُهُ**»[١](١)، فَالْعَظَمَةُ وَالْكِبْرِيَاءُ مِنْ خَصَائِصِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَالْكِبْرِيَاءُ أَعْلَى مِنَ الْعَظَمَةِ؛ وَلِهَذَا جَعَلَهَا بِمَنْزِلَةِ الرِّدَاءِ، كَمَا جَعَلَ الْعَظَمَةَ بِمَنْزِلَةِ الْإِزَارِ[٢]. وَلِهَذَا كَانَ شِعَارُ الصَّلَوَاتِ وَالْأَذَانِ وَالْأَعْيَادِ هُوَ التَّكْبِيرَ[٣]، وَكَانَ مُسْتَحَبًّا فِي الْأَمْكِنَةِ الْعَالِيَةِ كَالصَّفَا

الشَّرْح

= والله ـ جلّ وعلا ـ أخبر أن النار مثوى المتكبرين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠]، ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزمر: ٧٢].

[١] **فله الكبرياء على حق**، وكبرياء بحق، أما كبرياء العبد فهي كبرياء بغير حق، انظر الفرق بينهما، فالله ـ جلّ وعلا ـ له الكبرياء وهو الكبير المتعال؛ وهذا له ﷻ بحق، وأما العبد فليس له حق في الكبرياء فلا ينازع الله ﷻ فيها، وكذلك التعاظم، فالإنسان يتعاظم في نفسه ويرى أنه فوق الناس، وهو ما يغضب الله عليه؛ لأن العظمة حق لله ـ جلّ وعلا ـ فالإنسان يحقر نفسه، وكلما قوي إيمانه وعلمه زاد تواضعه وعرف قدر نفسه فلا يتعاظم ولا يتكبر.

[٢] الرداء يكون أعلى البدن والإزار يكون أسفل البدن هذا عند الناس، أما في حق الله، فالله أعلم بكيفيتهما.

[٣] **فالله أكبر من كل شيء**، والله أكبر: أفعل تفضيل، فإذا قلت: الله أكبر، هان في نظرك وفي نفسك كل شيء سوى الله ﷻ.

والصلاة لا تصح إلا بافتتاحها بتكبيرة الإحرام، وقد ورد في الحديث: «**تَحْرِيمُهَا التَّكْبِيرُ وَتَحْلِيلُهَا التَّسْلِيمُ**»(٢): فتكبيرة الإحرام ركن، وبقية تكبيرات الانتقال للقيام والركوع والسجود واجبة. **(وَالْأَذَان)** على رؤوس المنائر: =

---

(١) أخرجه مسلم بنحوه (٢٦٢٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٦١).

والمروة[١](١): وَإِذَا عَلَا الْإِنْسَانُ شَرَفاً أَوْ رَكِبَ دَابَّةً: وَنَحْوَ ذَلِكَ[٢](٢) وَبِهِ يُطْفَأُ الْحَرِيقُ وَإِنْ عَظُمَ[٣](٣)، وَعِنْدَ الْأَذَانِ يَهرُبُ

الشَّرْح

= الله أكبر؛ **أي**: من كل شيء، فكل شيء حقير بالنسبة لله ﷻ، فإذا أعلن هذا فإنه لا يبقى في الدنيا كبير أبداً فوق كبرياء الله أو مماثلاً لها، **(والأعياد)**: فيشرع التكبير يوم العيد، وليلة العيد، وفي أيام التشريق.

[١] **لأنه كان النبي ﷺ إذا سار في الطريق وعلا شرفاً أو علا جبلاً كالصفا والمروة أو علا مرتفعاً كبّر الله ﷻ**، وإذا نزل سبح الله ﷻ، فالتسبيح يكون في الانخفاض، والتكبير يكون في الارتفاع، حيث إن الله ﷻ أرفع وأعظم وأعلى من كل الموجودات ولو كنت على أعلى جبل في الدنيا، أو أطول عمارة في الدنيا فالله أعلى من كل شيء وكذا لو كنت على مركبة فضائية تخترق الأجواء وترتفع فالله أعلى وأرفع من كل شيء؛ وإذا انخفضت، فإنك تنزه الله ﷻ عن الانخفاض، فتقول: سبحان الله على ذلك؛ لأنه في العلو؛ ولهذا تقول: (سبحان ربي العظيم) في الركوع؛ لأن العظمة حق لله، فتنحني لله ﷻ وتذل له، وتعظمه؛ ولهذا لا يجوز الانحناء ولا الركوع للمخلوق لا انحناء التحية ولا غيره، فالركوع والانحناء يكون لله ﷻ، كذلك في السجود إذا صار وجهك أسفل شيء منك فإنك تنزه الله ـ جلّ وعلا ـ فتقول: (سبحان ربي الأعلى) فتنزهه عما سوى العلو.

[٢] **وكذلك يكبر الله إذا ركب دابة ونحوها كسيارة أو باخرة أو طائرة؛ فإنه يكبّر الله ﷻ**، قال الله ـ جلّ وعلا ـ: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الزخرف: ١٢، ١٣].

[٣] **أي: بالتكبير يُطفأ الحريق**، فهو من أسباب إطفاء الحريق؛ لأن الله =

(١) أخرجه البخاري (٢٢). (٢) أخرجه مسلم (١٣٤٢).
(٣) الدعاء للطبراني وذكر عدة أحاديث تحت باب: القول عند وقوع الحريق، قال =

الشَّيْطَانُ[١](١). قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ [غافر: ٦٠][٢].

وَكُلُّ مَنِ اسْتَكْبَرَ عَنْ عِبَادَةِ اللهِ لَا بُدَّ أَنْ يَعْبُدَ غَيْرَهُ[٣]، فَإِنَّ

الشَّرْح

= أعظم من كل شيء وقادر على أن يطفئ هذه النار ولو عظمت.

[١] **لأنه ذكر لله**، فيهرب الشيطان إذا سمع الأذان وله ضراط، إذ لا يطيق أن يسمع الأذان.

[٢] فالذي لا يعبد الله يكون مستكبراً، وجزاؤه جهنم يدخلها صاغراً بدلاً من أن يكون متكبراً.

[٣] **لأن الإنسان أصله عبد**، فلا بد أن يعبد شيئاً يشبع غريزته، فإما أن يعبد الله، وإما أن يعبد غيره؛ ولذلك تجد المشركين يعبدون أشياء تافهة لا تليق بالعقول حيث يعبدون البقر، ويعبدون الفروج، ويعبدون أشياء منحطة، حتى إن بعضهم يعبد التمرة التي معه وإذا جاع أكلها، فيجعل له ربّاً من التمر فإذا جاع أكل ربه!؛ لأنه يحن إلى العبادة، فلا يترك العبادة، ولكن إن وفق لعبادة الله ﷻ وضع العبادة في موضعها وسعد في الدنيا والآخرة، وأما إذا عبد غير الله فهو مشرك، قال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ [الحج: ٣١] فالموحد لله مرتفع؛ فإذا أشرك بالله انحط ولا يدري أين يقع! ﴿تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ۝٣١﴾ [الحج: ٣١]؛ **أي**: بعيد عن الحق والصواب. ولذلك يعبد المشركون آلهة متعددة لا حصر لها؛ =

= ابن القيم في زاد المعاد (٤/ ١٩٤) بعد أن ساق حديثاً في ذلك: «وَلِهَذَا كَانَ تَكْبِيرُ اللهِ ﷻ لَهُ أَثَرٌ فِي إِطْفَاءِ الْحَرِيقِ فَإِنّ كِبْرِيَاءَ اللهِ ﷻ لَا يَقُومُ لَهَا شَيْءٌ فَإِذَا كَبّرَ الْمُسْلِمُ رَبّهُ أَثّرَ تَكْبِيرُهُ فِي خُمُودِ النّارِ وَخُمُودِ الشّيْطَانِ الّتِي هِيَ مَادّتُهُ فَيُطْفِئُ الْحَرِيقَ، وَقَدْ جَرّبْنَا نَحْنُ وَغَيْرُنَا هَذَا فَوَجَدْنَاهُ كَذَلِكَ واللهُ أَعْلَمُ».

(١) أخرجه البخاري (٦٠٨).

الْإِنْسَانَ حَسَّاسٌ يَتَحَرَّكُ بِالْإِرَادَةِ[١]. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «**أَصْدَقُ الْأَسْمَاءِ حَارِثٌ وَهَمَّامٌ**»[٢](١)؛ فَالْحَارِثُ الْكَاسِبُ الْفَاعِلُ[٣]، وَالْهَمَّامُ فَعَّالٌ مِنَ الْهَمِّ، وَالْهَمُّ أَوَّلُ الْإِرَادَةِ[٤]، فَالْإِنْسَانُ لَهُ إِرَادَةٌ دَائِماً، وَكُلُّ إِرَادَةٍ فَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ مُرَادٍ تَنْتَهِي إِلَيْهِ[٥]، فَلَا بُدَّ لِكُلِّ عَبْدٍ مِنْ مُرَادٍ مَحْبُوبٍ هُوَ مُنْتَهَى حُبِّهِ وَإِرَادَتِهِ[٦]، فَمَنْ لَمْ يَكُنِ اللهُ مَعْبُودَهُ وَمُنْتَهَى حُبِّهِ وَإِرَادَتِهِ بَلِ اسْتَكْبَرَ

الشَّرْح

= لأنهم عبيد ولا بد لهم من العبادة، فمن لم يعبد الله عبد غيره، فإذا قرأت تاريخ المشركين وأصنامهم تعجبت من كونهم يعبدون هذه الأشياء وينسون الله ﷻ. لكن كما قال ابن القيم رحمه الله:

هربوا من الرق الذي خلقوا له ... فبلوا برق النفس والشيطان

[١] **هو يريد أن يفعل** فهو ليس جامداً بل خلقه الله متحركاً حساساً لا بد أن يتحرك بشيء: فإما أن يتحرك بالحق، وإما أن يتحرك بالباطل.

[٢] كما قال ﷺ: (**أَصْدَقُ الْأَسْمَاءِ حَارِثٌ وَهَمَّامٌ**) وأحب الأسماء إلى الله عبد الله، وعبد الرحمٰن، فالإنسان إما حارث يعمل بالفعل، وإما همام يهم بالعمل، ويفكر في العمل.

[٣] **أي**: الذي يعمل.

[٤] **أي**: النية، فينوي أن يشتغل ثم يشتغل.

[٥] **فالإرادة في الإنسان لا تبقى بلا نهاية**، بل لا بد أن تنتهي إلى مراد تنفذ فيه إرادتها.

[٦] **وذلك إما بالخير وإما بالشر**، فالإنسان بطبيعته عبد: إما أن يعبد الله، =

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٥٠).

عَـنْ ذَلِكَ فَـلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لَـهُ مُـرَادٌ مَحْبُـوبٌ يَسْتَعْبِـدُهُ غَيْرُ اللهِ، فَيَكُـونُ عَبْداً لِذَلِكَ الْمُرَادِ الْمَحْبُوبِ[١]: إِمَّا الْمَـالُ وَإِمَّا الْجَـاهُ، وَإِمَّـا الصُّوَرُ[٢]، وَإِمَّا مَـا يَتَّخِذُهُ إِلٰهاً مِنْ دُونِ اللهِ؛ كَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْكَوَاكِبِ، وَالْأَوْثَانِ، وَقُبُورِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ، أَوْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ[٣] الَّذِينَ يَتَّخِذُهُمْ أَرْبَاباً، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا عُبِدَ مِنْ دُونِ اللهِ.

وَإِذَا كَانَ عَبْداً لِغَيْرِ اللهِ يَكُونُ مُشْرِكاً، وَكُلُّ مُسْتَكْبِرٍ فَهُوَ

الشَّرح

= أو يعبد الأشجار والأحجار والأصنام أو آلهة متعددة، قال يوسف عليه السلام لأصحاب السجن لما دعاهم إلى الله وهم مشركون: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩﴾ [يوسف: ٣٩].

[١] **فمن استكبر عن عبادة الله ابتُلي بعبادة غير الله**، حيث إنه لا يمكن أن يبقى من دون عبادة، وهذا شيء مشاهد وواقع قديماً وحديثاً. وكلٌّ يعبد ما تتجه إليه إرادته.

[٢] **أي**: صور النساء والعشق والغرام والشهوات، فيكون عبداً لشهوته.

[٣] **وهذا من الانحطاط أن يلجأ الإنسان العاقل** إلى ميت فانٍ يستغيث به ويدعوه ويتضرع إليه، ويذبح له وينذر له وهو ميت لا يملك لنفسه شيئاً، أو إلى حيٍّ غافلٍ عنه.

والله لم يأذن أن يُعبد غيره، لا ملكًا مقربًا ولا نبيًّا مرسلًا؛ لأن العبادة حق لله وكل الأنبياء دعوا إلى عبادة الله وترك عبادة ما سواه، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥]، كل رسول يُبعث بهذا، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦]، هذا أساس دعوة الرسل، الأمر بعبادة الله وترك عبادة ما سواه.

مُشْرِكٌ[١]؛ وَلِهَذَا كَانَ فِرْعَوْنُ مِنْ أَعْظَمِ الْخَلْقِ اسْتِكْبَاراً عَنْ عِبَادَةِ اللهِ، وَكَانَ مُشْرِكاً[٢]، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ

الشَّرْح

[١] **خلق الله الإنسان لعبادته**، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، فإذا عبد غير الله صار مشركاً، حتى ولو عبد الله وعبد معه غيره صار مشركاً، فالكافر مستكبر عن عبادة الله التي خُلق من أجلها، والاستكبار والشرك متلازمان، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠]، فالمستكبر إما أن يكون مستكبراً لا يعبد شيئاً، وإما أن يكون مستكبراً مشركاً يعبد غير الله فيكون مستكبراً مشركاً.

فالملاحدة ينكرون الرب في ظاهرهم، ويعترفون به في باطنهم، فكل عاقل يعرف أن هذا الكون لم يوجِد نفسه ولم يخلق نفسه، وإنما له خالق، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦]، فكل عاقل يدرك ذلك، سواء اعترف به ظاهراً وباطناً أو اعترف به باطناً وأنكره ظاهراً؛ كفرعون وغيره من المستكبرين. والمشركون لم يدَّعوا أن آلهتهم تخلق شيئاً فقد تحداهم الله فقال: ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ [فاطر: ٤٠] فلم يجيبوا.

[٢] **كان مشركاً لأنه ادَّعى الربوبية فجعل نفسه شريكا لله** ﷻ، قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: ٢٤]، مع أنه يعلم في قرارة نفسه أن لا ربَّ إلا الله ـ جلّ وعلا ـ، ولكن حمله الاستكبار والطغيان على أن جعل نفسه شريكاً لله في الربوبية.

وقصة فرعون مع موسى ذكرها الله في مواضع من القرآن، للعبرة والعظة، ومن المواضع التي ذكرها الله فيها سورة (غافر): قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾﴾ [غافر: ٢٣]، والآيات هي: =

مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾ [غافر: ٢٣، ٢٤]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾ [غافر: ٢٧]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر: ٣٥][١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَٰتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [العنكبوت: ٣٩][٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ

الشرح

= المعجزات، وسلطان؛ **أي**: حجة ظاهرة، ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾ [غافر: ٢٤] جحدوا رسالة موسى ووصفوه بأنه ساحر وأنه كذاب، استكباراً؛ ولهذا قال موسى عليه السلام: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾، فما منعهم من اتباع موسى إلا الكبر الذي منع فرعون، وإلا فهو يعلم في قرارة نفسه أن موسى صادق، وأن الله هو الرب وحده؛ ولهذا قال له موسى لما جاءه بتسع آيات ولم يؤمن بها: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾، فهو يعلم في قرارة نفسه أن موسى صادق وهم يعلمون ذلك، وأن الله هو الرب وحده؛ ولهذا قال الله: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ١٤]، جحدوا بها: ظاهراً، واستيقنتها أنفسهم: باطناً والجحود إنما يكون لشيء معلوم.

[١] **فالله يطبع على قلب المتكبر عقوبة له**، فلا يقبل الحق بعدما وضحت له الأدلة والبراهين، ولم يؤمن.

[٢] **قارون من قوم موسى صاحب المال والثروة الذي طغى وتكبر بسبب ذلك**، وفرعون: ملك مصر، وهامان: وزير فرعون الذي قال له: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ السَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ =

فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٤﴾ [القصص: ٤][١].

الشَّرح

= [غافر: ٣٦، ٣٧]، يقول هذا من باب الكبر، وإلا فإنه يعلم أنه كاذب وأنه لن يرقى إلى السماء، وفي هذا دليل على أن موسى أخبره أن الله في السماء، فهذا من أدلة علو الله فوق مخلوقاته، والآيات الدالة على ذلك أمامه واضحة، لكنه يريد أن يعلو في عيون قومه بكبريائه، نسأل الله العافية، ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ البينات: هي الحجج الواضحة، فاستكبروا فمنعهم الكبر من الإيمان بهذه الآيات، ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ۝٣٩﴾ [العنكبوت: ٣٩]؛ أي: لم ينجُوا من عذاب الله ولم يخرجوا عن قبضة الله ﷻ فلا أحد يسبق الله ويفوت عليه مهما بلغ من الجبروت، ومن العتو، فإنه في قبضة الله ﷻ ولا خروج له عنها، قال تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ۝٤﴾ [العنكبوت: ٤]، فلا أحد يسبق الله ـ جلّ وعلا ـ ولا يفوت عليه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ ۝٥٩﴾ [الأنفال: ٥٩].

[١] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٥﴾ [القصص: ٤، ٥] ذكر الله في أول سورة (القصص) بعضاً من جبروت فرعون، وذكر نشأة موسى عليه السلام، وبعثة الله له رسولاً لفرعون، وذكر ما عليه فرعون من الظلم والتسلط على عباد الله وفيهم بنو إسرائيل ذرية الأنبياء، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ﴾ [القصص: ٤]، وهم: بنو إسرائيل، ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ۝٦﴾ [القصص: ٥، ٦]، وقد تحقق كل هذا على يد =

وَمِثْلُ هَذَا فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ[١].

وَقَدْ وُصِفَ فِرْعَوْنُ بِالشِّرْكِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧][٢]؛ بَلِ الِاسْتِقْرَاءُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كُلَّمَا كَانَ الرَّجُلُ أَعْظَمَ اسْتِكْبَاراً عَنْ عِبَادَةِ اللهِ كَانَ أَعْظَمَ إِشْرَاكاً بِاللهِ[٣]؛ لِأَنَّهُ كُلَّمَا اسْتَكْبَرَ عَنْ عِبَادَةِ اللهِ ازْدَادَ فَقْرُهُ وَحَاجَتُهُ إِلَى الْمُرَادِ الْمَحْبُوبِ الَّذِي هُوَ الْمَقْصُودُ: مَقْصُودُ الْقَلْبِ بِالْقَصْدِ الْأَوَّلِ، فَيَكُونُ مُشْرِكاً بِمَا اسْتَعْبَدَهُ

الشَّرْح

= موسى رسول الله، وكليمه عليه الصلاة والسلام. فأهلك الله فرعون وقومه ومكّن لبني إسرائيل في الأرض، قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف: ١٣٧].

[١] **أي**: ما قصه الله عن الجبابرة والطغاة؛ كقصة النمرود مع إبراهيم عليه السلام، وقصة الكفار مع محمد ﷺ، فإن مآل الطغاة والبغاة والمستكبرين واحد وهو الخسار والبوار، وأن العاقبة للمتقين في كل زمان، ولكن هذا يحتاج إلى جهاد وإلى صبر، وإلى انتظار النصر من الله عز وجل وعدم اليأس، وإلا فالعاقبة للمتقين.

[٢] **وفي قراءة (إلاهتك)؛ يعني**: وعبادتك، والإلٰه هو: المعبود، فهم عبدوا فرعون وأحبوه حب عبادة واتخذوه ربّاً، وذلك شرك بالله؛ فهو أشرك نفسه مع الله ـ جلّ وعلا ـ. وقومه جعلوه شريكاً لله وخوفوا فرعون من أن يسلبه إلٰهيته لما دعاه وقومه إلى عبادة الله.

[٣] **فمن تتبع الآيات وقصص الأمم** فإنه يدله الاستقراء على أنه كلما كان العبد أشد تكبراً كان أعظم شركاً بالله عز وجل، فالكبر يحمل على الشرك.

مِنْ ذَلِكَ. وَلَنْ يَسْتَغْنِيَ الْقَلْبُ عَنْ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ[١] إِلَّا بِأَنْ يَكُونَ اللهُ هُوَ مَوْلَاهُ الَّذِي لَا يَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، وَلَا يَسْتَعِينُ إِلَّا بِهِ، وَلَا يَتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيْهِ وَلَا يَفْرَحُ إِلَّا بِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وَلَا يَكْرَهُ إِلَّا مَا يُبْغِضُهُ الرَّبُّ وَيَكْرَهُهُ، وَلَا يُوَالِي إِلَّا مَنْ وَالَاهُ اللهُ، وَلَا يُعَادِي إِلَّا مَنْ عَادَاهُ اللهُ، وَلَا يُحِبُّ إِلَّا اللهَ، وَلَا يُبْغِضُ شَيْئاً إِلَّا للهِ، وَلَا يُعْطِي إِلَّا للهِ، وَلَا يَمْنَعُ إِلَّا للهِ[٢]. فَكُلَّمَا قَوِيَ إِخْلَاصُ دِينِهِ للهِ كَمُلَتْ عُبُودِيَّتُهُ وَاسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَبِكَمَالِ عُبُودِيَّتِهِ للهِ يُبَرِّئُهُ مِنَ الْكِبْرِ وَالشِّرْكِ[٣].

الشَّرْح

[١] **أي**: لا يستغني القلب عن الخلق إلا إذا كان الله ـ جلّ وعلا ـ هو معبوده وحده لا شريك له، حينئذٍ يستغني عن غير الله عز وجل، ثم إذا ترك عبادة الله وَكَلَهُ الله للخلق؛ لأنه بنفسه لا يستطيع أن يحقق ما يصبو إليه من الكبر، فلا بد من الأعوان والأتباع والقوة، فهو يحتاج إلى الناس، لكن لو استغنى بالله لأغناه الله عن جميع الخلق، وتولاه ونصره وأعزه ورفعه في الدنيا والآخرة. ولذلك قال: (**إِلَّا بِأَنْ يَكُونَ اللهُ هُوَ مَوْلَاهُ الَّذِي لَا يَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ**).

[٢] **هذا كمال العبودية لله** عز وجل، أن يحب الله ويعبده، ثم يحب من يحبه الله، ويحب ما يحبه الله من الأعمال، ومن يحبه الله من الصالحين.

[٣] **فإذا تحرر بعبادة الله وحده من الشرك**، فإنه يتحرر من الكبر، ويتحرر من الشرك، ويكون عبداً مخلصاً لله عز وجل، حينئذٍ يتولاه الله ويعينه ويمده بنصره، ويجعل العاقبة له في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾ [فاطر: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [المنافقون: ٨].

وَالشِّرْكُ غَالِبٌ عَلَى النَّصَارَى وَالْكِبْرُ غَالِبٌ عَلَى الْيَهُودِ[١].

الشَّرْح

[١] **(وَالشِّرْكُ غَالِبٌ عَلَى النَّصَارَى وَالْكِبْرُ غَالِبٌ عَلَى الْيَهُودِ) هما متلازمان لكن يغلب أحدهما عند الأمتين:** اليهود والنصارى.

● **أولاً: (فالشرك يغلب على النصارى)**: قال تعالى في النصارى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١]؛ فالنصارى أشركوا بالله حيث اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، والأحبار هم: العلماء، والرهبان هم: العبَّاد، واتخذوا المسيح أيضاً ربّاً وإلٰهاً من دون الله ﷻ، وقد بيّن النبي ﷺ كيف اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، حيث إنهم كانوا يحرمون عليهم الحلال، ويحلون لهم الحرام، فيطيعونهم في تحريم الحلال وتحليل الحرام(١). والتشريع حق لله دون غيره، فهو ﷻ الذي يحرم ويحلل، والتزام ذلك عبادة لله ﷻ، فلا حرام إلا ما حرمه الله ولا حلال إلا ما أحل الله، فمن أطاع المخلوقين فيما يحلون ويحرمون وهو يعلم أنهم أحلوا ما حرم الله، وحرموا ما أحل الله، فهذا شرك أكبر؛ ولهذا قال: ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾؛ فالشرك بدعاء المخلوقين وتشريع المخلوقين غالب على النصارى، قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١]. ومثلهم الصوفية الذين اتخذوا شيوخهم وشيوخ الطريقة التي يتبعونها مشرعين لهم، ومثلهم القبورية الذين اتخذوا الأولياء والصالحين أرباباً ووسائط وشفعاء عند الله، ومثلهم أصحاب الأهواء الذين اتخذوا من أقوال العلماء سُلَّماً لما يريدون ولو كانت هذه الأقوال مخالفة للدليل من الكتاب والسُّنَّة. =

(١) سنن البيهقي (٢٠١٣٧) والترمذي (٣٠٩٥).

قَالَ تَعَالَى فِي النَّصَارَى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١]، وَقَالَ فِي الْيَهُودِ: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة: ٨٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ﴾ [الأعراف: ١٤٦][١]، وَلَمَّا كَانَ الْكِبْرُ مُسْتَلْزِماً لِلشِّرْكِ،

الشَّرح

= والأنبياء يطاعون لأنهم مبلِّغون عن الله ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [النساء: ٦٤]، ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ﴾ [النساء: ٨٠]، والعلماء يطاعون فيما وافق الأنبياء، ولا تجوز عبادتهم وإنما العبادة حق لله ـ جلّ وعلا ـ، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ فما أمروا أن يعبدوا المسيح ولا أن يعبدوا الأحبار والرهبان ولا أن يعبدوا الأولياء والصالحين.

• **ثانياً: (الْكِبْرُ غَالِبٌ عَلَى الْيَهُودِ)**، قال تعالى عنهم: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة: ٨٧]، فكلما جاء اليهود رسول يخالف أهواءهم استكبروا عن طاعته فهم: إما أن يكذبوه، وإما أن يقتلوه. ومثلهم من ينتقد علماء الشريعة الآن ويقول: لا كهنوت في الإسلام وليس هناك أحد فوق النقد، فهذا استكبار على العلماء الذين هم ورثة الأنبياء.

• **الكبر سبب لصرف القلوب عن قبول الحق:**

[١] قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ **أي**: =

وَالشِّرْكُ ضِدُّ الْإِسْلَامِ، وَهُوَ الذَّنْبُ الَّذِي لَا يَغْفِرُهُ اللهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: ٤٨]، وَقَالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء: ١١٦].

كَانَ الْأَنْبِيَاءُ جَمِيعُهُمْ مَبْعُوثِينَ بِدِينِ الْإِسْلَامِ، فَهُوَ الدِّينُ الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللهُ غَيْرَهُ، لَا مِنَ الأَوَّلِينَ وَلَا مِنَ الآخرين. قَالَ نُوحٌ: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [يونس: ٧٢]، وَقَالَ فِي حَقِّ إِبْرَاهِيمَ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن

الشَّرْح

= إذا رأوا الدليل والبرهان لم يقبلوه والسبب هو الكبر، فبسببه يصرفهم الله عن آياته، فنتج عن ذلك، ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ﴾ الذي جاءت به الرسل ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ﴾ الذي جاء به طواغيتهم ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ والسبب، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأعراف: ١٤٦، ١٤٧].

فالله أخبر أنه سيصرف عن آياته الذين يتكبرون، فالذي يستكبر عن قبول الدليل يصرفه الله عن الانتفاع بالآيات، وهذا شأن الكفار والملاحدة والمنافقين في كل وقت، وفي وقتنا هذا ظاهر على الذين يأخذون الباطل ويتركون الحق، فإذا قيل لهم: هذا كتاب الله، وهذه سُنَّة رسول الله ﷺ؛ صدوا وأعرضوا، وإذا قيل لهم: هذا ما عليه الغرب والحضارة فرحوا وأخذوه. كما قال الشاعر:

تخذتم علوم الغرب شرعاً كأنما ... فلاسفة اليونان هم أنبياؤكم

مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٠ ـ ١٣٢]، وَقَالَ يُوسُفُ: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف: ١٠١]، وَقَالَ مُوسَى: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [يونس: ٨٤، ٨٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [المائدة: ٤٤]، وَقَالَتْ بلقيس: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [النمل: ٤٤]، وَقَالَ: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة: ١١١]، وَقَالَ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ﴾ [آل عمران: ١٩]، وَقَالَ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣]، فَذَكَرَ إِسْلَامَ الْكَائِنَاتِ طَوْعاً وَكَرْهاً، لِأَنَّ الْمَخْلُوقَاتِ جَمِيعَهَا مُتَعَبِّدَةٌ لَهُ التَّعَبُّدَ الْعَامَّ، سَوَاءٌ أَقَرَّ الْمُقِرُّ بِذَلِكَ أَوْ أَنْكَرَهُ، وَهُمْ مَدِينُونَ مُدَبَّرُون؛ فَهُمْ مُسْلِمُونَ لَهُ طَوْعاً وَكَرْهاً، لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ خُرُوجٌ عَمَّا شَاءَهُ وَقَدَّرَهُ وَقَضَاهُ[١]، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا

الشَّرْح

[١] **الإسلام الذي هو الخضوع لأقدار الله الكونية**، فهو عام لجميع الخلق وهو إسلام اضطراري ولهذا قال الشيخ: (**لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ خُرُوجٌ عَمَّا شَاءَهُ وَقَدَّرَهُ وَقَضَاهُ**): فكل الخلق عباد الله مؤمنهم وكافرهم، ولكن =

بِهِ[١]، وَهُـوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَمَلِيكُهُمْ يُصَرِّفُهُـمْ كَيْفَ يَشَاءُ[٢]، وَهُـوَ خَالِقُهُمْ كُلِّهِمْ[٣]، ....

الشَّرْح

= منهم من هو عبد لله باختياره وطوعه، ومنهم من هو عبد لله بغير اختياره وطوعه، قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ۝٩٣﴾ [مريم: ٩٣]، فالعبودية قسمان: عبودية عامة يدخل فيها كل المخلوقات، وعبودية خاصة وتكون للمؤمنين خاصة.

[١] **أي:** لا قدرة من تحول من حال إلى حال إلا بالله ﷻ.

[٢] **هو رب جميع العالمين،** ربوبية عامة ومليكهم فلا أحد يخرج عن ربوبيته، وعن ملكه، وإن كفر، وإن أشرك، وإن ألحد، لا يخرج عن كونه عبداً لله العبودية العامة الاضطرارية.

[٣] **فلا أحد خلقهم إلا الله،** ولم يخلقوا أنفسهم، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾ [الزخرف: ٨٧]، يعترفون بهذا وأن أحداً لم يخلقهم غير الله، ولو ادُّعِيَ أن أحداً يخلق غير الله لقيل له: أين ما خلقه، بَيِّنْه، كما قال الله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [فاطر: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾ [الحج: ٧٣].

- **[دين الإسلام دين الأنبياء جميعاً]:**

لما كان دين الكفار الشرك كان جميع الأنبياء مبعوثين بدين الإسلام الذي هو ضد الشرك وهو الأمر بعبادة الله والنهي عن عبادة ما سواه، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦]، فلا يأتي الأمر بالتوحيد إلا مقروناً به النهي عن الشرك؛ لأنه لا يصح التوحيد إلا بترك الشرك، فلا يكون إنسان موحداً =

الشَّرْح

= خالصاً ومشركاً في آنٍ واحد، فهما ضدان لا يجتمعان، فالمشركون كان عندهم عبادات فبعضهم يتصدقون ويصلون الأرحام ويتقربون إلى الله، ولكن عندهم شرك يحبط هذا الأعمال. والرسل كلهم جاءوا بالأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك:

١ ـ قال تعالى عن نوح: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [يونس: ٧٢].

٢ ـ قال تعالى في حق إبراهيم: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٠ ـ ١٣٢].

٣ ـ قال تعالى عن يوسف أنه دعا ربه أن يتوفاه على الإسلام فقال: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف: ١٠١].

٤ ـ قال تعالى عن موسى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس: ٨٤].

٥ ـ وَقَال تَعَالى عن أهل التوراة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [المائدة: ٤٤] فوصف النبيين من بني إسرائيل ومن اتبعهم أنهم مسلمون.

٦ ـ قال تعالى عن بلقيس أنها قالت: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [النمل: ٤٤].

٧ ـ وقال عن الحواريين أتباع عيسى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة: ١١١]. =

الشَّرح

= ٨ ـ وأخبر ﷻ أن الدين الذي شرعه ويقبله من عباده هو الإسلام فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩] فكل من اتبع رسولاً من رسل الله قبل بعثة محمد ﷺ فهو مسلم، ولما بُعِثَ محمد ﷺ صار الإسلام هو ما جاء به فلا يقبل الله إلا ممن اتبعه، قال تعالى آمراً له أن يعلن ذلك: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] وقال ﷺ: **«لو أن موسى كان حيّاً ما وسعه إلا أن يتبعني»**(١).

وقال ﷺ: **«لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»**(٢).

فالإسلام الذي هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله هو دين الرسل كلهم، وإن كانت شرائعهم تختلف بحسب حاجتهم ولكن دينهم ـ وهو التوحيد ـ دين واحد، فكل من عبد الله بشريعة نبي في وقتها قبل أن تُنسخ؛ فهو مسلم.

ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، فقد حصر الدين في الإسلام وهو التوحيد وترك الشرك وعبادة الله بما شرع، وهو دين جميع الأنبياء، فلا سبيل للنجاة إلا بالتوحيد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له بما شرع في كل وقت بحسبه.

وقال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣]، فاليهود والنصارى يبغون غير دين الله الذي جاء به محمد ﷺ للناس كافة.

---

(١) مسند الإمام أحمد (١٥١٥٦). (٢) أخرجه مسلم (١٥٣).

وَبَارِئُهُمْ وَمُصَوِّرُهُمْ، وَكُلُّ مَا سِوَاهُ فَهُوَ مَرْبُوبٌ، مَصْنُوعٌ، مَفْطُورٌ، فَقِيرٌ، مُحْتَاجٌ، مُعَبَّدٌ، مَقْهُورٌ، وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ.

وَهُوَ وَإِنْ كَانَ قَدْ خَلَقَ مَا خَلَقَهُ بِأَسْبَابٍ، فَهُوَ خَالِقُ السَّبَبِ وَالْمُقَدِّرُ لَهُ[١]، وَهُوَ مُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ كَافْتِقَارِ هَذَا، وَلَيْسَ فِي الْمَخْلُوقَاتِ سَبَبٌ مُسْتَقِلٌّ[٢] بِفِعْلٍ وَلَا دَفْعِ ضَرَرٍ بَلْ كُلُّ مَا هُوَ سَبَبٌ فَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى سَبَبٍ آخَرَ يُعَاوِنُهُ وَإِلَى مَا يَدْفَعُ عَنْهُ الضِّدَّ الَّذِي يُعَارِضُهُ وَيُمَانِعُهُ.

وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَحْدَهُ الْغَنِيُّ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ، لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ يُعَاوِنُهُ وَلَا ضِدٌّ يُنَاوِئُهُ وَيُعَارِضُهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ

الشَّرْح

● **كون الحوادث مبنية على أسباب؛ فالأسباب مخلوقة لله لا تستقل بنفسها:**

[١] **فهو الخالق لكل شيء وإن كان بعض الأشياء يوجد بأسباب**، مثل الولد يوجد بسبب الزواج والاتصال الجنسي، ولكن من الذي خلق وقدر الزواج وخلق الولد؟ هو الله، فكم من متزوج لا يرزق الأولاد؛ لأن الله لم يرد له ذلك، فالسبب وحده لا يكفي حتى يُقدر الله تأثيره فهو مسبب الأسباب، وهو الذي خلق الأسباب والمسببات. والأسباب أيضاً تحتاج إلى أسباب ولا تستقل بالتأثير.

[٢] ولهذا قال الشيخ: (**وَلَيْسَ فِي الْمَخْلُوقَاتِ سَبَبٌ مُسْتَقِلٌّ**): لإيجاد النتيجة المترتبة عليه إلا بانضمام أسباب أخرى إليه قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات: ٤٩]، أما الله تعالى فإنه لا يحتاج إلى من يعينه ولا أحد يمانعه ويضاده.

أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الـزمـر: ٣٨]، وَقَـالَ تَـعَـالَـى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنعام: ١٧].

وقَالَ تَعَالَى عَنِ الْخَلِيلِ: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ﴾، إِلَى قَوْله تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٧٨ ـ ٨٢][١].

الشَّرْح

[١] **ذكر الله ﷻ قصة محاجة إبراهيم الخليل** عليه السلام لقومه الذين يعبدون الكواكب، فبعثه الله إليهم يدعوهم إلى عبادة الله وترك عبادة الكواكب وقد ناظرهم على ذلك، كما ذكر الله ﷻ في سورة (الأنعام) أنه ناظرهم في إبطال عبادة الكواكب، قال الله ـ جلّ وعلا ـ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنعام: ٧٥]؛ وقد أعطاه الله من البراهين والعلم ما يَخصِم به المشركين، ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾؛ **يعني**: غطاه بظلامه، ﴿رَءَا كَوْكَبًا ۖ﴾؛ **أي**: نجماً، ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ﴾ يريد بذلك أن يُبطل بالمناظرة عبادة الكواكب، قال: ﴿هَٰذَا رَبِّى ۖ﴾؛ **أي**: بزعمكم؛ فهذا من باب التنزل معهم حتى يخصمهم، ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾؛ **أي**: غاب النجم، قال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأنعام: ٧٦]؛ لأن أفوله دلَّ على أنه مخلوق يُدَبَّر، وأنه يطلع ويغيب بأمر الله ﷻ، فهو يجري بأمر الله، فدل على أنه مخلوق وأنه مسير لا يصلح للعبادة.

=

الشَّرْح

= ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾، والقمر أكبر من النجم، ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾؛ أي: بزعمكم، ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾؛ أي: غاب القمر، قال: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأنعام: ٧٧]، فالقمر لا يصلح للعبادة؛ لأنه مسير، فأنا أطلب من ربي أن يهديني إلى الحق، وإلى المعبود الحق المنفرد بالخلق والتدبير. ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ الشمس أكبر من النجم وأكبر من القمر، ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ﴾؛ يعني: غابت، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأنعام: ٧٨]، حيث أصبحت الكواكب لا تصلح للعبادة؛ لأنها مسيرة مدبرة، فتبرأ من عبادتها؛ لأن عبادة النجوم والكواكب وغيرها شرك بالله ﷻ.

وهذا فيه وجوب البراءة من دين المشركين، ولا نقول: أنتم على دينكم ونحن على ديننا وكل بحسب قناعته. بل نقول: دينكم باطل؛ لأنه لم يُبْنَ على حق، ولا على براهين، وإذا كنا نصالحهم أحياناً ونأخذ منهم الجزية، فليس معنى ذلك أننا نسلم لهم دينهم، بل نعتقد بطلانه، ونتبرأ منه، وأما التعامل الدنيوي فهذا شيء مباح، وإن تعاهدنا معهم وصالحناهم وتعاملنا معهم، فإننا نبرأ من دينهم، ونبرأ منهم أيضاً ولا نحبهم.

ولما أبطل عبادة هذه الآلهة قال: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٩]؛ أي: أخلصت عملي وعبادتي للخالق الذي يدبر هذه الكائنات.

ولما خوَّفه قومه بآلهتهم قال: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ﴾؛ أي: كيف تهددوني بآلهتكم وأنتم لا تخافون الله ﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾ [الأنعام: ٨١] أنا الذي أعبد الله أم أنتم الذين تعبدون الأصنام؟!

ففصل الله بينهم فقال الله ـ جلّ وعلا ـ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢]، فالأمن للموحدين، =

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ؛ أَنَّ هَـذِهِ الآيَةَ لَمَّا نَزَلَتْ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ[١] وَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّنَا لَمْ يَلْبِسْ إِيمَانَهُ بِظُلْمٍ فَقَالَ: «**إِنَّمَا هُوَ الشِّرْكُ، أَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَى قَوْلِ الْعَبْدِ الصَّالِحِ**: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾[٢] [لقمان: ١٣]»(١)، وَإِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ إِمَامُ الْحُنَفَاءِ الْمُخْلِصِينَ، حَيْثُ بُعِثَ وَقَدْ طَبَقَ الأَرْضَ دِينُ الْمُشْرِكِينَ[٣]، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٢٤﴾ [البقرة: ١٢٤][٤]، فَبَيَّنَ أَنَّ عَهْدَهُ بِالإِمَامَةِ لَا يَتَنَاوَلُ الظَّالِمَ، فَلَمْ يَأْمُرِ اللهُ سُبْحَانَهُ

الشَّرْح

= وأما المشركون فليس لهم أمن، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

[١] قوله: (**شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ**): لأن الله قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]، فهم فهموا أن الظلم هو المعاصي، وقل من يسلم من المعاصي، فشق ذلك عليهم، فبيّن لهم ﷺ أن المراد بالظلم هنا الشرك.

[٢] فقال ﷺ: (**إِنَّمَا هُوَ الشِّرْكُ، أَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَى قَوْلِ الْعَبْدِ الصَّالِحِ**: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾)، العبد الصالح هو لقمان لما حذّر ابنه من الشرك، قال: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾ [لقمان: ١٣].

[٣] **فقد بُعث في أمة وثنية**، تعبد الكواكب وملكهم النمرود فأفحمهم إبراهيم بالحجة والبرهان على بطلان الشرك.

[٤] **لما قال له**: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ﴾؛ **أي**: قدوة في التوحيد =

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧٦).

أَنْ يَكُونَ الظَّالِمُ إِمَاماً، وَأَعْظَمُ الظُّلْمِ الشِّرْكُ[١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل: ١٢٠][٢]، و«الْأُمَّةُ» هُوَ مُعَلِّمُ الْخَيْرِ الَّذِي يُؤْتَمُّ بِهِ، كَمَا أَنَّ «الْقُدْوَةَ» الَّذِي يُقْتَدَى بِهِ. وَاللهُ تَعَالَى جَعَلَ فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ[٣]، ....

الشَّرح

= والدعوة طلب لذريته الإمامة من بعده، قال الله ـ جلّ وعلا ـ له: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾، فاستثنى الله منهم الظالم فلا يكون إماماً، وإنما الإمامة لغير الظالم منهم.

[١] **أما الظلم الذي دون الشرك**، فقد يقع من بعض الولاة ولا يمنع من إمامتهم وطاعتهم، وإنما المقصود هنا الشرك فالمشرك لا يكون إماماً وإن كان من ذرية إبراهيم.

- **سياق الآيات في مدح إبراهيم ومدح دينه:**

[٢] **وهذه الآية في أوصاف إبراهيم** عليه السلام:

- **الأولى**: ﴿كَانَ أُمَّةً﴾؛ **أي**: قدوة؛ لأن الأمة تُطلق ويُراد بها القدوة، وتُطلق ويُراد بها الجماعة من الناس، وتُطلق الأمة ويُراد بها الفترة من الزمن، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥]، والمراد هنا القدوة.

- **الثانية**: ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾؛ **أي**: هو مداوم على طاعة الله تبارك وتعالى، فالقنوت هنا يُراد به المداومة على الطاعة.

- **الثالثة**: ﴿حَنِيفًا﴾؛ **أي**: مقبلاً على الله، معرضاً عما سواه.

- **الرابعة**: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾؛ لأنه كان متبرئاً من المشركين ومن دينهم، فالبراءة من المشركين ومن دينهم من دين إبراهيم الخليل عليه السلام.

[٣] **ومن النعم التي أعطاها إياه جزاء له**، أنه جعل النبوة من بعده في ذريته، فكل الأنبياء الذين جاؤوا بعد إبراهيم عليه السلام هم من ذريته.

وَإِنَّمَا بَعَثَ الْأَنْبِيَاءَ بَعْدَهُ بِمِلَّتِهِ[١]، قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٣][٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عمران: ٦٨][٣]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران: ٦٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ

الشَّرح

[١] **بملة إبراهيم التي هي التوحيد**، وإن اختلفت شرائعهم، فملتهم وعقيدتهم واحدة وهي التوحيد الخالص لله ﷻ.

[٢] **هذا خطاب لخاتم النبيين من ولد إبراهيم وهو محمد** ﷺ، ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ في التوحيد والعقيدة والإخلاص لله. ولما ادعت اليهود والنصارى أن إبراهيم منهم وأنهم على دينه قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عمران: ٦٨].

[٣] **فهذا رد على اليهود والنصارى الذين ادَّعوا أنهم على ملة إبراهيم،** وأن إبراهيم منهم، فاليهود يدَّعون أن إبراهيم منهم، والنصارى كذلك يدَّعون أن إبراهيم منهم، ورد عليهم الله بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران: ٦٧]، ثم بيَّن من هو الذي على دين إبراهيم حقيقة فقال: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ واليهود لم يتبعوا إبراهيم، والنصارى لم يتبعوا إبراهيم عليه السلام، ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ **يعني**: محمداً ﷺ، فأولى الناس بإبراهيم محمد ﷺ وأمته؛ لأنهم اتبعوه، وأما اليهود والنصارى فليس لهم علاقة بإبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهو بريء منهم؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾ ـ إِلَى قَوْلِهِ ـ: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾ [البقرة: ١٣٥، ١٣٦][١].

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّ إِبْرَاهِيمَ خَيْرُ

الشَّرح

● **اليهود والنصارى يدعون المسلمين إلى اليهودية والنصرانية:**

[١] قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ﴾ [البقرة: ١٣٥]، اليهود يقولون للمسلمين: كونوا يهوداً تهتدوا، والنصارى يقولون للمسلمين: كونوا نصارى تهتدوا، وهذا من ضلالهم وإعجابهم بأنفسهم قال الله تعالى ردّاً عليهم: ﴿قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٣٥﴾ [البقرة: ١٣٥]؛ **أي:** بل نكون على ملة إبراهيم، وإذا أردتم الهداية كما تزعمون؛ فكونوا على ملة إبراهيم.

● **النهي عن التفرقة بين الأنبياء:**

* قال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾ [البقرة: ١٣٦]، فالمؤمن حقّاً لا يفرق بين الأنبياء فيؤمن ببعضهم ويكفر ببعضهم؛ بل يؤمن بهم جميعاً، فهذه الأمة المحمدية ـ ولله الحمد ـ لا تفرق بين الأنبياء، بل تؤمن بالجميع، وتقول: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾، ونحن مسلمون لله تعالى ونحن منقادون لأمر الله، ولا نفرق بين الأنبياء ثم قال: ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ﴾ [البقرة: ١٣٧] هذا رد عليهم، ومعنى ﴿بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾؛ **أي:** آمنوا بجميع الأنبياء، وبجميع الكتب فقد اهتدوا، ﴿وَّإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ وإن آمنوا ببعضهم فقط ﴿فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ﴾ خلاف معكم وعداوة: ﴿فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾ [البقرة: ١٣٧]؛ **أي:** يرد عنكم كيدهم وعداوتهم.

الْبَرِيَّةِ[١](١)، فَهُوَ أَفْضَلُ الْأَنْبِيَاءِ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ خَلِيلُ اللهِ تَعَالَى. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ أَنَّهُ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً**»(٢)، وَقَالَ: «**لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلاً لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً وَلَكِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللهِ**»[٢](٣) ـ يَعْنِي نَفْسَهُ ـ وَقَالَ: «**لَا يَبْقَيَنَّ فِي**

الشَّرْح

[١] **فضائل إبراهيم** عليه السلام:

١ ـ أخبر ﷺ أنَّ إبْرَاهِيمَ عليه السلام هو خَيْرُ الْبَرِيَّةِ وذلك بشهادة القرآن، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٢٠ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٢١﴾ [النحل: ١٢٠، ١٢١]، ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤].

٢ ـ (**فَهُوَ أَفْضَلُ الْأَنْبِيَاءِ بَعْدَ النَّبِيِّ محمد ﷺ**).

٣ ـ وإبراهيم عليه السلام، خليل الله، قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ۝١٢٥﴾ [النساء: ١٢٥]، والخلة: هي أعلى درجات المحبة ولم ينلها إلا إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام، فهما أفضل الأنبياء.

ومحمد خليل الله ﷺ قال: (**إِنَّ اللهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً**)، ثبت هذا في الصحيح.

- **خلة الله لا تقبل الاشتراك:**

[٢] **لماذا لم يتخذ النبي ﷺ أبا بكر خليلاً مع أنه يحبه؟** لأنه خليل الله، وخليل الله لا يتخذ معه خليلاً آخر.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٦٩).
(٢) أخرجه مسلم (٥٣٢).
(٣) أخرجه مسلم (٢٣٨٣).

الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلَّا سُدَّتْ إِلَّا خَوْخَةَ أَبِي بَكْرٍ»[١](١)، وَقَالَ: «**إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ**»[٢](٢).

وَكُلُّ هَـذَا فِي الصَّحِيحِ. وَفِيهِ؛ أَنَّهُ قَـالَ ذَلِكَ قَبْـلَ مَـوْتِهِ بِأَيَّامٍ[٣]،

الشَّرْح

[١] **ومما يدل على شدة محبة النبي ﷺ لأبي بكر قوله ﷺ: (لَا يَبْقَيَن فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلَّا سُدَّتْ إِلَّا خَوْخَةَ أَبِي بَكْرٍ)**، والخوخة: الباب، وهذا فيه أنه أحب الأمة إليه وأنه أفضل الصحابة بحيث لو اتخذ النبي ﷺ من أهل الأرض خليلاً لاتخذ أبا بكر.

ثم إنه لما قرب أجله ﷺ أمر بسد الأبواب التي تنفذ من بيوت الصحابة إلى المسجد إلا الباب الذي يدخل منه أبو بكر، وهذا إشارة إلى أنه الإمام في الصلاة والخليفة من بعده.

[٢] **أي**: من اليهود والنصارى، **(كَانُوا يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ)**؛ **بمعنى**: أنهم يصلون عندها تقرباً إليها أو توسلاً بها، ومع تحذير النبي ﷺ من ذلك وقع في هذه الأمة من اتخذ القبور مساجد وبنى عليها، والنبي ﷺ يقول: **(أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ)**.

- **تحذير النبي ﷺ من الغلو في قبره:**

[٣] **أي**: حذَّر من اتخاذ القبور مساجد قبل موته بمدة قليلة من باب النصح للأمة، ومن باب أنه يخشى أن يغلوا في قبره ﷺ، فلا تجوز الصلاة عند القبور، لا قبور الأنبياء ولا قبور الصالحين مطلقاً، سدّاً لوسيلة الشرك، فهذا فيه كمال إبلاغه ﷺ؛ حيث إنه عند الموت حذَّر منه؛ خوفاً على الأمة من بعده أن تتخذ قبره مسجداً مثل ما فعلت الأمم السابقة، وأن تقع فيما وقع =

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٧). (٢) أخرجه مسلم (٥٣٢).

وَذَلِكَ مِنْ تَمَامِ رِسَالَتِهِ[١]. فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَحْقِيقُ تَمَامِ مُخَالَّتِهِ للهِ الَّتِي أَصْلُهَا مَحَبَّةُ اللهِ تَعَالَى لِلْعَبْدِ، وَمَحَبَّةُ الْعَبْدِ للهِ خِلَافاً للجهمية[٢].

وَفِي ذَلِكَ تَحْقِيقُ تَوْحِيدِ اللهِ[٣]، وَأَنْ لَا يَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ، وَرَدُّ

الشَّرْح

= فيه اليهود والنصارى من اتخاذ قبور أنبيائهم مساجد، وهذا من كمال شفقته ﷺ وكمال نصحه، وكمال البلاغ للأمة.

[١] **لأن الله بعثه مبلغاً وناصحاً ومعلماً**، وقد أكمل ذلك كله، فما توفي ﷺ إلا وقد أكمل الله به الدين، كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، وقد نزلت هذه الآية قبل وفاته ﷺ في حجة الوداع، فمن كمال رسالته ومهمته ﷺ، أنه حذر في آخر حياته وعند موته من اتخاذ القبور مساجد، (**فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَحْقِيقُ تَمَامِ مُخَالَّتِهِ للهِ الَّتِي أَصْلُهَا مَحَبَّةُ اللهِ تَعَالَى لِلْعَبْدِ، وَمَحَبَّةُ الْعَبْدِ للهِ خِلَافاً للجهمية**) هذا معنى الخلة.

[٢] **فالجهمية ينفون وصف الله بالمحبة**، ويقولون: الله لا يُحب أحداً من خلقه؛ لأن هذا من صفات البشر، والله منزه عن صفات البشر. ولم يفرقوا بين صفات الله وصفات البشر، فلم يفرقوا بين المحبة في حق الله والمحبة في حق البشر؛ لذلك نفوا أن يكون الله يحب أحداً من خلقه، وهذا مخالف لقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، فأثبت أنه يحبهم ويحبونه.

[٣] **أي**: في النهي عن اتخاذ القبور مساجد تحقيق التوحيد، وهو تصفيته من الشرك والبدع، وفي ذلك كمال التوحيد، فهناك توحيد وهناك تحقيق التوحيد، فالمؤمنون كلهم موحدون ولله الحمد، ولكن لم يحقق التوحيد منهم إلا القليل، الذين بلغوا مرتبة السابقين، المقربين، وهم الذين حققوا التوحيد، ومن حقق التوحيد دخل الجنة بلا حساب ولا عذاب، أما بقية الموحدين فهم يدخلون الجنة ولكن هناك حساب وهناك عذاب لبعضهم، ثم يدخلون الجنة بعده.

عَلَى أَشْبَاهِ الْمُشْرِكِينَ[١]. وَفِيهِ رَدٌّ عَلَى الرَّافِضَةِ الَّذِينَ يَبْخَسُونَ الصِّدِّيقَ حَقَّهُ، وَهُمْ أَعْظَمُ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى الْقِبْلَةِ إِشْرَاكاً بِالْبَشَرِ[٢].

وَ«الْخُلَّةُ»[٣] هِيَ كَمَالُ الْمَحَبَّةِ الْمُسْتَلْزِمَةِ مِنَ الْعَبْدِ كَمَالَ الْعُبُودِيَّةِ للهِ، وَمِنَ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ كَمَالَ الرُّبُوبِيَّةِ لِعِبَادِهِ الَّذِينَ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ، وَلَفْظُ الْعُبُودِيَّةِ يَتَضَمَّنُ كَمَالَ الذُّلِّ، وَكَمَالَ الْحُبِّ[٤]، فَإِنَّهُمْ

الشَّرْح

[١] **أشباه المشركين**: هم الذين يسوِّغون الصلاة عند القبور، ويسوغون البدع والمحدثات.

[٢] **الرافضة من فرق الشيعة وهم الجعفرية** الذين يسبون أبا بكر الصديق رضي الله عنه ويتنقصونه، مع أن الرسول ﷺ قال في حقه: (**لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلاً لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً**)، وفي ذلك فضل الصديق، ومحبة الرسول ﷺ له، والرافضة (**هُمْ أَعْظَمُ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى الْقِبْلَةِ إِشْرَاكاً بِالْبَشَرِ**) المنتسبون إلى القبلة هم الذين يصلون إلى الكعبة؛ فالرافضة يصلون إلى الكعبة فهم من الفرق المنتسبة إلى الإسلام، وهم أشد الناس إشراكاً بالبشر؛ لأنهم يعتقدون في أئمتهم العصمة ويدعونهم من دون الله ويبنون على قبورهم الأضرحة ويتقربون إليهم بأنواع العبادة ومع هذا ينتقصون صديق الأمة وينكرون فضله وخلافته بعد الرسول ﷺ، وهم أعظم الناس نقصاً وابتداعاً وإشراكاً.

[٣] **بيان معنى الخلة**:

الخلة: هي أعلى درجات المحبة، والله ـ جلّ وعلا ـ يحب كل مؤمن، وكل متَّقٍ، وكل محسن، ولكن لم يبلغ أعلى درجات المحبة منهم، وهي الخلة إلا إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام.

[٤] **العبودية هي كمال الحب مع كمال الذل لله** عز وجل؛ فالمحبة التي معها ذل وخضوع للمحبوب عبودية، وأما المحبة التي ليس معها ذل للمحبوب =

يَقُولُـونَ: قَلْبٌ مُتَيَّمٌ إِذَا كَانَ مُتَعَبِّداً لِلْمَحْبُوبِ[١]، وَالْمُتَيَّمُ الْمُتَعَبِّدُ، وَتَيْمُ اللهِ عَبْدُهُ، وَهَذَا عَلَى الْكَمَالِ حَصَلَ لِإِبْرَاهِيمَ، وَمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ

الشَّرْح

= فليست عبودية، فمحبة المال والزوجة والأولاد والصديق محبة طبيعية ليس معها ذل، والذل الذي ليس معه محبة كما يذل الرجل للظالم والجبار، لكنه لا يحبه ليس ذلك عبودية، أما المحبة التي معها ذل وخضوع للمحبوب، فهي عبودية، فإن كان ذلك لله فهذه عبادة الله وصاحبها هو المؤمن، وإن كان ذلك لغير الله فصاحبها هو المشرك، فالمشرك يحب معبوداته حبّاً عظيماً فهو لم يعبدها إلا لأنه يحبها، ويذل لها، ويقاتل دونها، قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

وعبادة الرحمٰن غاية حبه ... مع ذل عابده هما قطبان
وعليهما فلك العبادة دائر ... ما دار حتى قامت القطبان
ومداره بالأمر أمر رسوله ... لا بالهوى والنفس والشيطان

والصوفية يقولون: العبودية هي المحبة فقط، ولا يُدخلون الخوف والرجاء في العبودية؛ لأنهم يقولون: هذه عبودية التجار، نحن نعبد الله لأننا نحبه، وليس لأننا نخافه أو نرجوه.

يقول أحدهم: لا أعبده خوفاً من ناره ولا طمعاً في جنته، وإنما أعبده لأنني أحبه فقط، وهذا ضلال مبين، فالرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يخافون ربهم ويرجونه، وهم أكمل الناس عبودية، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٧]، فهم جمعوا بين المحبة والخوف والرجاء.

[١] **التتيم درجة من درجات المحبة**، كما يقولون: تيم الله؛ **أي**: حبيب الله.

عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ[١]، وَلِهَذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلٌ؛ إِذِ الْخُلَّةُ لَا تَحْتَمِلُ الشَّرِكَةَ[٢]، فَإِنَّهُ كَمَا قِيلَ فِي الْمَعْنَى:

قَدْ تَخَلَّلْتَ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنِّي ... وَبِذَا سُمِّي الْخَلِيلُ خَلِيلاً

بِخِلَافِ أَصْلِ الْحُبِّ فَإِنَّهُ ﷺ قَدْ قَالَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ فِي الْحَسَنِ وَأُسَامَةَ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُمَا فَأَحِبَّهُمَا وَأَحِبَّ مَنْ يُحِبُّهُمَا**»[٣](١)، وَسَأَلَهُ عَمْرُو بْنُ العاص: أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: «**عَائِشَةُ**». قَالَ: فَمِنَ الرِّجَالِ؟ قَالَ: «**أَبُوهَا**»(٢)، وَقَالَ لِعَلِيٍّ: «**لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ رَجُلاً يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللهُ**

الشَّرْح

[١] **أي**: تمام المحبة هو الخلة وقد حصلت لشخصين فقط هما: إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام.

[٢] **أي**: لم يكن لمحمد ﷺ خليل من البشر؛ لأنه خليل الله، والخلة التي بين الله وبين عبده لا تقبل الشركة، ولذلك قال ﷺ: «**إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل**»(٣)، ومع هذا قال ﷺ: «**لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الله**».

[٣] **فإنه ﷺ يحب أصحابه كلهم**، وقد قال في الحديث الصحيح فِي الحسن وَأُسَامَةَ: (**اللَّهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُمَا فَأَحِبَّهُمَا وَأَحِبَّ مَنْ يُحِبُّهُمَا**)، فالرسول يحب أصحابه كلهم، لكن منهم من يحبه أكثر من غيره؛ كالحسن بن علي وكأسامة بن زيد، فإن الرسول ﷺ يحبهما أشد من غيرهما، وكذلك محبته لأبي بكر الصديق، ولبقية أصحابه، فهو يحبهم، ولكن ليس منهم أحد اتخذه الرسول ﷺ خليلاً؛ لأن الخلة لا تقبل الاشتراك.

(١) أخرجه البخاري (٣٧٤٧).
(٢) أخرجه مسلم (٢٣٨٤).
(٣) أخرجه مسلم (٥٣٢).

وَرَسُولُهُ»[١](١)، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرٌ.

وَقَدْ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ، وَيُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ، وَيُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ، وَيُحِبُّ التَّوَّابِينَ، وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ[٢]، وَيُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ، وَقَالَ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]. فَقَدْ أَخْبَرَ بِمَحَبَّتِهِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَحَبَّةِ الْمُؤْمِنِينَ لَهُ، حَتَّى قَالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وَأَمَّا الْخُلَّةُ فَخَاصَّةٌ، وَقَوْلُ بَعْضِ النَّاسِ: إِنَّ مُحَمَّداً حَبِيبُ اللهِ؛ وَإِبْرَاهِيمَ خَلِيلُ اللهِ[٣]، وَظَنُّهُ أَنَّ الْمَحَبَّةَ فَوْقَ الْخُلَّةِ قَوْلٌ ضَعِيفٌ، فَإِنَّ مُحَمَّداً أَيْضاً خَلِيلُ اللهِ، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ الْمُسْتَفِيضَةِ، وَمَا يُرْوَى: «أَنَّ الْعَبَّاسَ يُحْشَرُ بَيْنَ حَبِيبٍ وَخَلِيلٍ»،

الشَّرْح

[١] فهذا فيه دليل على أن الرسول يحب أصحابه ويخص بعضهم بزيادة محبة، لكنه لم يتخذ منهم خليلاً.

[٢] **أخبر الله تعالى في آيات كثيرة أنه يحب المؤمنين**، والمتقين، والمحسنين، والتوابين، والمتطهرين؛ فالمحبة من الله مشتركة، بين المؤمنين، كلهم يحبهم الله، ولكن الخلة بين الله وبين عبده لا تقبل الاشتراك.

- **غلط بعض الناس في هذا المقام:**

[٣] **هذا خطأ، مع أنهم يرددون أن محمداً حبيب الله**، وهذا نقص في حق الرسول ﷺ، فالرسول ﷺ خليل الله، أما المحبة فهي مشتركة بين المؤمنين كلهم، فحبيب الله ليس وصفاً للرسول خاصة بخلاف الخلة، فإنها وصف خاص.

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٩).

وَأَمْثَالُ ذَلِكَ، فَأَحَادِيثُ مَوْضُوعَةٌ لَا تَصْلُحُ أَنْ يُعْتَمَدَ عَلَيْهَا.

وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ مِنْ مَحَبَّةِ اللهِ تَعَالَى مَحَبَّةَ مَا أَحَبَّ[١]، كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ كَانَ يُحِبُّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَمَنْ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَرْجِعَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ**»(١). أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ هَذِهِ الثَّلَاثَ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ؛ لِأَنَّ وَجْدَ الْحَلَاوَةِ بِالشَّيْءِ يَتْبَعُ الْمَحَبَّةَ لَهُ، فَمَنْ أَحَبَّ شَيْئاً أَوِ اشْتَهَاهُ إِذَا حَصَلَ لَهُ مُرَادُهُ فَإِنَّهُ يَجِدُ الْحَلَاوَةَ وَاللَّذَّةَ وَالسُّرُورَ بِذَلِكَ[٢].

الشَّرْح

[١] **محبة الله أصل عبوديته**، وهناك محبة تابعة لمحبة الله، وهي المحبة في الله، ولله؛ فمحبة الرسول ﷺ تابعة لمحبة الله، ومحبة المؤمنين من أجل الإيمان تابعة لمحبة الله، وهذا ما يسمى بالحب في الله، والخلة أعلى درجات المحبة، وليست المحبة أعلى من الخلة.

[٢] **والإيمان له حلاوة**، وليس كل مؤمن يجدها، بل يجدها الخواص من المؤمنين، قال ﷺ: (**ثلاث من كن فِيهِ وجد حلاوة الإيمَان**)، فإذا أراد المرء أن يختبر نفسه هل يجد حلاوة الإيمان؛ فإنه ينظر هل فيه الثلاث التي وردت بالحديث، وهي: (**مَنْ كَانَ الله وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ كَانَ يُحِبُّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَمَنْ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَرْجِعَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ الله مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ**)، فإذا كانت فيه هذه الثلاث فقد وجد حلاوة الإيمان.

=

(١) سبق تخريجه (ص١٦٤).

وَاللَّذَّةُ أَمْرٌ يَحْصُلُ عَقِيبَ إِدْرَاكِ الْمُلَائِمِ الَّذِي هُوَ الْمَحْبُوبُ أَوِ الْمُشْتَهَى. وَمَنْ قَالَ: إِنَّ اللَّذَّةَ إِدْرَاكُ الملائم، كَمَا يَقُولُهُ مَنْ يَقُولُهُ مِنَ الْمُتَفَلْسِفَةِ وَالْأَطِبَّاءِ، فَقَدْ غَلِطَ فِي ذَلِكَ غَلَطاً بَيِّناً؛ فَإِنَّ الْإِدْرَاكَ يَتَوَسَّطُ بَيْنَ الْمَحَبَّةِ وَاللَّذَّةِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ مَثَلاً يَشْتَهِي الطَّعَامَ فَإِذَا أَكَلَهُ حَصَلَ لَهُ عَقِيبَ ذَلِكَ اللَّذَّةُ، فَاللَّذَّةُ تَتْبَعُ النَّظَرَ إِلَى الشَّيْءِ، فَإِذَا نَظَرَ إِلَيْهِ الْتَذَّ، فَاللَّذَّةُ تَتْبَعُ النَّظَرَ لَيْسَتْ نَفْسَ النَّظَرِ، وَلَيْسَتْ هِيَ رُؤْيَةَ الشَّيْءِ؛ بَلْ تَحْصُلُ عَقِيبَ رُؤْيَتِهِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]، وَهَكَذَا جَمِيعُ مَا يَحْصُلُ لِلنَّفْسِ مِنَ اللَّذَّاتِ، وَالْآلَامِ، مِنْ فَرَحٍ وَحُزْنٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ يَحْصُلُ بِالشُّعُورِ بِالْمَحْبُوبِ، أَوِ الشُّعُورِ بِالْمَكْرُوهِ، وَلَيْسَ نَفْسُ الشُّعُورِ هُوَ الْفَرَحَ وَلَا الْحُزْنَ؛ فَحَلَاوَةُ الْإِيمَانِ الْمُتَضَمَّنَةُ مِنَ اللَّذَّةِ بِهِ وَالْفَرَحِ مَا يَجِدُهُ الْمُؤْمِنُ الْوَاجِدُ مِنْ حَلَاوَةِ الْإِيمَانِ تَتْبَعُ كَمَالَ مَحَبَّةِ الْعَبْدِ للهِ، وَذَلِكَ بِثَلَاثَةِ أُمُورٍ:

تَكْمِيلُ هَذِهِ الْمَحَبَّةِ، وَتَفْرِيعُهَا، وَدَفْعُ ضِدِّهَا.

«فَتَكْمِيلُهَا»: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا؛ فَإِنَّ مَحَبَّةَ اللهِ وَرَسُولِهِ لَا يُكْتَفَى فِيهَا بِأَصْلِ الْحُبِّ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا كَمَا تَقَدَّمَ.

الشَّرح

= والحلاوة: التلذذ بالإيمان وبالأعمال الصالحة، فقد يعمل الإنسان الأعمال الصالحة من باب الطاعة لا يجد لها لذة في أول الأمر، بل قد يجد لها مشقة وتعباً ومجاهدة مع النفس، وفي النهاية يتلذذ بها، فإذا تلذذ بها فهذا دليل على أنه وجد حلاوة الإيمان.

و«**تَفْرِيعُهَا**»: أَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ.

و«**دَفْعُ ضِدِّهَا**»: أَنْ يَكْرَهَ ضِدَّ الْإِيمَانِ أَعْظَمَ مِنْ كَرَاهَتِهِ الْإِلْقَاءَ فِي النَّارِ.

فَإِذَا كَانَتْ مَحَبَّةُ الرَّسُولِ وَالْمُؤْمِنِينَ مِنْ مَحَبَّةِ اللهِ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُحِبُّ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يُحِبُّهُمْ اللهُ؛ لِأَنَّهُ أَكْمَلُ النَّاسِ مَحَبَّةً للهِ، وَأَحَقُّهُمْ بِأَنْ يُحِبَّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ، وَيُبْغِضَ مَا يُبْغِضُهُ اللهُ، و«الْخُلَّةُ» لَيْسَ لِغَيْرِ اللهِ فِيهَا نَصِيبٌ؛ بَلْ قَالَ: «**لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلاً لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً**»(١)، عُلِمَ مَزِيدُ مَرْتَبَةِ الْخُلَّةِ عَلَى مُطْلَقِ الْمَحَبَّةِ[١].

و(الْمَقْصُودُ) هُوَ أَنَّ «الْخُلَّةَ» وَ «الْمَحَبَّةَ للهِ» تَحْقِيقُ عُبُودِيَّتِهِ؛ وَإِنَّمَا يَغْلَطُ مَنْ يَغْلَطُ فِي هَذِهِ مِنْ حَيْثُ يَتَوَهَّمُونَ أَنَّ الْعُبُودِيَّةَ مُجَرَّدُ ذُلٍّ وَخُضُوعٍ فَقَطْ، لَا مَحَبَّةَ مَعَهُ، أَوْ أَنَّ الْمَحَبَّةَ فِيهَا انْبِسَاطٌ فِي

الشَّرْح

[١] هذا فيه بيان الفرق بين الخلة ومطلق المحبة فالخلة أخص من مطلق المحبة؛ فالمحبة تقبل الاشتراك فيكون عدة محبوبين، وأما الخلة فلا تقبل الاشتراك، فالنبي ﷺ يحب أصحابه لكنه لم يتخذ منهم خليلاً لأن الله اتخذه خليلاً، والخلة التي لا تقبل الاشتراك هي الخلة بين الله وبين عبده.

أما الخلة بين سائر الناس فلا مانع أن يكون للإنسان عدة أخلاء ثم إن المحبة لله إذا لم يكن معها خوف ورجاء فليست عبادة وإن كان معها ذل وخضوع.

(١) سبق تخريجه (ص٢٠٧).

الْأَهْوَاءِ أَوْ إِدْلَالٌ لَا تَحْتَمِلُهُ الرُّبُوبِيَّةُ، وَلِهَذَا يُذْكَرُ عَنْ «ذِي النُّونِ» أَنَّهُمْ تَكَلَّمُوا عِنْدَهُ فِي مَسْأَلَةِ الْمَحَبَّةِ. فَقَالَ: أَمْسِكُوا عَنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ لَا تَسْمَعْهَا النُّفُوسُ فَتَدَّعِيَهَا. وَكَرِهَ مَنْ كَرِهَ مِنْ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ وَالْعِلْمِ مُجَالَسَةَ أَقْوَامٍ يُكْثِرُونَ الْكَلَامَ فِي الْمَحَبَّةِ بِلَا خَشْيَةٍ؛ وَقَالَ مَنْ قَالَ مِنَ السَّلَفِ: مَنْ عَبَدَ اللهَ بِالْحُبِّ وَحْدَهُ فَهُوَ زِنْدِيقٌ[١]، وَمَنْ عَبَدَهُ بِالرَّجَاءِ وَحْدَهُ فَهُوَ مُرْجِئٌ[٢]، وَمَنْ عَبَدَهُ بِالْخَوْفِ وَحْدَهُ فَهُوَ حَرُورِيٌّ[٣]، وَمَنْ عَبَدَهُ بِالْحُبِّ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ مُوَحِّدٌ[٤].

وَلِهَذَا وُجِدَ فِي الْمُسْتَأْخِرِينَ مَنِ انْبَسَطَ فِي دَعْوَى الْمَحَبَّةِ حَتَّى أَخْرَجَهُ ذَلِكَ إِلَى نَوْعٍ مِنَ الرُّعُونَةِ، وَالدَّعْوَى الَّتِي تُنَافِي الْعُبُودِيَّةَ وَتُدْخِلُ الْعَبْدَ فِي نَوْعٍ مِنَ الرُّبُوبِيَّةِ الَّتِي لَا تَصْلُحُ إِلَّا للهِ. وَيَدَّعِي أَحَدُهُمْ دَعَاوَى تَتَجَاوَزُ حُدُودَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، أَوْ يَطْلُبُونَ مِنَ اللهِ

الشَّرْح

[١] **كما تدعيه الصوفية**، ويقولون: العبادة هي المحبة فقط وليس معها خوف ولا رجاء، وهذه زندقة وضلال.

[٢] **فالمرجئ يعبد الله بالرجاء فقط**، ولا يخاف ويقول: لا يضر مع الإيمان معصية.

[٣] **يعني خارجي؛ أي**: هذه عبادة الحرورية وهم الخوارج، سمي الخوارج بالحرورية لأنهم اجتمعوا في مكان في العراق يسمى حروراء، تشددوا في الخوف وتركوا الرجاء.

[٤] **فالعبادة هي مجموع المحبة والخوف والرجاء**، فمن جمع هذه الأمور الثلاثة فهو المؤمن حقًّا.

مَا لَا يَصْلُحُ ـ بِكُلِّ وَجْهٍ ـ إِلَّا للهِ، لَا يَصْلُحُ لِلْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ.

وَهَذَا بَابٌ وَقَعَ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ الشُّيُوخِ[١].

وَسَبَبُهُ ضَعْفُ تَحْقِيقِ الْعُبُودِيَّةِ الَّتِي بَيَّنَتْهَا الرُّسُلُ وَحَرَّرَهَا الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ الَّذِي جَاءُوا بِهِ، بَلْ ضَعْفُ الْعَقْلِ الَّذِي بِهِ يَعْرِفُ الْعَبْدُ حَقِيقَتَهُ، وَإِذَا ضَعُفَ الْعَقْلُ، وَقَلَّ الْعِلْمُ بِالدِّينِ وَفِي النَّفْسِ مَحَبَّةٌ انْبَسَطَتِ النَّفْسُ بِحُمْقِهَا فِي ذَلِكَ، كَمَا يَنْبَسِطُ الْإِنْسَانُ فِي مَحَبَّةِ الْإِنْسَانِ مَعَ حُمْقِهِ وَجَهْلِهِ، وَيَقُولُ: أَنَا مُحِبٌّ فَلَا أُؤَاخَذُ بِمَا أَفْعَلُهُ مِنْ أَنْوَاعٍ يَكُونُ فِيهَا عُدْوَانٌ وَجَهْلٌ، فَهَذَا عَيْنُ الضَّلَالِ، وَهُوَ شَبِيهٌ بِقَوْلِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى: ﴿نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾[٢]، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ﴾ [المائدة: ١٨]، فَإِنَّ تَعْذِيبَهُ لَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ يَقْتَضِي أَنَّهُمْ

الشَّرح

[١] **هذا فيه بيان سلبيات عبادة الله بالمحبة فقط كما عليه الصوفية.**

فقوله: (**وَهَذَا بَابٌ وَقَعَ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ الشُّيُوخِ**)؛ **يعني**: الصوفية الذين انحرفت بهم دعوى المحبة لله حتى تركوا أمره ونهيه وزعموا سقوط التكاليف عنهم لأنهم وصلوا إلى الله تعالى؛ لأنهم يحبونه.

[٢] **اليهود والنصارى غلوا في دعوى المحبة**، حتى زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه فرد الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ﴾، فإن المحب لا يعذب أحبابه؟ فدل على أنهم ليسوا أحباب الله؛ لأن الله يعذبهم بذنوبهم، ثم بيّن حقيقتهم فقال: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ﴾ [المائدة: ١٨]، فدعوى الصوفية من جنس دعوى اليهود حيث يقولون: نحن لا تضرنا الذنوب؛ لأننا نحب الله، ولسنا مكلفين، فالتكاليف والأوامر والنواهي للعوام الذين لم يصلوا إلى محبة الله!.

غَيْرُ مَحْبُوبِينَ وَلَا مَنْسُوبِينَ إِلَيْهِ بِنِسْبَةِ الْبُنُوَّةِ، بَلْ يَقْتَضِي أَنَّهُمْ مربوبون مَخْلُوقُونَ[١]. فَمَنْ كَانَ اللهُ يُحِبُّهُ اسْتَعْمَلَهُ فِيمَا يُحِبُّهُ مَحْبُوبُهُ، لَا يَفْعَلُ مَا يُبْغِضُهُ الْحَقُّ وَيَسْخَطُهُ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ، وَمَنْ فَعَلَ الْكَبَائِرَ وَأَصَرَّ عَلَيْهَا، وَلَمْ يَتُبْ مِنْهَا فَإِنَّ اللهَ يُبْغِضُ مِنْهُ ذَلِكَ؛ كَمَا يُحِبُّ مِنْهُ مَا يَفْعَلُهُ مِنَ الْخَيْرِ؛ إِذْ حُبُّهُ لِلْعَبْدِ بِحَسَبِ إِيمَانِهِ وَتَقْوَاهُ، وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الذُّنُوبَ لَا تَضُرُّهُ لِكَوْنِ اللهِ يُحِبُّهُ مَعَ إِصْرَارِهِ عَلَيْهَا كَانَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ زَعَمَ أَنَّ تَنَاوُلَ السُّمِّ لَا يَضُرُّهُ مَعَ مُدَاوَمَتِهِ عَلَيْهِ، وَعَدَمِ تَدَاوِيهِ مِنْهُ بِصِحَّةِ مِزَاجِهِ.

وَلَوْ تَدَبَّرَ الْأَحْمَقُ مَا قَصَّ اللهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ قِصَصِ أَنْبِيَائِهِ؛ وَمَا جَرَى لَهُمْ مِنَ التَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ؛ وَمَا أُصِيبُوا بِهِ مِنْ أَنْوَاعِ الْبَلَاءِ الَّذِي فِيهِ تَمْحِيصٌ لَهُمْ وَتَطْهِيرٌ بِحَسَبِ أَحْوَالِهِمْ؛ عَلِمَ بَعْضَ ضَرَرِ الذُّنُوبِ بِأَصْحَابِهَا وَلَوْ كَانَ أَرْفَعَ النَّاسِ مَقَاماً؛ فَإِنَّ الْمُحِبَّ لِلْمَخْلُوقِ إِذَا لَمْ يَكُنْ عَارِفاً بِمَصْلَحَتِهِ وَلَا مُرِيداً لَهَا؛ بَلْ يَعْمَلُ بِمُقْتَضَى الْحُبِّ ـ وَإِنْ كَانَ جَهْلاً وَظُلْماً ـ كَانَ ذَلِكَ سَبَباً لِبُغْضِ الْمَحْبُوبِ لَهُ وَنُفُورِهِ عَنْهُ؛ بَلْ لِعُقُوبَتِهِ.

وَكَثِيرٌ مِنَ السَّالِكِينَ سَلَكُوا فِي دَعْوَى حُبِّ اللهِ أَنْوَاعاً مِنْ أُمُورِ الْجَهْلِ بِالدِّينِ؛ إِمَّا مِنْ تَعَدِّي حُدُودِ اللهِ؛ وَإِمَّا مِنْ تَضْيِيعِ حُقُوقِ اللهِ،

الشَّرْح

[١] **لقوله تعالى:** ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ [المائدة: ١٨]. فهم خلق من خلق الله تجري عليهم أحكامه وأوامره ونواهيه فيعذب العاصي منهم ويثيب المطيع.

وَإِمَّا مِنَ ادِّعَاءِ الدَّعَاوَى الْبَاطِلَةِ الَّتِي لَا حَقِيقَةَ لَهَا[١]؛ كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ: أَيُّ مُرِيدٍ لِي تَرَكَ فِي النَّارِ أَحَداً فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ؛ فَقَالَ الْآخَرُ: أَيُّ مُرِيدٍ لِي تَرَكَ أَحَداً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يَدْخُلُ النَّارَ فَأَنَا مِنْهُ بَرِيء. فَالْأَوَّلُ جَعَلَ مُرِيدَهُ يُخْرِجُ كُلَّ مَنْ فِي النَّارِ؛ وَالثَّانِي جَعَلَ مُرِيدَهُ يَمْنَعُ أَهْلَ الْكَبَائِرِ مِنْ دُخُولِ النَّارِ[٢]. وَيَقُولُ بَعْضُهُمْ: إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَصَبْتُ خَيْمَتِي عَلَى جَهَنَّمَ حَتَّى لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ[٣]. وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَالِ الَّتِي تُؤْثَرُ عَنْ بَعْضِ الْمَشَايِخِ الْمَشْهُورِينَ؛ وَهِيَ إِمَّا كَذِبٌ عَلَيْهِمْ[٤] وَإِمَّا غَلَطٌ مِنْهُمْ[٥].

الشَّرْح

[١] **هذا بيان ما وقع فيه الصوفية من الضلال**، بسبب ادعائهم محبة الله واقتصارهم على ذلك من غير خوف من الله ولا رجاء حتى ظنوا أنهم يمنعون مريديهم من دخول النار ويخرجون من النار من دخلها منهم، وذلك:

(**كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ: «أَيُّ مُرِيدٍ لِي تَرَكَ فِي النَّارِ أَحَداً فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ»**)، هكذا بلغ بهم الحال من الجرأة على الله تعالى.

[٢] **كأنه يغالب الله ﷻ، ويقول للمريدين**: لا تجعلوا أحداً من أصحاب الكبائر يدخل النار، والله يعذب بالنار من يشاء من أهل الكبائر، فهم يتصرفون في الكون بزعمهم، والله ـ جلّ وعلا ـ هو الذي يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء لا منازع له في ذلك، بل بلغت بهم الجرأة والغرور حتى يَقُول بَعضهم:

[٣] (**«إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَصَبْتُ خَيْمَتِي عَلَى جَهَنَّمَ حَتَّى لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ»**)، وهل يستطيع أن يقرب من جهنم؟ حتى ينزل على بابها ليمنع من أراد الله إدخاله فيها، إنه الغرور والجهل والضلال ولا حول ولا قوة إلا بالله.

[٤] **وهذا الكلمة: إِمَّا كَذِبٌ عَلَيْهِمْ**: إن كانوا لم يقولوها.

[٥] **وإذا كانوا قالوها**، فإنه لن يصل أحد من الخلق إلى هذه الدرجة.

وَمِثْلُ هَـذَا قَـدْ يَصْـدُرُ فِي حَـالِ سُكْـرٍ وَغَلَبَـةٍ وَفَنَاءٍ يَسْقُطُ فِيهَا تَمْيِيزُ الْإِنْسَانِ؛ أَوْ يَضْعُفُ حَتَّى لَا يَدْرِيَ مَا قَـالَ[١].

و«السُّكْرُ» هُوَ لَذَّةٌ مَعَ عَدَمِ تَمْيِيزٍ[٢]. وَلِهَذَا كَانَ بَيْنَ هَؤُلَاءِ مَنْ إِذَا صَحَا اسْتَغْفَرَ مِنْ ذَلِكَ الْكَلَامِ. وَالَّذِينَ تَوَسَّعُوا مِنَ الشُّيُوخِ فِي سَمَاعِ الْقَصَائِدِ الْمُتَضَمِّنَةِ لِلْحُبِّ وَالشَّوْقِ وَاللَّوْمِ وَالْعَذْلِ وَالْغَرَامِ كَانَ هَذَا أَصْلَ مَقْصِدِهِمْ؛ وَلِهَذَا أَنْزَلَ اللهُ لِلْمَحَبَّةِ مِحْنَةً يَمْتَحِنُ بِهَا الْمُحِبَّ فَـقَـالَ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عـمـران: ٣١][٣]،

الشَّـرْح

[١] أي: لا يقول مقالة الصوفية هذه إنسان عنده عقل، بل يقولها إما إنسان مجنون، وإما إنسان سكران يهذي بما لا يدري، أما العاقل فلا يقول هذه المقالة فضلاً عن المؤمن، ولكن الضلال يتمادى بالإنسان إلى ما هو أغرب من ذلك، فالفناء عند الصوفية حالة يبلغ فيها الصوفي درجة لا يدري فيها ما يقول، ولا يتصور ماذا ينطق به.

[٢] **ومنه سكر الصوفية،** فهو يشبه سكر الخمر بل سكر الصوفية أشد حيث يصلون إلى حالة لا يميزون بين الطيب والخبيث، والخير والشر؛ لأن الشيطان يحملهم إلى مثل هذه الأمور حتى إن بعضهم يستغفر إذا صحا مما صدر منه وكل هذا بسبب دعوى المحبة.

[٣] **دليل المحبة الصحيحة وثمرتها:**

(**وَلِهَذَا أَنْزَلَ اللهُ لِلْمَحَبَّةِ مِحْنَةً يَمْتَحِنُ بِهَا الْمُحِبَّ فَقَالَ:** ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]): هذا أمر من الله ـ جلّ وعلا ـ لرسوله محمد ﷺ أن يقول لليهود والنصارى الذين يزعمون أنهم يحبون الله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران: ٣١، ٣٢]، =

فَلَا يَكُونُ مُحِبّاً للهِ إِلَّا مَنْ يَتَّبِعُ رَسُولَهُ، وَطَاعَةُ الرَّسُولِ وَمُتَابَعَتُهُ تُحَقِّقُ الْعُبُودِيَّةَ. وَكَثِيرٌ مِمَّنْ يَدَّعِي الْمَحَبَّةَ يَخْرُجُ عَنْ شَرِيعَتِهِ وَسُنَّتِهِ، وَيَدَّعِي مِنَ الْخَيَالَاتِ مَا لَا يَتَّسِعُ هَذَا الْمَوْضِعُ لِذِكْرِهِ. حَتَّى قَدْ يَظُنُّ أَحَدُهُمْ سُقُوطَ الْأَمْرِ وَتَحْلِيلَ الْحَرَامِ لَهُ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا فِيهِ مُخَالَفَةُ شَرِيعَةِ الرَّسُولِ وَسُنَّتِهِ وَطَاعَتِهِ، بَلْ قَدْ جَعَلَ مَحَبَّةَ اللهِ وَمَحَبَّةَ رَسُولِهِ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِهِ[١].

الشَّرْح

= فعلامة محبة الله ودليلها اتباع رسوله، فمن زعم أنه يحب الله ولكنه لا يتبع رسوله فهو كاذب؛ كاليهود والنصارى والصوفية وأمثالهم، وقوله: ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، وهذه ثمرة المحبة لله ﷻ، فمحبة الله علامتها: اتباع الرسل ﷺ، وثمرتها: ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ ففي هذه الآية علامةَ محبة الله وثمرتها.

وليس هذا الخطاب خاصّاً باليهود والنصارى؛ فقوله: ﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ ليس خاصّاً باليهود والنصارى، وإن كان سبب نزول الآية فيهم، ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهذا عام؛ فَمَنْ يدعي محبة الله من الصوفية وغيرهم ولا يتبع الرسول، فهو كاذب في دعوى محبة الله، بل منهم من يرى سقوط الأمر والنهي عن المحب، فيقول: لا يحرم عليّ شيء، ولا يجب عليّ شيء؛ لأنني وصلت إلى الله، وهذه الأوامر والنواهي إنما هي للعوام، أما الخواص والعارفون بالله، فليسوا بحاجة إلى اتباع الرسل ولا إلى الأمر ولا إلى النهي؛ لأنهم وصلوا إلى الله، فالرسل إنما هم للعوام يدلونهم على الله.

[١] **أي: ومن علامة المحبة لله**: الجهاد في سبيله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ﴾ [الصف: ٤]، فالقتال في سبيل الله علامة على محبة الله، قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. =

و«الْجِهَادُ» يَتَضَمَّنُ كَمَالَ مَحَبَّةِ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ، وَكَمَالَ بُغْضِ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ، وَلِهَذَا قَالَ فِي صِفَةِ مَنْ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٥٤].

وَلِهَذَا كَانَتْ مَحَبَّةُ هَذِهِ الْأُمَّةِ للهِ أَكْمَلَ مِنْ مَحَبَّةِ مَنْ قَبْلَهَا، وَعُبُودِيَّتُهُمْ للهِ أَكْمَلُ مِنْ عُبُودِيَّةِ مَنْ قَبْلَهُمْ. وَأَكْمَلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ فِي ذَلِكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ[١].

الشَّرح

= يرفقون بالمؤمنين ويرحمونهم، ويحبونهم، ﴿أَعِزَّةٍ﴾ أقوياء، ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لا يخافون فيهم لومة لائم، ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٥٤] وهذه علامة محبتهم لله عَزَّوَجَلَّ.

[١] **تقدم أن العبودية مبنيَّة على المحبة**، فالذي يعبد شيئاً فلا بد أنه يحبه، فالذين يعبدون الله يحبون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولو لم يحبوه لم يعبدوه، والذين يعبدون الأصنام يحبون الأصنام، ولو لم يحبوها لم يعبدوها، ولكن المحبة تختلف باختلاف العباد، فالمؤمنون يحبون الله محبة تامة لا يشارك الله فيها غيره، فلا يحبون غير الله محبة العبودية؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فهم أشد من غيرهم من جميع الخلق.

والمشـركون يحبون الله، ولكن يحبون معه غيره فلما أشركوا في المحبة أشركوا في العبادة، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]؛ فمعناه: أنهم يحبون الله، ولكنهم يحبون معه الأصنام، فهم يساوون بين الله وبين الأصنام في المحبة وبين الله وبين الأصنام في العبادة، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾؛ أشد حبّاً لله من المشـركين؛ لأن محبة المشركين لله مشتركة ومحبة المؤمن لله خالصة، وهناك من لا يحب الله أصلاً وهم الملاحدة والدهرية والذين لا يؤمنون بالله عَزَّوَجَلَّ، فهؤلاء لا يحبون الله بتاتاً، وإنما يحبون أهواءهم وأطماعهم، =

الشَّرْح

= وما تشتهيه أنفسهم ولا يعرفون الله ﷻ، لا بمحبة، ولا بغيرها.

فالمؤمنون محبتهم خالصة لله ليس فيها شرك، ولكن المؤمنين يتفاوتون في محبة الله، فبعضهم أعظم محبة لله من بعض، وأكمل الأمة حبّاً لله هم الصحابة رضي الله عنهم، بدليل صدقهم مع رسول الله ﷺ ومناصرته والصبر معه على ما أصابه، فهم الذين أيدوا الرسول ﷺ في دعوته وفي حروبه، وفي مقاومته للكفار والمشركين، فقام الإسلام على جهادهم وعلى صدقهم، وعلى بذلهم، وعطائهم في سبيل الله، فقد جادوا بأنفسهم في سبيل الله، فصاروا يلاقون الموت، ويلاقون السلاح في نحورهم، يدافعون عن رسول الله ﷺ وعن دين الله ﷻ. فمحبة الصحابة لله ﷻ هي أبلغ وأشد من محبة بقية الأمة لله، فلذلك نالوا هذا الفضل العظيم، وهذا الشرف الكبير، وأثنى الله عليهم، ورضي عنهم وأرضاهم، ومدحهم ووعدهم بجزيل الثواب. فيا ويل من ينتقصهم ويسبهم ويكفرهم. وهم رضي الله عنهم لم يحصلوا على هذا إلا بثمن بذلوه لله ﷻ، فالمهاجرون تركوا أوطانهم وأموالهم وأولادهم وخرجوا مهاجرين مع الرسول ﷺ، والأنصار استقبلوا الرسول ﷺ وأصحابه بالفرح والسرور والاغتباط، وواسوهم بأموالهم وممتلكاتهم. ولهذا قال ﷻ في الفيء الذي يحصل عليه المسلمون من أموال الكفار في الجهاد: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾، ثم قال في الأنصار: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾، ثم قال لمن يأتي بعد المهاجرين والأنصار: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾. =

وَمَنْ كَانَ بِهِمْ أَشْبَهَ كَانَ ذَلِكَ فِيهِ أَكْمَلَ، فَأَيْنَ هَذَا مِنْ قَوْمٍ يَدَّعُونَ الْمَحَبَّةَ؟![١].

و(فِي) كَلَامِ بَعْضِ الشُّيُوخِ[٢]: الْمَحَبَّةُ نَارٌ تُحْرِقُ فِي الْقَلْبِ مَا

الشَّرْح

= ثم ذكر أن المنافقين على العكس يوالون الكفار، ويبغضون الصحابة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحشر: ٨ ـ ١١]، إلى آخر الآيات.

فالكفار والمنافقون يبغضون الله ورسوله، ويبغضون المؤمنين عن بكرة أبيهم، وهو أمر باق فيهم إلى أن تقوم الساعة، أما المؤمنون الصادقون فإنهم يتحابون في الله، ويحبون إخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان من الصحابة ويثنون عليهم، ويدعون لهم بالمغفرة، ولا يجدون لهم أي حقد أو غلٍّ في صدورهم أو حسد أو بغض، فهم يدعون الله أن يطهر قلوبهم من الغل على إخوانهم: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ١٠]؛ ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في «العقيدة الواسطية»: «ومن أصول أهل السُّنَّة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله كما وصفهم الله بذلك»(١)، فسلامة قلوبهم أنّهم يقولون: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾، وسلامة ألسنتهم، أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠]، وهذا هو قدر الصحابة في صدور المؤمنين، بخلاف المنافقين والرافضة الذين يبغضون صحابة رسول الله ويسبونهم.

[١] **أي: من كان بالصحابة أشبه**؛ كانت محبة الله ورسوله وعباده الصالحين في قلبه أكمل.

[٢] **يعني كلام بعض شيوخ الصوفية**، أنهم يقولون: المحبة نار تُحرق =

(١) العقيدة الواسطية (١٢).

سِوَى مُـرَادِ الْـمَـحْبُـوبِ. وَأَرَادُوا أَنَّ الْكَـوْنَ كُلَّـهُ قَـدْ أَرَادَ اللهُ وُجُودَهُ[١]، فَظَنُّوا أَنَّ كَمَالَ الْمَحَبَّةِ أَنْ يُحِبَّ الْعَبْدُ كُلَّ شَيْءٍ، حَتَّى الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ[٢].

وَلَا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ أَنْ يُحِبَّ كُلَّ مَوْجُودٍ[٣]، بَلْ يُحِبُّ مَا يُلَائِمُهُ وَيَنْفَعُهُ وَيُبْغِضُ مَا يُنَافِيهِ وَيَضُرُّهُ[٤]، وَلَكِنِ اسْتَفَادُوا بِهَذَا الضَّلَالِ اتِّبَاعَ أَهْـوَائِهِمْ[٥]، فَهُـمْ يُحِبُّـونَ مَـا يَهْـوَوْنَهُ؛ كَالصُّـوَرِ وَالرِّئَاسَـةِ

الشَّرْح

= في القلب كل ما سوى الله، وما أراده الله، حتى الكفر يقولون: يحبه الله، ولو لم يحبه لم يرده ولم يقدره، فلم يفرقوا بين القضاء والقدر وبين المحبة، ولم يعلموا أن الله يقدر ويخلق ما لا يحب، ابتلاء وامتحاناً، فقد قدَّر الكفر والشرك وهو لا يحب ذلك، وقدَّر وجود المشركين والكفار وهو لا يحبهم، فلا علاقة بين المحبة وبين القضاء والقدر، إنما المحبة من لازم الشرع، فما شرعه الله فإنه يحبه، وما قدره فلا يلزم أنه يحبه.

[١] **ليس هناك شك أن الله أراد وجود الكون**، لكن لا يحبه كله.

[٢] **لأن الله خلقه وأوجده**، ولو لم يحبه لم يخلقه ولم يوجده؛ لأنهم لم يفهموا حكمة الله ﷻ. ولم يفرقوا بين القدر والشرع.

[٣] **كلامهم كما أنه يخالف الشرع**، فإنه يخالف العقل أيضاً؛ إذ لا يمكن لأحد أن يحب كل ما في الكون من الأشياء، بل يحب أصدقاءه وأقاربه ويبغض أعداءه، ولا يحب العقارب والحيات والسباع والوحوش، ولا يحب السم ولا يحب النار والأشياء المؤذية.

[٤] **يحب ما يلائم نفسه وطبائعه**، وأما ما يخالف طبيعته وذوقه أو يضره فإنه يبغضه، هذا من حيث العقل فكيف الشرع؟!

[٥] **أي: هم يعلمون أن هذا لا يوافق العقول**، ولكن يروجون هذا =

وَفُضُولِ الْمَالِ، وَالْبِدَعِ الْمُضِلَّةِ[١]، زَاعِمِينَ أَنَّ هَذَا مِنْ مَحَبَّةِ اللهِ[٢]، وَمِنْ مَحَبَّةِ اللهِ بُغْضُ مَا يُبْغِضُهُ اللهُ وَرَسُولُهُ[٣]، وَجِهَادُ أَهْلِهِ بِالنَّفْسِ وَالْمَالِ.

وَأَصْلُ ضَلَالِهِمْ أَنَّ هَذَا الْقَائِلَ الَّذِي قَالَ: «إِنَّ الْمَحَبَّةَ نَارٌ

الشَّرْح

= على الناس من أجل أن يحصلوا على ما يريدون من أطماعهم.

[١] **يقولون**: نحن نحب كل ما في الكون، وهم إنما يحبون ما يوافق شهواتهم وأهواءهم، ويستغلون هذه الدعوى في تضليل الناس وخضوعهم لهم.

[٢] **لأنه يحب هذه الأشياء بزعمهم فنحن نحبها** وقد كذبوا في ذلك على الله؛ فإن الله لا يحب الكفر ولا يحب الكفار، ولا يحب البدع والمحدثات.

[٣] **فمحبة الله لها فروع**، فتحب ما يحبه الله ومَنْ يحبه الله من الأعمال الصالحة والطاعات والقربات والعبادات وأهل الطاعات، وتكره ما يكرهه الله من الكفر والفسوق والعصيان والكفار والعصاة.

● **لكن الخلق أصناف**:

١ ـ منهم: من يُبغَضُ بغضاً خالصاً، كإبليس وفرعون وقادة الكفر، هؤلاء يبغضون بغضاً خالصاً لا محبة معه.

٢ ـ ومنهم: من يُحَبُّ حبّاً خالصاً لا بغض معه؛ كالملائكة والرسل والأولياء والصالحين؛ تحبهم محبة خالصة ليس معها بغض.

٣ ـ ومنهم: من يُحَب من جهة ويُبغض من جهة، وهو المسلم العاصي، والفاسق من المؤمنين، تحبه لما فيه من الإيمان، وتبغضه لما عنده من المعاصي والسيئات.

أما من يقول: أنا أحب الله، ومع هذا يحب ما يبغض الله، ومن يبغضهم الله فهو كذاب.

تُحْرِقُ مَا سِوَى مُرَادِ الْمَحْبُوبِ»، قَصَدَ بِمُرَادِ اللهِ تَعَالَى الْإِرَادَةَ الدِّينِيَّةَ الشَّرْعِيَّةَ الَّتِي هِيَ بِمَعْنَى مَحَبَّتِهِ وَرِضَاهُ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: تُحْرِقُ مِنَ الْقَلْبِ مَا سِوَى الْمَحْبُوبِ للهِ، وَهَذَا مَعْنًى صَحِيحٌ. فَإِنَّ مِنْ تَمَامِ الْحُبِّ أَنْ لَا يُحِبَّ إِلَّا مَا يُحِبُّهُ اللهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتَ مَا لَا يُحِبُّ كَانَتِ الْمَحَبَّةُ نَاقِصَةً، وَأَمَّا قَضَاؤُهُ وَقَدَرُهُ فَهُوَ يُبْغِضُهُ وَيَكْرَهُهُ وَيَسْخَطُهُ وَيَنْهَى عَنْهُ، فَإِنْ لَمْ أُوَافِقْهُ فِي بُغْضِهِ وَكَرَاهَتِهِ وَسَخَطِهِ لَمْ أَكُنْ مُحِبّاً لَهُ، بَلْ مُحِبّاً لِمَا يُبْغِضُهُ[١].

فَاتِّبَاعُ الشَّرِيعَةِ، وَالْقِيَامُ بِالْجِهَادِ مِنْ أَعْظَمِ الْفُرُوقِ بَيْنَ أَهْلِ مَحَبَّةِ اللهِ وَأَوْلِيَائِهِ الَّذِينَ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ وَبَيْنَ مَنْ يَدَّعِي مَحَبَّةَ اللهِ[٢]، نَاظِراً إِلَى عُمُومِ رُبُوبِيَّتِهِ، أَوْ مُتَّبِعاً لِبَعْضِ الْبِدَعِ الْمُخَالِفَةِ لِشَرِيعَتِهِ، فَإِنَّ دَعْوَى هَذِهِ الْمَحَبَّةِ للهِ مِنْ جِنْسِ دَعْوَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الْمَحَبَّةَ للهِ[٣]،

الشَّرْح

[١] إن كان القصد أن المحبة تحرق ما سوى ما يحبه الله شرعاً فلا محذور في هذا القول. وأما إن قصد المحبة الكونية فهذه ليس من لازمها المحبة والرضا.

[٢] قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٥٤﴾ [المائدة: ٥٤]، فلكونهم يحبون الله جاهدوا في سبيله؛ لإزالة ما يكرهه الله ويبغضه، وقدموا أنفسهم وأموالهم في سبيل ذلك، وهذا دليل صدق محبتهم لله، فهم يحبون الله حقّاً بخلاف من يدعي محبته ولم يقدم دليلاً على ذلك.

[٣] **فاليهود والنصارى يقولون:** ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]، =

بَلْ قَدْ تَكُونُ دَعْوَى هَـؤُلَاءِ شَرّاً مِـنْ دَعْـوَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى[١]، لِمَا فِيهِمْ مِنْ النِّفَاقِ الَّذِينَ هُمْ بِهِ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ[٢]، كَمَا قَدْ

الشَّـرْح

= مع أنهم يكفرون بالله، ويكفرون برسله، ويقتلون الأنبياء، فأين محبتهم لله ﷻ؟ فردَّ الله على اليهود والنصارى بما عندهم من الكفر والشرك ومعاداة أولياء الله، وقتلهم لبعض الأنبياء، فأين محبتهم لله؟ فالذي يحب الله يحب ما يحبه الله، ويبغض ما يبغضه الله، ويجاهد في سبيل الله، واليهود والنصارى يقولون: نحن نحب الله، ثم تقول النصارى: الله ثالث ثلاثة، تعالى الله عما يقولون، وتقول اليهود: يد الله مغلولة، الله فقير ونحن أغنياء.

[١] • **مقارنة بين اليهود والنصارى وبين الصوفية:**

١ ـ **الصوفية يزعمون أنهم يحبون الله ويقولون:** كل ما أراده الله فهو يحبه فيقترفون المعاصي والذنوب، ويحبون الكفار ويقولون: لأن الله أوجدهم وخلقهم، فهذا دليل على محبة الله لهم فنحن نحبهم لذلك، ويغالطون في هذا، فهم أشد ضلالاً من اليهود والنصارى؛ لأن اليهود والنصارى لم يدعوا الإيمان بمحمد ﷺ، بل كفروا به، وهؤلاء يدعون أنهم من أتباع محمد وأنهم مسلمون، وهم أشد ضلالاً من اليهود والنصارى.

[٢] ٢ ـ **أي:** لما في الصوفية من النفاق وهو النفاق الأكبر الاعتقادي، وهو: إظهار الإيمان وإبطان الكفر، ولذلك صاروا في الدرك الأسفل من النار؛ فهم شر من اليهود والنصارى، وشر من المشركين، وعبدة الأوثان؛ لأن الكفار صرحوا بكفرهم، وعداوتهم لله ولرسوله، أما هؤلاء فيدَّعي أحدهم أنه يؤمن بالله ورسوله وهو كذاب، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ [البقرة: ٨، ٩]؛ فالكفار والمشركون لم يخادعوا ولم يدعوا الإيمان، بل صرحوا بالكفر وأعلنوه، وهؤلاء ادعوا الإيمان وأخفوا الكفر في قلوبهم، فهم شر من اليهود والنصارى ومن =

تَكُونُ دَعْوَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى شَرّاً مِنْ دَعْوَاهُمْ إِذَا لَمْ يَصِلُوا إِلَى مِثْلِ كُفْرِهِمْ[١].

وَفِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ مِنْ مَحَبَّةِ اللهِ مَا هُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَيْهِ[٢]، حَتَّى إِنَّ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ أَعْظَمُ وَصَايَا النَّامُوسِ[٣]. فَفِي الْإِنْجِيلِ أَنَّ الْمَسِيحَ قَالَ: «**أَعْظَمُ وَصَايَا الْمَسِيحِ أَنْ تُحِبَّ اللهَ بِكُلِّ قَلْبِكَ وَعَقْلِكَ وَنَفْسِكَ**»، وَالنَّصَارَى يَدَّعُونَ قِيَامَهُمْ بِهَذِهِ الْمَحَبَّةِ[٤]، وَأَنَّ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الزُّهْدِ وَالْعِبَادَةِ هُوَ مِنْ ذَلِكَ، وَهُمْ بُرَآءُ مِنْ مَحَبَّةِ اللهِ إِذْ لَمْ يَتَّبِعُوا مَا أَحَبَّهُ، بَلِ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ.

الشَّرح

= المشركين؛ ولذلك صاروا في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ [النساء: ١٤٦].

[١] اليهود والنصارى قد يكونون شرّاً من المنافقين للأعمال التي يمارسونها من قتل الأنبياء ومعاداتهم، فهم شر من المنافقين من هذا الوجه؛ لأن المنافقين يظهرون المُسالمة، والإيمان بالأنبياء، فهم من هذا الوجه أخف من اليهود والنصارى.

[٢] في التوراة غير المحرفة، والإنجيل غير المحرف؛ من وجوب محبة الله والأمر بها الشيء الكثير.

[٣] الناموس: هو الوحي أو الملك.

[٤] **٣** ـ النَّصَارَى يظهرون الزهد والتنسك والعبادة، حتى إنهم ابتدعوا الرهبانية في تعبدهم، وهؤلاء الصوفية تركوا الأوامر وفعلوا النواهي؛ لأنهم بزعمهم بلغوا مرتبة تسقط عنهم ذلك فهم شر من النصارى.

وَاللهُ يُبْغِضُ الْكَافِرِينَ وَيَمْقُتُهُمْ، وَيَلْعَنُهُمْ. وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ مَنْ يُحِبُّهُ؛ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْعَبْدُ مُحِبّاً للهِ وَاللهُ تَعَالَى غَيْرُ مُحِبٍّ لَهُ[١]؛ بَلْ بِقَدْرِ مَحَبَّةِ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ يَكُونُ حُبُّ اللهِ لَهُ[٢]؛ وَإِنْ كَانَ جَزَاءُ اللهِ لِعَبْدِهِ أَعْظَمَ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الْإِلَهِيِّ عَنِ اللهِ تَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: **«مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعاً، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعاً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعاً، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»**(١). وَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ، وَالْمُحْسِنِينَ وَالصَّابِرِينَ، وَيُحِبُّ التَّوَّابِينَ، وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ، بَلْ هُوَ يُحِبُّ مَنْ فَعَلَ مَا أَمَرَ بِهِ مِنْ وَاجِبٍ وَمُسْتَحَبٍّ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: **«لَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ**

الشَّرْح

[١] ٤ ـ إن الصوفية غير صادقين في محبتهم لله؛ لأنهم لا يحبون ما يحب الله، ولا يبغضون ما يبغضه الله، فإن كانوا صادقين في محبتهم لله فليبغضوا الكافرين وليعادوهم؛ لأن الله عدو للكافرين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١]، فلو كانوا صادقين في محبتهم لله ما أحبوا الكفار وهم أعداء الله، والله يبغضهم، ولو كانوا صادقين في محبة الله لاتبعوا النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران: ٣١، ٣٢].

[٢] **فإن كانت محبته لله خالصة كانت محبة الله له خالصة**، وإن كانت محبة العبد لربه ناقصة كانت محبة الله للعبد ناقصة؛ لأن الجزاء من جنس العمل.

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٥).

إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ...»(١) الْحَدِيثَ[١].

وَكَثِيرٌ مِنَ الْمُخْطِئِينَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا أَشْيَاخاً فِي (الزُّهْدِ وَالْعِبَادَةِ) وَقَعُوا فِي بَعْضِ مَا وَقَعَ فِيهِ النَّصَارَى مِنْ دَعْوَى الْمَحَبَّةِ للهِ مَعَ مُخَالَفَةِ شَرِيعَتِهِ، وَتَرْكِ الْمُجَاهَدَةِ فِي سَبِيلِهِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ[٢].

الشَّرح

[١] **الجزاء من الله للعبد أعظم مما يستحقه العباد**؛ لأن الله يضاعف الأعمال؛ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة لا يعلمها إلا الله، فالجزاء أكثر من العمل، تفضلاً من الله ﷻ، وأما العذاب فإنما يكون على قدر العمل، فإن الله لا يظلم أحداً فيعذبه بما لا يستحق، فجزاء السيئة سيئة واحدة عدلاً من الله، وأما الحسنة فجزاؤها عشر أو أكثر فضلاً من الله.

كما في الحديث القدسي: (**مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعاً وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعاً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعاً وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً**)؛ **بمعنى**: أن الله ﷻ يجزي عبده أكثر من عمله، فضلاً منه ﷻ.

ثم قال الله: (**لَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ**)؛ **بمعنى**: أن الله يسدده في سمعه، وفي بصره، ويسدده في يده ورجله فلا يستعمل هذه الحواس والجوارح إلا فيما يرضي الله ﷻ، وفيما ينفع العبد عند الله ﷻ.

[٢] **أي**: كثير من الصوفية الذين يدعون العبادة اتبعوا شيوخهم في ترك ما أمر الله به وفعل ما نهى عنه مع أنهم يدعون محبة الله فهم مثل النصارى يدعون محبة الله ويخالفون شرعه.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

وَيَتَمَسَّكُونَ فِي الدِّينِ الَّذِي يَتَقَرَّبُونَ بِهِ إِلَى اللهِ بِنَحْوِ مَا تَمَسَّكَ بِهِ النَّصَارَى مِنَ الْكَلَامِ الْمُتَشَابِهِ، وَالْحِكَايَاتِ الَّتِي لَا يُعْرَفُ صِدْقُ قَائِلِهَا[١]، ....

الشَّرْح

[١] بيان دين الصوفية، وأصلها وما بنيت عليه:

الصوفية أقرب الناس إلى النصارى؛ ولذلك قال أهل العلم: إن الصوفية دبت إلى المسلمين من رهبانية النصارى، وبعضهم يقول: إنها دبت من براهمة الهند، حيث إن الهنود عندهم تقشف وزهد، وعلى كل حال فإن الصوفية أصلها ضلال؛ لأنها مخالفة لما شرعه الله ﷻ، أيّاً كان مصدرها سواء من براهمة الهند، أو من رهبانية النصارى، فهي ضلال وبعد عن الله ﷻ؛ لأنها ليست متلقاة من دين محمد ﷺ، ولا من شريعة الله ﷻ، وإنما يعتمدون على المتشابه من الأدلة، والمتشابه لا يجوز العمل به حتى يُرد إلى ما يوضحه ويفسره من المحكم؛ بخلاف طريقة أهل الزيغ، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧]، قيل: إن الوقوف يكون على لفظ الجلالة: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ﴾ إذا أريد بتأويله كيفيته وما يؤول إليه في المستقبل، فهذا لا يعلمه إلا الله، وقيل: إن الوقوف على قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ إذا أريد بالتأويل التفسير، فإن المتشابه يفسر بالمحكم، وهذه طريقة الراسخين في العلم، أنهم يردون المتشابه إلى المحكم، ويفسرونه به؛ ولهذا سمَّى الله المحكم أم الكتاب، وأم الشيء ما يرجع إليه؛ **أي**: هو: الأصل الذي يُرجع إليه الشيء، فيُرد المتشابه إلى المحكم ويفسره ويوضحه؛ لأن كلام الله يفسر بعضه بعضاً، وكلام الرسول ﷺ يفسر بعضه بعضاً ويفسر القرآن، وهذه طريقة الراسخين في العلم أنهم: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ﴾ المحكم والمتشابه، كله كلام الله فيفسر بعضه بعضاً.

=

وَلَوْ صَدَقَ لَمْ يَكُنْ قَائِلُهَا مَعْصُوماً[١]، فَيَجْعَلُونَ مَتْبُوعِيهِمْ شَارِعِينَ لَهُمْ دِيناً، كَمَا جَعَلَ النَّصَارَى قِسِّيسِيهِمْ وَرُهْبَانَهُمْ شَارِعِينَ لَهُمْ دِيناً[٢]، ثُمَّ إِنَّهُمْ يَنْتَقِصُونَ الْعُبُودِيَّةَ وَيَدَّعُونَ أَنَّ الْخَاصَّةَ يَتَعَدَّوْنَهَا[٣]،

الشَّرْح

= فالصوفية يعتمدون على المتشابه، ولا يردونه إلى المحكم، أو يعتمدون على حكايات مكذوبة يتناقلونها عن فلان وفلان، أو على أحاديث مكذوبة على الرسول ﷺ يروونها وينشرونها، هذه طريقهم أو على رؤى وأحلام ومنامات وهي طريقة أهل الزيغ، وأهل الضلال دائماً وأبداً، لا يعتمدون على دليل صحيح، وإنما يعتمدون على هذه الشبهات.

[١] **أي**: لو صدقت الحكاية ونحوها فليست تشريعاً، ولا يجوز العمل بها؛ لأن صاحبها ليس معصوماً.

[٢] **التشابة بين الصوفية والنصارى**:

١ ـ الصوفية يجعلون (**مَتْبُوعِيهِمْ شَارِعِينَ لَهُمْ دِيناً، كَمَا جَعَلَ النَّصَارَى قِسِّيسِيهِمْ وَرُهْبَانَهُمْ شَارِعِينَ لَهُمْ دِيناً**)؛ فالصوفية يتخذون مشايخهم أرباباً من دون الله يشرعون لهم، ولا يرجعون إلى دين محمد ﷺ، ولا إلى الكتاب والسُّنَّة، وإنما يرجعون إلى مشايخهم فهم مثل النصارى يرجعون إلى أحبارهم ورهبانهم، قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١]. هذا دين النصارى، ومثله دين الصوفية، ودين القبورية.

[٣] ٢ ـ (**إِنَّهُمْ يَنْتَقِصُونَ الْعُبُودِيَّةَ وَيَدَّعُونَ أَنَّ الْخَاصَّةَ يَتَعَدَّوْنَهَا**)، يزعمون أنهم ترقوا واستغنوا عن العبودية ووصلوا إلى الله، وليسوا بحاجة إلى حرام وحلال ولا إلى نبي؛ لأنهم وصلوا إلى الله ويسمون أنفسهم خاصة الخاصة، أو العارفين بالله، أو ما أشبه ذلك من ألقابهم، فهم لما اعتمدوا على طرق =

كَمَا يَدَّعِي النَّصَارَى فِي الْمَسِيحِ، وَيُثْبِتُونَ لِلْخَاصَّةِ مِنَ الْمُشَارَكَةِ فِي اللهِ مِنْ جِنْسِ مَا تُثْبِتُهُ النَّصَارَى فِي الْمَسِيحِ وَأُمِّهِ. إِلَى أَنْوَاعٍ أُخَرَ يَطُولُ شَرْحُهَا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ[١].

وَإِنَّمَا دِينُ الْحَقِّ هُوَ تَحْقِيقُ الْعُبُودِيَّةِ للهِ بِكُلِّ وَجْهٍ[٢]،

الشَّرْح

= غير صحيحة، آلت بهم في النهاية إلى أن يتركوا العبادة ويقولوا: نحن وصلنا إلى الله وإلى الحقيقة ولسنا بحاجة لا إلى نبي، ولا إلى شريعة، وإنما الشريعة للعوام الذين لم يصلوا إلى الله.

[١] ٣ ـ **(كَمَا يَدَّعِي النَّصَارَى فِي الْمَسِيحِ أَنَّه ابْنُ الله، وَيُثْبِتُونَ لِلْخَاصَّةِ مِنَ الْمُشَارَكَةِ فِي اللهِ مِنْ جِنْسٍ مَا تُثْبِتُهُ النَّصَارَى فِي الْمَسِيحِ وَأُمِّهِ إِلَى أَنْوَاعٍ أُخَرَ يَطُولُ شَرْحُهَا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ)**، والنصارى لا يعرفون إلا المسيح، فلا يعرفون الله ولا يذكرون الله بشيء، وإنما يذكرون المسيح، ويعتقدون أنه المخلِّص وأنه الرب، ويرددون في إذاعاتهم: كلمة الرب يسوع أو الابن، فهم يزعمون أن المسيح هو الرب أو الابن وأنه هو الذي جاء يُخلص بني آدم من خطيئاتهم، وصبر على القتل والصلب ودُفن ثم قام بعد ثلاثة أيام، وصعد إلى أبيه في السماء، وتلك خرافاتهم وحكاياتهم، والعياذ بالله. ومثلهم الصوفية اتخذوا مشائخهم مشرعين لهم وأرباباً لهم.

[٢] **بيان دين أهل الحق:**

فالدين الحق هو دين الله ﷻ، وهو عبادته وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: ٣٣]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج: ٦٢]، الدين الحق هو دين الله الذي أنزله على رسله، وأمر به عباده من أول الرسل إلى آخرهم، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا =

الشَّرح

= ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشورى: ١٣]، هذا هو الدين الحق، الذي لا يقبل الله من أحد سواه، وهو دين الإسلام، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥﴾ [آل عمران: ٨٥].

● **الإسلام هو**: الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله، وهو بهذا التفسير دين جميع الرسل، كلهم جاءوا بأن يستسلم العبد لربه، ويعمل بأوامره ويجتنب نواهيه، مستسلماً لله ﷻ، منقاداً له، هذا هو دين الله، وهو دين الإسلام، وما عداه من الأديان والمذاهب فهي أديان باطلة أو منسوخة بالإسلام، ومن لم يستسلم لله فهو مستكبر، ومن استسلم له ولغيره فهو مشرك، ومن استسلم لله وحده فهو المسلم، وهذا هو الدين الحق، الذي أمر الله ـ جلّ وعلا ـ به عباده، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وقال: ﴿وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ٢٩﴾ [الأعراف: ٢٩]، وقال: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١٤﴾ [غافر: ١٤]، وقال: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ٢﴾ [الزمر: ٢]، وأساس هذا الدين الحق هو التوحيد، وأوامره ونواهيه هي الشريعة والمنهج الذي يسير عليه المسلمون.

ولهذا قال الشيخ: (**وَإِنَّمَا دِينُ الْحَقِّ هُوَ تَحْقِيقُ الْعُبُودِيَّةِ للهِ بِكُلِّ وَجْهٍ**)؛ فمن يعبد مع الله غيره، فإنه لا يحقق العبودية لله، بل هو مشرك، فليس هناك عبادة لله، وعبادة لغيره، كل أنواع العبادات لله ﷻ لا شريك له، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٦٣ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ١٦٤﴾ =

وَهُوَ تَحْقِيقُ مَحَبَّـةِ اللهِ بِكُلِّ دَرَجَـةٍ[١]، وَبِقَـدْرِ تَكْمِيـلِ الْعُبُودِيَّةِ تَكْمُـلُ مَحَبَّةُ الْعَبْدِ لِـرَبِّهِ، وَتَكْمُلُ مَحَبَّةُ الرَّبِّ لِعَبْدِهِ[٢]، وَبِقَدْرِ نَقْصِ هَذَا يَكُونُ نَقْصُ هَذَا[٣]؛ وَكُلَّمَا كَانَ فِي الْقَلْبِ حُبٌّ لِغَيْرِ اللهِ كَانَتْ فِيهِ

الشَّرْح

= [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٤]، والآيات في هذا كثيرة لمن تأملها وأراد أن يتتبعها ويصغي إليها ويتدبرها، لكن كثيراً من الناس يقرؤون القرآن وتمر عليهم الآيات ولا يتدبرونها، ولا ينظرون ماذا تشتمل عليه، وإنما يقرؤونه للبركة ويعتمدون على ما شرعته لهم شياطين الإنس والجن.

[١] **وأساس العبادة محبة الله ـ جلّ وعلا ـ** المحبة الخالصة بكل أنواع المحبة، لا يحبه ويحب معه غيره، وإنما يحب الله وحده، ويحب من يحبه الله، ويحب ما يحبه الله، تبعاً لمحبة الله ﷻ، فالعبادة أساسها على المحبة، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]؛ فالمحبة هي أعظم أنواع العبادة، وهي أساسها، فليس هناك عبادة دون محبة للمعبود، لا بد أن تكون العبادة مبنية على محبة المعبود سواء كان المعبود حقّاً أو باطلاً، فما من أحد يعبد شيئاً إلا وهو يحبه، ولو لم يحبه لما عبده.

[٢] **أي**: كلما كملت المحبة لله، كملت العبودية له، وكلما نقصت المحبة لله في قلب العبد نقصت عبوديته لله، فالمحبة هي الأساس، ولكن ليست هي العبادة وحدها كما تقوله الصوفية، وإنما معها الخوف والرجاء ومعها أنواع العبادة كلها، وهي أساسها، كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «النونية»:

وعبادة الرحمٰن غاية حبه ... مع ذل عابده هما قطبان
وعليهما فلك العبادة دائر ... ما دار حتى قامت القطبان
ومداره بالأمر أمر رسوله ... لا بالهوى والنفس والشيطان

فالعبادة تدور على كمال الحب، مع كمال الذل للمحبوب.

[٣] **أي**: بقدر ما تنقص المحبة لله، تنقص العبودية لله ﷻ.

عُبُودِيَّةٌ لِغَيْرِ اللهِ بِحَسَبِ ذَلِكَ، وَكُلَّمَا كَانَ فِيهِ عُبُودِيَّةٌ لِغَيْرِ اللهِ كَانَ فِيهِ حُبٌّ لِغَيْرِ اللهِ بِحَسَبِ ذَلِكَ[١].

وَكُلُّ مَحَبَّةٍ لَا تَكُونُ للهِ فَهِيَ بَاطِلَةٌ[٢]، وَكُلُّ عَمَلٍ لَا يُرَادُ

الشَّرْح

[١] **أي**: كلما كان في القلب محبة لغير الله كانت فيه عبودية لغير الله.

فالمشركون يحبون الله، ويعملون بعض أعمال العبادة: فهم يحجون، ويعتمرون، ويتصدقون، ولكنهم يحبون مع الله غيره من الأصنام والأحجار والأشجار، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فساووهم بالله في المحبة، فعبدوهم مع الله ﷻ.

[٢] **العبادة الصحيحة والعبادة الباطلة**:

العبادة الباطلة: كل عبادة لا تكون لله فهي باطلة، ولا تنفع صاحبها لأنها مؤسسة على المحبة لغير الله، ويتبرأ المحبوب من المحب، والشريك من المشرك، والخليل من خليله يوم القيامة إذا كانت الخلة والمحبة والعبادة على الباطل، قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧]، هذا كله سببه محبة غير الله ﷻ، فقد جرتهم إلى الشرك، وعبادة غير الله، ثم إن هؤلاء المحبوبين تبرؤوا منهم في أشد المواقف حرجاً، قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧]، لا تبقى مودتهم بينهم، أما المحبوب لله وحده فتبقى مودتهم بينهم في الجنة، قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر: ٤٧]؛ فالمحبة إذا كانت في الله تبقى في الجنة، وإذا كانت في غير الله تكون حسرة على صاحبها يوم القيامة. قال بعض العلماء: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾؛ **أي**: المحبة.

بِـهِ وَجْـهُ اللهِ فَهُـوَ بَـاطِلٌ[١]. فَـالـدُّنْيَـا مَـلْعُـونَـةٌ مَـلْعُـونٌ مَـا فِيـهَـا[٢]

الشَّـرْح

[١] كل عمل من أعمال العبادة والتقربات لا يُراد به وجه الله؛ أي: لا يكون خالصاً لله؛ فهو باطل؛ لذلك فأعمال المشركين يوم القيامة ووقت الحاجة إليها:

- تكون هباءً منثوراً، قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣].

- تكون كسراب بقيعة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [النور: ٣٩].

- تكون كرماد اشتدت به الريح، قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾ [إبراهيم: ١٨].

دل هذا على أن المشركين لهم أعمال، ولكنها لما كانت لا يُراد بها وجه الله صارت هباء منثوراً، لا تنفعهم بشيء يوم القيامة، نسأل الله العافية.

[٢] ومعنى: «ملعونة»؛ أي: مذمومة، فهي مذمومة إذا كانت لا تستعمل في طاعة الله، أما إذا كان يُستعان بها على طاعة الله فهي محمودة، والدنيا مزرعة للآخرة، فمن اتخذها وسيلة لعبادة الله واستعان بها على طاعة الله فإنه تكون الدنيا بالنسبة له محمودة، ومن عكس الأمر واتخذ الدنيا لذاتها، ولم يستعن بها على عبادة الله، ولم ينتفع بها في طاعة الله فإنها تكون حسرة عليه يوم القيامة، ويخرج منها وليس معه منها شيء، وقد جاء إلى الدنيا عارياً وخرج منها عارياً، ليس معه منها شيء، ولو كان ترك أرصدة وعمارات وممتلكات الدنيا فإنه يخرج منها ليس معه إلا الكفن الذي لا يساوي خمسة دراهم، لكن لو أنه لما أغناه الله قدم لنفسه من هذه الدنيا صدقات، وقدمها في الخيرات في طاعة الله، وتقرب بها إلى الله، لوجدها أمامه، فليس له منها =

إِلَّا مَا كَانَ للهِ(١)[١]، وَلَا يَكُونُ للهِ إِلَّا مَا أَحَبَّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَهُوَ الْمَشْرُوعُ[٢]؛ فَكُلُّ عَمَلٍ أُرِيدَ بِهِ غَيْرُ اللهِ لَمْ يَكُنْ للهِ، وَكُلُّ عَمَلٍ لَا يُوَافِقُ شَرْعَ اللهِ لَمْ يَكُنْ للهِ[٣]، بَلْ لَا يَكُونُ للهِ إِلَّا مَا جَمَعَ

الشَّرْح

= إلا ما قدم، وأما ما أخر فهو للورثة، وفي الحديث قال ﷺ: «**يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي مَالِي ـ قَالَ: ـ وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ**»(٢): وما عدا ذلك فهو تاركه.

[١] **وهذا معنى قوله**: (**إِلَّا مَا كَانَ للهِ**)؛ **أي**: إلا ما استغل من الدنيا في طاعة الله فإنه هو الذي يبقى له.

● **ضابط ما كان لله**:

[٢] **أي**: فلا يصل إلى الله ولا يقبل الله إلا ما كان خالصاً لوجهه، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأنعام: ١٣٦]، فالله لا يقبل إلا ما كان خالصاً له ﷻ، وكان على وفق ما شرعه الله، أما أن تجعل شيئاً لله والله لم يشرعه ولم يأمرك به؛ فإنه لا يصل إلى الله ﷻ.

[٣] والذي لا يكون لله (**كُلُّ عَمَلٍ لَا يُوَافِقُ شَرْعَ اللهِ لَمْ يَكُنْ للهِ**)؛ فالله لا يقبل إلا ما وافق شرعه، وما لم يشرعه فهو مردود، كما قال ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»(٣)؛ **أي**: مردود عليه، فكل عمل لم يأمر به رسول الله ويعمله الإنسان ويتقرب به إلى الله فهو مردود عليه، وقال ﷺ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ**»(٤)، فلا بد أن يكون العمل من صدقات وصلوات وعبادات موافقاً لما شرعه الله تعالى، لا حسب ما يهواه =

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٢٢).
(٢) أخرجه مسلم (٢٩٥٨).
(٣) سبق تخريجه (ص٩١).
(٤) أخرجه البخاري (٢٦٩٧).

الْـوَصْفَـيْنِ[١]: أَنْ يَكُونَ للهِ، وَأَنْ يَكُونَ مُوَافِقاً لِمَحَبَّةِ اللهِ وَرَسُولِهِ[٢]، وَهُوَ الْوَاجِبُ وَالْمُسْتَحَبُّ[٣]، كَمَا قَالَ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠][٤].

الشَّرْح

= المرء، فالإنسان قبل الشروع في العمل ينظر هل هذا العمل موافق لشرع الله أو مخالف وهل هو مخلص لله فيه أو غير مخلص ثم يبني أعماله على هذين الشرطين: الإخلاص والمتابعة.

[١] (فَلَا يَكُونُ للهِ إِلَّا مَا جَمَعَ الْوَصْفَيْنِ)، والوصفان هما: الإخلاص، فلا يكون فيه شرك، والمتابعة للرسول ﷺ: فلا يكون فيه بدعة، بهذين الشرطين يقبل الله العمل، ما كان خالصاً لوجه الله، صواباً على سُنَّة رسول الله؛ ولهذا فُسر قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [الملك: ٢]، لم يقل ﷻ: أيكم أكثر عملاً؛ لأن العبرة ليست بالكثرة، ولكن العبرة بالأحسن، ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ﴾ قيل للفضيل بن عياض رحمه الله: ما معنى ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ﴾؟ قَال: «أخلصه وأصوبه»، قيل: يَا أَبَا عَليّ مَا أخلصه وأصوبه؟ قَال: «إِن العَمَل إِذا كَانَ خَالصاً وَلم يكن صَوَاباً لم يُقبل، وَإِذا كَانَ صَوَاباً وَلم يكن خَالصاً لم يُقبل حَتَّى يكون خَالصاً صَوَاباً، والخالص أَن يكون لله، وَالصَّوَاب أَن يكون على سُنَّة رسول الله».

[٢] **أي**: موافقاً لشرع الله؛ لأن الله لا يشرع شيئاً إلا وهو يحبه، فمن لازم الشرع المحبة، وليس من لازم القَدَرِ المحبة كما هو معلوم؛ لأن الله قد يقدر الأشياء التي لا يحبها ابتلاء وامتحاناً.

[٣] **والذي شرعه الله (هُوَ الْوَاجِبُ وَالْمُسْتَحَبُّ)** الموافق لشرع الله إما أن يكون واجباً، والواجب هو: ما يُثاب فاعله، ويُعاقب تاركه، أو مستحبّاً وهو: ما يُثاب فاعله، ولا يُعاقب تاركه، مثل السنن والمستحبات والنوافل.

[٤] قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ **هذان هما الشرطان**: =

[الأدلة على شروط قبول العمل]:

فَلَا بُدَّ مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَهُوَ الْوَاجِبُ وَالْمُسْتَحَبُّ[١]، وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ خَالِصاً لِوَجْهِ اللهِ تَعَالَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾[٢] [البقرة: ١١٢]. وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»[٣](١)، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ**

الشَّرْح

= • **الشرط الأول**: أن يكون العمل صالحاً، ولا يكون صالحاً إلا إذا كان وفق السُّنَّة، أما إن كان على خلاف السُّنَّة فهو فاسد.

• **الشرط الثاني**: أن يكون خالصاً لوجه الله ﷻ: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠]؛ لأن الإنسان قد يعمل أعمالاً صالحة موافقة للسُّنَّة ولكن يدخلها الشرك في القصد والنية؛ كالرياء والسمعة، وطلب الدنيا وغير ذلك فلا تنفع صاحبها. وقد يعمل أعمالاً مخالفة للسُّنَّة فلا تقبل.

• **العمل الصالح والعمل الفاسد**:

[١] **العمل الصالح** هو الواجب والمستحب، يخرج بذلك العمل المحرم والمكروه وأما المباح فلا يثاب فاعله ولا يعاقب تاركه، إلا إذا قصد به الاستعانة على طاعة الله.

[٢] **دليل الشرطين** قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [البقرة: ١١٢] هذان شرطا قبول العمل أسلم وجهه لله وهو محسن ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ هذا الإخلاص ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾؛ **أي**: متبع للرسول ﷺ، وأما ما فقد الشرطين أو أحدهما فلن يدخل به الجنة أبداً، فدلت الآية على أنه لا يدخل الجنة إلا من اجتمع فيه الشرطان: الإخلاص والمتابعة للرسول ﷺ.

[٣] والدليل من السُّنَّة قوله ﷺ: (**مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ** =

(١) سبق تخريجه (ص٩١).

بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُـلِّ امْـرِئٍ مَـا نَوَى؛ فَمَـنْ كَانَتْ هِجْـرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِـهِ فَهِجْـرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِـهِ، وَمَـنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِـدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَـا فَهِجْـرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»[١](١). وَهَذَا الأَصْلُ هُوَ

الشَّرح

= رَدٌّ)، وفي لفظ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ»(٢)؛ أي: من أحدث في الشرع عملاً لم يفعله الرسول ﷺ ويتقرب به إلى الله فهو مردود عليه لا يُقبل منه، وفي الرواية الأخرى: (مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ) وهذه أعم، فمن عمل بدعة ولو لم يكن هو الذي أحدثها فهي مردودة عليه؛ فالبدعة إذاً مردودة سواء أحدثها هو أو أحدثت له وعمل بها.

ومن الأدلة على اشتراط الإخلاص قوله ﷺ: (إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ)، وهذا هو الشرط الأول، ودليل الشرط الثاني قوله: (مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أمرنَا) وهو المتابعة للرسول ﷺ، فإذا جمعنا الحديثين نحصل على الشرطين.

[١] **ليس للمؤمن من عمله إلا ما نوى**، لو تصدق بجبال من ذهب فما له إلا ما نوى أنه لله ولو كان فلساً أو درهماً، وما لم ينوه فليس له منه شيء؛ أي: إن ما نواه المؤمن لله فهو الذي يبقى له، ولو كان قليلاً، ولو كان شق تمرة، قال ﷺ: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ»(٣): أما ما لم ينوه لله فهو مردود ولو كان أمثال الجبال.

(فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِه وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَو امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ). هذا مثال يشرح قوله: (إِنَّمَا الأَعْمَال بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوى)، فالهجرة مثال للعمل، ثم قال ﷺ: (وَمن كَانَت هجرته لدُنْيَا يُصِيبهَا أَو امْرَأَة يَتَزَوَّجهَا فَهجرَته إِلَى مَا هَاجر إِليْهِ)، وليست هجرته إلى الله ورسوله، فليس له بها أجر.

---

(١) أخرجه البخاري (١).
(٢) سبق تخريجه (ص٢٤٠).
(٣) أخرجه البخاري (٦٥٤٠).

أَصْلُ الدِّينِ[١]، وَبِحَسَبِ تَحْقِيقِهِ يَكُونُ تَحْقِيقُ الدِّينِ[٢]، وَبِهِ أَرْسَلَ اللهُ الرُّسُلَ[٣]، وَأَنْزَلَ الْكُتُبَ، وَإِلَيْهِ دَعَا الرَّسُولُ[٤]، وَعَلَيْهِ جَاهَدَ[٥]، وَبِهِ أَمَرَ[٦]، وَفِيهِ رَغَّبَ[٧]؛ وَهُوَ قُطْبُ الدِّينِ الَّذِي تَدُورُ

الشَّرْح

[١] **أي: الإخلاص لله ﷻ واتباع الرسول، (هُوَ أَصْلُ الدِّينِ)** الذي أرسل به الله الأنبياء والمرسلين وأنزل به الشرع.

[٢] **بحسب تحقيق الإخلاص لله**، والمتابعة يكون تحقيق الدين لله ﷻ، وبعدم إخلاصه ينتقص الدين أو يبطل.

[٣] **قال تعالى**: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، هذا هو الأصل الذي أرسل الله به الرسل، وأنزلت به الكتب وهذا هو رأس الدعوة وأول ما يُدعى إليه في منهج الدعوة، فالمناهج التي تهمش التوحيد ولا تدعو إليه مناهج باطلة ولا تجدي شيئاً عند الله سبحانه وتعالى.

[٤] **أي: إلى هذا الأصل**: وهو عبادة الله وحده لا شريك له.

[٥] **أي: قاتل من لم يقبل التوحيد**، قال ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ**»(١)؛ فهو الأصل وهو الأساس الذي أول ما يؤمر به، ويُجاهد في سبيله.

[٦] **أي**: به أمر الله الناس.

[٧] **أي: رغب الناس في الدخول فيه**، فلا ينهى الداعية عن الربا وغيره =

(١) سبق تخريجه (ص١١٣).

عَلَيْهِ رَحَاهُ[١].

[خطر الشرك وكثرته في الناس ووجوب الحذر منه]:

وَالشِّرْكُ غَالِبٌ عَلَى النُّفُوسِ[٢]. وَهُوَ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «**وَهُوَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ**»(١)، وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ:

الشَّرْح

= من المعاصي ابتداء، وإنما يأتي ذلك في الدرجة الثانية، قال ﷺ لمعاذ رضي الله عنه عندما أرسله لليمن: «**فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللهِ، فَإِذَا عَرَفُوا اللهَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا فَعَلُوا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً تُؤْخَذُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ**»(٢)، تدرج في الدعوة ابتداء بالأصل، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه، أما أن ترغبهم في الصدق في المعاملة، والأخلاق الطيبة وتجنب الربا، وتجنب الفواحش، فإنما يأتي ذلك بعد تحقيق الأصل وهو التوحيد.

[١] **فالإخلاص لله هو قطب الدين**، والقطب هو الشيء الذي تدور عليه الأفلاك؛ كالقطب الجنوبي والقطب الشمالي في السماء.

[٢] **أي**: الشرك كثير في الناس والإخلاص قليل، والشرك، نوعان: الشرك الأكبر والشرك الأصغر ومنه الرياء والسمعة، ويخاف منه على الموحدين فالمؤمن يسلم من الشرك الأكبر لكنه قد لا يسلم من الشرك الأصغر وهنا تكمن خطورته.

وهو خفي كالنملة السوداء على الصفا السوداء في ظلمة الليل. والشرك الخفي ليس سهلاً فهو يحبط العمل، فإذا خالط الرياءُ والسمعةُ عملَنا الذي نعمله فإنه يصبح هباء منثوراً؛ ولهذا تخوف منه الرسول ﷺ على أصحابه.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٩٦٠٦). (٢) أخرجه البخاري (١٤٥٨).

قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ نَنْجُو مِنْهُ وَهُوَ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ: «**أَلَا أُعَلِّمُكَ كَلِمَةً إِذَا قُلْتَهَا نَجَوْتَ مِنْ دِقِّهِ وَجِلِّهِ؟**» قُلْ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ**»[١](١). وَكَانَ عُمَرُ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ عَمَلِي كُلَّهُ صَالِحاً، وَاجْعَلْهُ لِوَجْهِكَ خَالِصاً، وَلَا تَجْعَلْ لِأَحَدٍ فِيهِ شَيْئاً[٢].

الشَّرْح

[١] ما يمتنع به المسلم من هذا الشرك:

وأبو بكر أفضل الصحابة وأفضل الأمة، ومع هذا خاف على نفسه من الشرك الخفي، لما سمع الرسول ﷺ يحذر منه، فقال: (**يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ نَنْجُو مِنْهُ وَهُوَ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ؟ فَقَال النَّبِي ﷺ: «أَلَا أُعَلِّمُكَ كَلِمَةً إِذَا قُلْتَهَا نَجَوْتَ مِنْ دِقِّهِ وَجِلِّهِ؟ قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ»**)، فتدعو الله أن يعافيك منه، والله قريب مجيب، فعندما تقول هذه الكلمة بصدق وإخلاص وحضور قلب يعافيك الله منه.

وعمر يخاف على نفسه من هذا الشرك، ويقول: (**اللَّهُمَّ اجْعَلْ عَمَلِي كُلَّهُ صَالِحاً**)؛ **يعني**: صواباً على السُّنَّة، (**وَاجْعَلْهُ لِوَجْهِكَ خَالِصاً**)؛ **أي**: سالماً من الشرك، (**وَلَا تَجْعَلْ لِأَحَدٍ فِيهِ شَيْئاً**).

[٢] الحذر من وسوسة الشيطان:

يأتي الشيطان إلى بعض الشباب ـ وهذا شيء سُئلنا عنه كثيراً ـ ويقول له: لا تصلِّ مع الجماعة حتى لا تصاب بالرياء، لا تقم وتصلِّ بالليل حتى لا تصاب بالرياء، لا تعمل كذا خوفاً من الرياء، فلا يلتفت إليه؛ فالمسلم =

(١) مسند أبي يعلى (٥٨).

وَكَثِيراً مَا يُخَالِطُ النُّفُوسَ[١] مِنَ الشَّهَوَاتِ الْخَفِيَّةِ مَا يُفْسِدُ عَلَيْهَا تَحْقِيقَ مَحَبَّتِهَا للهِ وَعُبُودِيَّتِهَا لَهُ. وَإِخْلَاصِ دِينِهَا لَهُ، كَمَا قَالَ شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ: يَا بَقَايَا(١) الْعَرَبِ إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الرِّيَاءُ وَالشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ. قِيلَ لِأَبِي داود السجستاني: وَمَا الشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ؟ قَالَ: حُبُّ الرِّئَاسَةِ.

وَعَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «**مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي زَرِيبَةِ غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ**

الشَّرح

= يعمل الأعمال الصالحة ويسأل الله السلامة من الرياء، ولا يترك العمل خوفاً من الرياء فهذا تخذيل من الشيطان.

[١] الحذر من الشهوات التي تفسد العمل:

كثيراً ما يخالط حب الشهوات النفوسَ، فكل إنسان يحب الشهرة، والمدح، والظهور، وهذا خطير جدّاً؛ لأنه من الرياء، ولكن يُدفع الرياء بالإخلاص، وبالدعاء الذي علمه الرسول ﷺ لأصحابه، كما يُدفع أيضاً بالخوف من الرياء، فإذا خاف منه سلم، ولكن إذا أمن من الرياء فإنه يقع فيه.

(١) كذا في نسخة الفتاوى، وفي بعض النسخ: يانعايا، وجاءت هذه اللفظة في بعض الأحاديث؛ فعن عباد بن تميم عن عمه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**يا نعايا العرب يا نعايا العرب ـ ثلاثاً ـ إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية**». شعب الإيمان (٥/ ٣٣٢)، والزهد الكبير للبيهقي (٣١٦)، والزهد لأبي داود (٣٥٢) وانظر: مجمع الزوائد (٦/ ٢٧٥)، وفي جامع الرسائل لابن تيمية ذكر شيخ الإسلام هذا الحديث (٢/ ٢٨٥)، وأيضاً في (قاعدة في المحبة) (ص٩٩). وبهذا اللفظ أيضاً ذكرها صاحب لسان العرب وساق الحديث، ومثله صاحب النهاية في غريب الأثر.

لِدِينِهِ»[١](١)، قال الترمذي: حديث حسن صحيح، فَبَيَّنَ ﷺ أَنَّ الْحِرْصَ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ فِي فَسَادِ الدِّينِ لَا يَنْقُصُ عَنْ فَسَادِ الذِّئْبَيْنِ الْجَائِعَيْنِ لِزَرِيبَةِ الْغَنَمِ، وَذَلِكَ بَيِّنٌ[٢]؛ فَإِنَّ الدِّينَ السَّلِيمَ لَا

الشَّرْح

[١] الإنسان مغرم بحب المال، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ [العاديات: ٨] وقال: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾ [الفجر: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾ [الإنسان: ٨]؛ فمحبة المال طبيعة وغريزة في الإنسان، كما أنه يتطلع الإنسان إلى الرفعة والشرف، وكلٌّ يحب الرفعة والشرف لنفسه، ولا يُلام على مثل ذلك، لكن إذا طغى هذا الحرص على المال والشرف على حب الدين وصار ضرراً على الإنسان، فإن حب المال يفسد الدين، ويتزايد أخذه للمال وطلبه له ولو كان غصباً أو نهباً، كما قال ﷺ: «**يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا**»(٢): ففي ذلك تحذير من الحرص الشديد على المال. وكذلك قد يقدم دينه ثمناً لنيل الشرف والرئاسة.

ولا بأس أن الإنسان يفعل الأسباب المباحة لطلب الرزق وتحصيل المال، ولكن يحذر من الحرص الشديد الذي يحمله على ارتكاب الحرام لأخذ المال، لكن إذا زاد حب المال في نفسه فقد ينسى دينه؛ كالذئب إذا تمكن من الغنم وهي في الزريبة؛ **أي**: في الحظيرة التي تجمعها، ولا تقدر على الفرار بسبب إحاطة الزريبة بها. فإن الذئب يفتك بها، كذلك الحرص على المال يتلف الدين. هذا إذا كان ذئباً واحداً، فكيف إذا اجتمع معه ذئب الحرص على الشرف والرئاسة فإن الفتك بالدين يكون أشد.

وهذا مثل ضربه النبي ﷺ، لتقريب المعنى.

[٢] كلٌّ يعرفه؛ **أي**: كل يعرف إفساد الذئبين الجائعين للغنم المحصورة في الزريبة، لكن قد يغيب عنهم أضرار الحرص على المال والشرف بالدين.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٧٦).

(٢) أخرجه مسلم (١١٨).

يَكُونُ فِيهِ هَذَا الْحِرْصُ[١]، وَذَلِكَ أَنَّ الْقَلْبَ إِذَا ذَاقَ حَلَاوَةَ عُبُودِيَّتِهِ للهِ وَمَحَبَّتِهِ لَـهُ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى يُقَدِّمَهُ عَلَيْهِ[٢]، وَبِذَلِكَ يُصْرَفُ عَنْ أَهْلِ الْإِخْلَاصِ للهِ السُّوءُ وَالْفَحْشَاءُ[٣]، كَمَا قَالَ تَعَالَى:

الشَّرْح

[١] وإنما يكون فيه حرص معتدل، فقد قال النبي ﷺ: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجِزْ**»(١): فالحرص المعتدل مطلوب، وإنما الحرص الجائر هو المنهي عنه، كما قيل:

لْا تَحْرَصَن فالحِرْصُ ليسَ بِزَائدٍ … في الرزق بل يشقي الحريص ويتعب

والمؤمن يحرص على دينه أكثر من حرصه على ماله فلا يقدم على دينه شيئاً من الطمع الدنيوي.

[٢] **وذلك لأن الإيمان الثابت في القلب إذا وجد المسلم حلاوته**؛ فإنه لا يقدم عليه شيئاً لا مالاً ولا شرفاً، كما قال ﷺ: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**»(٢). فإذا بلغ الإنسان هذه المرتبة؛ فقد وجد حلاوة الإيمان، وليس كل مؤمن يجد حلاوة الإيمان، فالإيمان يتفاضل يزيد وينقص، ولكن من بلغ هذه المرتبة وجد حلاوة الإيمان؛ ولهذا لما سأل هرقل عظيم الروم أبا سفيان عن الرسول ﷺ وعن صفاته، ومن جملة أسئلته قال: «هل يرتد أحد ممن تبعه؟ قال: لا، قال: كذلك الإيمان إذا خالط بشاشة القلب»(٣): فإنه لا يرتد عنه ولو قُتل أو حُرق.

[٣] **إذا بلغ الإنسان مرتبة المخلصين لله** ﷻ؛ فإنه يصرف الله عنه السوء والفحشاء كما صرفها عن يوسف عليه السلام.

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).
(٢) أخرجه البخاري (١٦).
(٣) أخرجه البخاري (٧).

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: ٢٤].

فَإِنَّ الْمُخْلِصَ للهِ ذَاقَ مِنْ حَلَاوَةِ عُبُودِيَّتِهِ للهِ مَا يَمْنَعُهُ عَنْ عُبُودِيَّتِهِ لِغَيْرِهِ[١]، وَمِنْ حَلَاوَةِ مَحَبَّتِهِ للهِ مَا يَمْنَعُهُ عَنْ مَحَبَّةِ غَيْرِهِ، إِذْ لَيْسَ عِنْدَ الْقَلْبِ لَا أَحْلَى وَلَا أَلَذُّ وَلَا أَطْيَبُ وَلَا أَلْيَنُ وَلَا أَنْعَمُ مِنْ حَلَاوَةِ الْإِيمَانِ الْمُتَضَمِّنِ عُبُودِيَّتَهُ للهِ، وَمَحَبَّتَهُ لَهُ، وَإِخْلَاصَهُ الدِّينَ لَهُ، وَذَلِكَ يَقْتَضِي انْجِذَابَ الْقَلْبِ إِلَى اللهِ فَيَصِيرُ الْقَلْبُ مُنِيباً إِلَى اللهِ خَائِفًا مِنْهُ رَاغِباً رَاهِباً، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾[٢] [ق: ٣٣]، إِذِ الْمُحِبُّ يَخَافُ مِنْ زَوَالِ مَطْلُوبِهِ وَحُصُولِ مَرْغُوبِهِ، فَلَا يَكُونُ عَبْداً للهِ وَمُحِبَّهُ إِلَّا بَيْنَ خَوْفٍ وَرَجَاءٍ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾[٣] [الإسراء: ٥٧].

الشَّرح

- **نتائج الإخلاص ومضار عدمه:**

[١] **إذا لم يبلغ الإنسان هذه المرتبة فقد تدركه الشهوات والشبهات**، أما إذا بلغ هذه المرتبة؛ فإنه لا يدركه شيء من الشهوات والشبهات، ويكون ثابتاً ثبات الجبال الرواسي.

[٢] **هذا هو القلب المنيب**، قال تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ [ق: ٣٣]؛ **أي**: راجع عائد إلى الله ﷻ، مُعرض عما سواه.

[٣] **كما في قوله تعالى**: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٧]؛ =

وَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ مُخْلِصاً لَـهُ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَيُحْيِي قَلْبَهُ[١]، وَاجْتَذَبَهُ إِلَيْهِ فَيَنْصَرِفُ عَنْهُ مَا يُضَادُّ ذَلِكَ مِنَ السُّوءِ وَالْفَحْشَـاءِ، وَيَخَـافُ مِنْ حُصُولِ ضِدِّ ذَلِكَ؛ بِخِـلَافِ الْقَلْبِ الَّذِي لَـمْ يُخْلِـصْ للهِ، فَإِنَّهُ فِي طَلَبٍ وَإِرَادَةٍ وَحُبٍّ مُطْلَقٍ، فَيَهْوَى مَا يَسْنَحُ لَهُ وَيَتَشَبَّثُ بِمَا يَهْوَاهُ؛ كَالْغُصْنِ أَيُّ نَسِيمٍ مَـرَّ بِعِطْفِهِ أَمَالَـهُ[٢]، فَتَارَةً تَجْتَذِبُهُ الصُّوَرُ الْمُحَرَّمَةُ وَغَيْرُ الْمُحَرَّمَةِ؛ فَيَبْقَى أَسِيراً عَبْداً لِمَنْ لَوِ اتَّخَـذَهُ هُـوَ عَبْداً لَهُ لَكَانَ

الشَّرْح

= المراد بذلك عيسى وأمه وعزير الذين اتخذهم اليهود والنصارى أرباباً من دون الله، فقال الله: إن هؤلاء الذين اتخذتموهم أرباباً من دوني هم من عبادي يعبدونني ويخافونني ويدعونني، فهم فقراء إلى الله ﷻ، ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾؛ **أي**: القرب من الله ـ جلّ وعلا ـ، ويتنافسون في ذلك، ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾، فهم يجمعون بين الخوف والرجاء، ولا يأخذون الخوف فقط فيقنطون من رحمة الله، ولا يأخذون الرجاء فقط فيأمنون من مكر الله، بل يكونون بين الخوف والرجاء، وتلك طريق الأنبياء عليهم السلام ومن تبعهم.

- **ثمرة الإخلاص:**

[١] **إذا رزق الله ﷻ العبد الإخلاص لا يضره شيء**، مهما عرض له من الشهوات والشبهات والشدائد، فإن الله يثبته، وأما إذا كان في القلب نقص في الإخلاص فإنه قد يتأثر بالعوارض من الشبهات والشهوات والمخاوف وغير ذلك، بحسب ما فيه من النقص.

[٢] **فهو مثل**: غصن الشجرة كلما جاء نسيم من الهواء أماله شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، فهو ليس ثابتاً، وكذلك القلب الذي ليس فيه الإخلاص فإنه تميله العوارض.

ذَلِكَ عَيْباً وَنَقْصاً وَذَمّاً[١]. وَتَـارَةً يَجْتَذِبُهُ الشَّرَفُ وَالرِّئَاسَةُ[٢]، فَتُرْضِيهِ الْكَلِمَـةُ وَتُغْضِبُهُ الْكَلِمَةُ وَيَسْتَعْبِدُهُ مَنْ يُثْنِي عَلَيْهِ وَلَـوْ بِالْبَاطِلِ، وَيُعَـادِي مَنْ يَذُمُّـهُ وَلَـوْ بِالْحَقِّ[٣]. وَتَـارَةً يَسْتَعْبِدُهُ الدِّرْهَمُ وَالدِّينَارُ،

الشَّـرْح

[١] **يعني**: يجذبه العشق، إذا رأى النساء المتبرجات في الأسواق والمحافل المختلطة أو في العمل الوظيفي فإنه ينجذب إليهن.

وقوله: (**فَيبقى أَسِيراً عبداً لمن لو اتَّخذهُ هُوَ عبداً لهُ لكَانَ ذَلك عَيْباً ونقصاً وذمّاً**)؛ **أي**: يكون عبداً لمن يحب من المال وغيره؛ ولذلك قال ﷺ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ تَعِسَ وَانْتَكَسَ وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ**»⁽١⁾، كذلك الرجل إذا أعجبته المرأة وعشقها صار عبداً لها، يخضع لقولها ويحقق طلبها، يصير عبداً لما يهواه؛ ولهذا قال ـ جلّ وعلا ـ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، ما أملاه عليه هواه أخذه ولو كان حراماً، هذا الذي يعبد هواه.

[٢] **يجتذبه حب الشرف والرئاسة فيطلبهما بأي ثمن**، ولو على حساب دينه.

[٣] **ومن خطر الحرص على الشـرف والرئاسة**، أن يعجب الإنسان بنفسه إذا مدحه أحد بالباطل، ويغضب على من يذمه ولو بالحق؛ لأنه يريد الرئاسة والشرف، ويعجبه المدح ولو بالباطل، ويغمه التنقص ولو بحق، فهذا دليل على أنه يريد الشـرف والرئاسة بأي ثمن، أمـا الذي لا يريد الشرف والرئاسة فإنه يكره المدح، لقوله ﷺ: «**إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَدَّاحِينَ فَاحْثُوا فِي وُجُوهِهِمُ التُّرَابَ**»⁽٢⁾: فلا يقبل المدح في وجهه؛ لأن المدح يجعله يطغى، ويغتر بنفسه. والذي يريد الحق يفرح بالنصيحة ويفرح بالتنبيه على الخطأ؛ ولهذا =

(١) سبق تخريجه (ص١٢١).
(٢) أخرجه مسلم (٣٠٠٢).

وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي تَسْتَعْبِدُ الْقُلُوبَ، وَالْقُلُوبُ تَهْوَاهَا، فَيَتَّخِذُ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَيَتَّبِعُ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ[١]. وَمَنْ لَمْ يَكُنْ خَالِصاً للهِ عَبْداً لَهُ قَدْ صَارَ قَلْبُهُ مُعَبَّداً لِرَبِّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، بِحَيْثُ يَكُونُ اللهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ، وَيَكُونُ ذَلِيلاً لَهُ خَاضِعاً وَإِلَّا اسْتَعْبَدَتْهُ الْكَائِنَاتُ، وَاسْتَوْلَتْ عَلَى قَلْبِهِ الشَّيَاطِينُ[٢]، وَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ إِخْوَانِ الشَّيَاطِينِ، وَصَارَ فِيهِ مِنَ السُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ، وَهَذَا أَمْرٌ ضَرُورِيٌّ لَا حِيلَةَ فِيهِ.

الشَّرْح

= يقول عمر بن الخطاب: «رحم الله امرءاً أهدى إلى عمر عيوبه»، فاعتبر من بيّن له الخطأ كمن قدم له هدية.

[١] قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

[٢] **أي: من لم يكن عبداً لله صار عبداً لهواه**، وصار عبداً للشيطان وعبداً لشهواته، فالإنسان إما أن يكون عبداً لله، وإما أن يكون عبداً لغيره، لا يمكن أن يكون إلا عبداً؛ فمن ترك عبودية الله ابتلاه الله بعبودية غيره ـ والعياذ بالله ـ؛ ولهذا لما ترك المشركون عبودية الله ابتلوا بعبادة الأصنام والأشجار والأحجار والجمادات، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هربوا من الرق الذي خلقوا له   فبلوا برق النفس والشيطان

والرق: هو العبودية، فأنت مخلوق لعبودية الله، فإذا تركتها صرت عبداً لغير الله ولا بد أنك عبد مهما قلت إنك حر، فأنت عبد مستعبد لله أو لغيره.

وعبودية الله شرف للإنسان وهي الحرية الحقيقية، وأما عبودية الإنسان لغير الله فهي مذلة ومهانة، ورق لغير الله عَزَّوَجَلَّ، فلا يحرر العبد من الهوى، ومن الشهوات، لا يحررها من ذل عبوديتها للمخلوق إلا أن يكون عبداً لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فَالْقَلْبُ إنْ لَمْ يَكُنْ حَنِيفاً مُقْبِلاً عَلَى اللهِ مُعْرِضاً عَمَّا سِوَاهُ وَإِلَّا كَانَ مُشْرِكاً[١]. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾، إلَى قَوْلِهِ: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم: ٣٠ ـ ٣٢][٢].

الشَّرْح

• **لا يكون القلب مخلصاً إلا إذا أقبل على الله وأعرض عما سواه:**

[١] **القلب الحنيف معناه المقبل على الله**، المعرض عما سواه، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٠]؛ فإبراهيم عليه السلام كان مقبلاً على الله بجميع قلبه وعمله واتجاهه، معرضاً عما سواه، والحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام: هي الإقبال على الله والإعراض عما سواه.

فإذا لم يكن مقبلاً على الله، معرضاً عما سواه، وقع في الشرك بلا شك؛ لأنه عبد ولا بد، فإما أن يكون عبداً لله، وإما أن يكون عبداً لغير الله، فليس هناك أحد من البشر ليس عبداً، بل كل من في السمٰوات والأرض عبيد.

[٢] **قال تعالى**: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ يقوله الله لنبيه محمد ﷺ، وهو أمر لجميع الأمة: أقم وجهك؛ **أي**: أخلص نيتك وقصدك لله، وتلك هي الحنيفية، فمعنى قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾؛ **أي**: أخلص عملك، واتجاهك ومقصودك، ﴿حَنِيفًا﴾؛ **أي**: مقبلاً على الله معرضاً عما سواه، ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾، وهي دين الإسلام ودين الفطرة التي ﴿فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾؛ **أي**: خلقهم عليها؛ ولهذا قال ﷺ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**»(١): فالأصل أن الإنسان على الفطرة =

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٥).

الشَّرْح

= السليمة، هكذا خلقه الله، غير أنه ينحرف بالتربية السيئة ودعاة السوء، فتُغير الفطرة بسبب سوء التربية، ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ﴾، لم يقل: لا تبديل لمخلوق الله، فالمخلوق يغير ويبدل، ولكن خلق الله ﷻ لا أحد يغيره، فالأصل أنه على الفطرة السليمة لا أحد يجعله على غيرها عند إيجاده، ولكن يحصل التغير إن طرأ تغيير فيما بعد فذلك على يد أهل الضلال، ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾؛ **أي**: الفطرة هي الدين القيم، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ هذه الحقيقة.

ثم قال: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾؛ **أي**: حين يحصل الخطأ من الإنسان فإنه يُنيب إلى الله ﷻ، ومن كانت فطرته سليمة يُنيب إلى الله ويرجع إليه إذا أخطأ، ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾؛ **أي**: اتقوا الله ﷻ، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وقد عطفها الله على التقوى وهي منها للاهتمام بها، مما يدل على أهمية الصلاة، ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الروم: ٣١] الذين انحرفت فطرتهم وعبدوا غير الله: من الأصنام والأشجار والأحجار والشهوات والأطماع، ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًاۖ﴾ [الروم: ٣٢] فمن الطبيعي أن الناس إذا تركوا الدين الصحيح فإنهم يُبتلون بالأديان الباطلة ولا يستقرون ولا يجتمعون على دين، ولذلك فإن المشركين متفرقون في معبوداتهم بخلاف الموحدين المسلمين فدينهم واحد، وكلمتهم واحدة لأن معبودهم واحد؛ أما المشركون فكل واحد يريد صنماً يعبده وحده ويرى أنه أحسن من صنم غيره، ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم: ٣٢] فهم لا يدركون أنهم مخطئون، بل كلٌّ يدعي أنه مصيب ويفرح بما عنده من الباطل فلا يرجع عنه، أما لو أن الإنسان إذا أخطأ شك في أمره فإنه حري أن يتوب، وأما إذا كان مقتنعاً بما هو عليه من الباطل وفرحاً به، فهذا لا يمكن أن يتوب ـ والعياذ بالله ـ.

وَقَدْ جَعَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ إِبْرَاهِيمَ أَئِمَّةً[١] لِهَؤُلَاءِ الْحُنَفَاءِ الْمُخْلِصِينَ أَهْلِ مَحَبَّةِ اللهِ وَعِبَادَتِهِ وَإِخْلَاصِ الدِّينِ لَهُ؛ كَمَا جَعَلَ فِرْعَوْنَ وَآلَ فِرْعَوْنَ أَئِمَّةَ الْمُشْرِكِينَ الْمُتَّبِعِينَ أَهْوَاءَهُمْ. قَالَ تَعَالَى فِي إِبْرَاهِيمَ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء: ٧٢، ٧٣][٢]، وَقَالَ فِي فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى

الشَّرْح

[١] **أي**: قدوة لمن جاء بعده من الموحدين والحنفاء، كما قال الله له: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ﴾ [البقرة: ١٢٤]، فهو إمام الموحدين إلى أن تقوم الساعة، وكذلك أتباعه من الأنبياء والمرسلين الذين جاؤوا من ذريته أيضاً هم أئمة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤]؛ فإبراهيم وأتباعه وذريته أئمة للمسلمين. **وكما جعل إبراهيم قدوة للموحدين. (جَعَلَ فِرْعَوْنَ وَآلَ فِرْعَوْنَ أَئِمَّةَ الْمُشْرِكِينَ الْمُتَّبِعِينَ أَهْوَاءَهُمْ)**، قال الله تعالى عن فرعون وقومه: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [القصص: ٤١، ٤٢]، ففرعون وأتباعه صاروا ـ والعياذ بالله ـ أئمة لأهل الضلال والشرك، وقادة لهم، يقودونهم إلى النار، وإبراهيم وآله قدوة لأهل التوحيد يقودونهم إلى الجنة.

[٢] وقال تعالى عن إبراهيم: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء: ٧٢، ٧٣]، فكما أن الله اتخذ إبراهيم خليلاً وجعله إماماً للمسلمين، فكذلك جعل الله من ذريته أئمة للمسلمين، ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾.

ﭐلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [القصص: ٤١، ٤٢]، وَلِهَذَا يَصِيرُ أَتْبَاعُ فِرْعَوْنَ[١] أَوَّلاً إِلَى أَنْ لَا يُمَيِّزُوا بَيْنَ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ، وَبَيْنَ مَا قَدَّرَ اللهُ وَقَضَاهُ؛ بَلْ يَنْظُرُونَ إِلَى الْمَشِيئَةِ الْمُطْلَقَةِ الشَّامِلَةِ[٢]، ثُمَّ فِي آخِرِ الْأَمْرِ لَا يُمَيِّزُونَ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ؛ بَلْ

الشَّرْح

[١] **أي**: من أهل الضلال، وكل ضال وكل كافر، وكل مشرك فهو من أتباع فرعون.

[٢] فأهل الضلال لا يفرقون بين ما شرعه الله وما قدر الله. فما شرعه الله فهو يرضاه ويحبه، وأما ما قضاه وقدره فقد يرضاه الله ويحبه وقد لا يرضاه ولا يحبه؛ لأنه يقدر الخير والشر، يقدر الكفر والإيمان، يقدر الهدى والضلال؛ فالمقضي والمقدر منه ما هو محبوب ومرضي، ومنه ما هو مكروه ومبغض ومسخوط، والله خلقه ابتلاءً وامتحاناً للعباد وما شرعه الله فهو مرضي له تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فهناك فرق بين الشرع والقدر فالمشروع يحبه الله ويرضاه، وأما المقضي والمقدر فقد يحبه وقد لا يحبه.

وأهل الضلال لا يفرقون بينهما ويقولون: كل ما قدره فهو يحبه، فلا يفرقون بين ما يشرعه الله وما يقدره الله، وهذا هو الضلال والعياذ بالله؛ لأنهم (**يَنْظُرُونَ إِلَى الْمَشِيئَةِ الْمُطْلَقَةِ الشَّامِلَةِ**) ويقولون: كل ما شاءه الله فهو يحبه، فهم إذا كفروا عصوا الشرع أطاعوا القضاء والقدر بزعمهم، والله يحب منهم ذلك، تعالى الله عما يقولون، قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ﴾ [الأعراف: ٢٨، ٢٩]، فالذي أمر الله به هو الذي يرضاه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ويحبه.

يَجْعَلُونَ وُجُودَ هَذَا وُجُودَ هَذَا[١]، وَيَقُولُ مُحَقِّقُوهُمْ: الشَّرِيعَةُ فِيهَا طَاعَةٌ وَمَعْصِيَةٌ. وَالْحَقِيقَةُ فِيهَا مَعْصِيَةٌ بِلَا طَاعَةٍ؛ وَالتَّحْقِيقُ لَيْسَ فِيهِ طَاعَةٌ وَلَا مَعْصِيَةٌ[٢]، وَهَذَا تَحْقِيقُ مَذْهَبِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ الَّذِينَ أَنْكَرُوا الْخَالِقَ وَأَنْكَرُوا تَكْلِيمَهُ لِعَبْدِهِ مُوسَى وَمَا أَرْسَلَهُ بِهِ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ.

مِثَالُ ذَلِكَ: اسْمُ «الْفَنَاءِ»[٣] فَإِنَّ «الْفَنَاءَ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ»: نَوْعٌ لِلْكَامِلِينَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ؛ وَنَوْعٌ لِلْقَاصِدِينَ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ؛ وَنَوْعٌ لِلْمُنَافِقِينَ الْمُلْحِدِينَ الْمُشَبِّهِينَ.

(فَأَمَّا الْأَوَّلُ) فَهُوَ «الْفَنَاءُ عَنْ إِرَادَةِ مَا سِوَى اللهِ»: بِحَيْثُ لَا يُحِبُّ

الشَّرْح

[١] **أي**: ينتهي بهم عدم التفريق بين القدر والشرع إلى القول بوحدة الوجود، فيقولون: الكون ليس فيه انقسام كله هو الله، فليس هناك مخلوق وخالق، ولا عبد ورب، الكل شيء واحد هو الله، تعالى الله عما يقولون.

[٢] **هذا تقسيم الصوفية**، فهم يقسمون الناس إلى ثلاثة أقسام:

- **القسم الأول**: العامة، وهم أهل الشريعة، ولديهم طاعات ومعاص.
- **القسم الثاني**: الخاصة، وهم أهل الحقيقة، وهؤلاء ليس عندهم معاص، بل كل ما يصدر عنهم طاعات، حتى ولو كان زناً أو سرقة؛ لأنه مقدر عليهم.
- **القسم الثالث**: خاصة الخاصة، وهم أهل التحقيق، ليس عندهم طاعات ولا معاص؛ لأنهم وصلوا إلى الله وسقطت عنهم التكاليف.

[٣] **الفناء من مصطلحات الصوفية**، والفناء في اللغة معناه الاضمحلال وذهاب الشيء بحيث لا يبقى منه شيء، هذا هو الفناء في اللغة، ويريدون به أحد ثلاثة أمور: الفناء الشرعي، وفناء السِّوى، وفناء الوجود.

إِلَّا اللهَ، وَلَا يَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ وَلَا يَتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيْهِ، وَلَا يَطْلُبُ غَيْرَهُ؛ وَهُوَ الْمَعْنَى الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُقْصَدَ بِقَوْلِ الشَّيْخِ أَبِي يَزِيدَ حَيْثُ قَالَ: أُرِيدُ أَنْ لَا أُرِيدَ إِلَّا مَا يُرِيدُ؛ أَيِ: الْمُرَادُ الْمَحْبُوبُ الْمَرْضِيُّ؛ وَهُوَ الْمُرَادُ بِالْإِرَادَةِ الدِّينِيَّةِ وَكَمَالُ الْعَبْدِ أَنْ لَا يُرِيدَ وَلَا يُحِبَّ وَلَا يَرْضَى إِلَّا مَا أَرَادَهُ اللهُ وَرَضِيَهُ وَأَحَبَّهُ، وَهُوَ مَا أَمَرَ بِهِ أَمْرَ إِيجَابٍ أَوِ اسْتِحْبَابٍ؛ وَلَا يُحِبُّ إِلَّا مَا يُحِبُّهُ اللهُ؛ كَالْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ.

وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٩]، قَالُوا: هُوَ السَّلِيمُ مِمَّا سِوَى اللهِ، أَوْ مِمَّا سِوَى عِبَادَةِ اللهِ، أَوْ مِمَّا سِوَى إِرَادَةِ اللهِ، أَوْ مِمَّا سِوَى مَحَبَّةِ اللهِ؛ فَالْمَعْنَى وَاحِدٌ وَهَذَا الْمَعْنَى إِنْ سُمِّيَ فَنَاءً أَوْ لَمْ يُسَمَّ هُوَ أَوَّلُ الْإِسْلَامِ وَآخِرُهُ، وَبَاطِنُ الدِّينِ وَظَاهِرُهُ[١].

الشَّرح

[١] **الأول**: الفناء الشرعي: وهذا محمود، ومعناه أنك لا تأخذ إلا ما جاء به الشرع، ولا تنظر إلى ما سواه بل تتركه وتبتعد عنه، وتعتبره كأنه غير موجود.

الثاني: فناء السوى، وهو عند الصوفية: إذا بلغ الإنسان غاية القرب من الله، فإنه لا ينشغل بالعبادة؛ لأنه وصل إلى الله ﷻ، فيفنى بمعبوده عن عبادته، وبمشهوده عن شهادته... إلى آخره.

الثالث: فناء الوجود وهو الفناء عما سوى الله، وهذا قول أهل وحدة الوجود كابن عربي وغيره، يقولون: ليس في الوجود إلا الله، فالله هو الوجود كله، السمٰوات والأرض والجبال والكلاب والحمير والآدميون.. كلها =

(وَأَمَّا النَّوْعُ الثَّانِي) فَهُوَ «الْفَنَاءُ عَنْ شُهُودِ السِّوَى»[١]: وَهَذَا يَحْصُلُ لِكَثِيرٍ مِنَ السَّالِكِينَ[٢]؛ فَإِنَّهُمْ لِفَرْطِ انْجِذَابِ قُلُوبِهِمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَعِبَادَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَضَعْفِ قُلُوبِهِمْ عَنْ أَنْ تَشْهَدَ غَيْرَ مَا تَعْبُدُ وَتَرَى غَيْرَ مَا تَقْصِدُ؛ لَا يَخْطُرُ بِقُلُوبِهِمْ غَيْرُ اللهِ؛ بَلْ وَلَا يَشْعُرُونَ[٣]؛ كَمَا قِيلَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص: ١٠] قَالُوا: فَارِغاً مَنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ ذِكْرِ مُوسَى.

وَهَذَا كَثِيرٌ يَعْرِضُ لِمَنْ دهَمَهُ أَمْرٌ مِنَ الْأُمُورِ إِمَّا حُبٌّ وَإِمَّا خَوْفٌ؛ وَإِمَّا رَجَاءٌ يُبْقِي قَلْبَهُ مُنْصَرِفاً عَنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا عَمَّا قَدْ أَحَبَّهُ أَوْ خَافَهُ أَوْ طَلَبَهُ؛ بِحَيْثُ يَكُونُ عِنْدَ اسْتِغْرَاقِهِ فِي ذَلِكَ لَا يَشْعُرُ بِغَيْرِهِ[٤].

فَإِذَا قَوِيَ عَلَى صَاحِبِ الْفَنَاءِ هَذَا فَإِنَّهُ يَغِيبُ بِمَوْجُودِهِ عَنْ

الشَّرح

= هي الله، والذي يثبت موجوداً غير الله مشرك، فلا موجود إلا الله، والكون كله هو الله، ولو اعتقدت أن هناك خالقاً ومخلوقاً تكون مشركاً عندهم، فغاية التوحيد عندهم هي الفناء عن الموجودات كلها، وأن تعتبر الوجود كله هو الله، وهذا ما يسمى بوحدة الوجود، وهو أكفر مذاهب أهل الأرض ـ والعياذ بالله ـ.

[١] **هذا زيادة إيضاح**، فقوله: (وَأما النَّوْع الثَّانِي: **فَهُوَ الْفَنَاءُ عَنْ شُهُودِ السِّوَى**)؛ **يعني**: لا يرى غير الله ـ جلّ وعلا ـ.

[٢] **يعني**: الصوفية.

[٣] هو بهذا المعنى لا بأس به، ولكنه لفظ مبتدع.

[٤] **هذا ما يسمى فناء السوى**، لا يهتم إلا بما يرجو أو يخاف.

وُجُودِهِ، وَبِمَشْهُودِهِ عَنْ شُهُودِهِ، وَبِمَذْكُورِهِ عَنْ ذِكْرِهِ، وَبِمَعْرُوفِهِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ، حَتَّى يَفْنَى مَنْ لَمْ يَكُنْ وَهِيَ الْمَخْلُوقَاتُ الْمُعَبَّدَةُ مِمَّنْ سِوَاهُ[١]، وَيَبْقَى مَنْ لَمْ يَزُلْ وَهُوَ الرَّبُّ تَعَالَى؛ وَالْمُرَادُ فَنَاؤُهَا فِي شُهُودِ الْعَبْدِ وَذِكْرِهِ[٢]، وَفَنَاؤُهُ عَنْ أَنْ يُدْرِكَهَا أَوْ يَشْهَدَهَا. وَإِذَا قَوِيَ هَذَا ضَعُفَ الْمُحِبُّ حَتَّى اضْطَرَبَ فِي تَمْيِيزِهِ فَقَدْ يَظُنُّ أَنَّهُ هُوَ مَحْبُوبُهُ، كَمَا يُذْكَرُ: أَنَّ رَجُلاً أَلْقَى نَفْسَهُ فِي الْيَمِّ فَأَلْقَى مُحِبُّهُ نَفْسَهُ خَلْفَهُ، فَقَالَ: أَنَا وَقَعْتُ فَمَا أَوْقَعَكَ خَلْفِي؟ قَالَ: غِبْتُ بِكَ عَنِّي فَظَنَنْتُ أَنَّكَ أَنَا[٣].

و«هَذَا الْمَوْضِعُ» زَلَّ فِيهِ أَقْوَامٌ[٤] وَظَنُّوا أَنَّهُ اتِّحَادٌ، وَأَنَّ الْمُحِبَّ

الشَّرح

[١] إذا غلب عليه الفناء فغاب بموجوده عن وجوده، وقال: أنا لست موجوداً ولا أحد موجود إلا الله ـ جلّ وعلا ـ فهذا ضلال، فهناك موجودات وأشياء، ولكن من فرط تعلقهم بالله ـ بزعمهم ـ أصبح كأن لا يوجد في الكون إلا الله عَزَّ وَجَلَّ.

ـ فيترك العبادة ويتعلق بالله بزعمه، ويزعم أنه لا فائدة من العبادة؛ لأن المقصود منها حصل، وهو معرفة الله والوصول إليه، وإذا وصل إلى هذه الغاية اكتفى بذلك، وعلى كل حال البدع لا تأتي إلا بالشر مهما كان ومآلها إلى الشر.

[٢] **كأنه لا يراها**، ولا يذكرها أبداً.

[٣] **لما سقط محبوبه في البحر أسقط نفسه معه**، ولما سأله الساقط **(أَنَا وَقَعْتُ فَمَا أَوْقَعَكَ خَلْفِي؟)**: قال له: طننتك أنا.

[٤] **أي: هلكت بسببه أقوام**، وهو في بدايته قد يكون مقبولاً إلى حدٍّ ما، ولكن في نهايته يصير ضلالاً.

يَتَّحِدُ بِالْمَحْبُوبِ حَتَّى لَا يَكُونَ بَيْنَهُمَا فَرْقٌ فِي نَفْسِ وُجُودِهِمَا، وَهَذَا غَلَطٌ؛ فَإِنَّ الْخَالِقَ لَا يَتَّحِدُ بِهِ شَيْءٌ أَصْلاً، بَلْ لَا يَتَّحِدُ شَيْءٌ بِشَيْءٍ إِلَّا إِذَا اسْتَحَالَا وَفَسَدَا وَحَصَلَ مِنِ اتِّحَادِهِمَا أَمْرٌ ثَالِثٌ لَا هُوَ هَذَا وَلَا هَذَا[١]، كَمَا إِذَا اتَّحَدَ الْمَاءُ وَاللَّبَنُ، وَالْمَاءُ وَالْخَمْرُ، وَنَحْوُ ذَلِكَ[٢]. وَلَكِنْ يَتَّحِدُ الْمُرَادُ وَالْمَحْبُوبُ[٣] وَالْمَكْرُوهُ وَيَتَّفِقَانِ فِي نَوْعِ الْإِرَادَةِ وَالْكَرَاهَةِ، فَيُحِبُّ هَذَا مَا يُحِبُّ هَذَا، وَيُبْغِضُ هَذَا مَا يُبْغِضُ هَذَا، وَيَرْضَى مَا يَرْضَى وَيَسْخَطُ مَا يَسْخَطُ وَيَكْرَهُ مَا يَكْرَهُ، وَيُوَالِي مَنْ يُوَالِي وَيُعَادِي مَنْ يُعَادِي، وَهَذَا الْفَنَاءُ كُلُّهُ فِيهِ نَقْصٌ.

وَأَكَابِرُ الْأَوْلِيَاءِ؛ كَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَالسَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ لَمْ يَقَعُوا فِي هَذَا الْفَنَاءِ[٤]، فَضْلاً عَمَّنْ هُوَ

الشَّرح

[١] **فالموجودان لا يمكن أن يتحدا وأن يكونا شيئاً واحداً أبداً** ما داما قائمين بأنفسهما؛ فلا يمكن أن يندمجا ويصيرا شيئاً واحداً، كما تقوله الصوفية: **(فظَنَنْت أَنَّك أنا)**.

[٢] **يعني: إذا اختلطا**، فلا يسمى الخليط لا ماءً ولا خمراً.

[٣] **يعني: أن اتحاد الذوات لا يمكن أبداً**، إلا إذا فنيت هذه الذات، وزال تركيبها، وخلطت مع مادة أخرى؛ وتكوّن منهما شيء ثالث، وأما اتحاد الصفات في الذات؛ كالمحبة والكراهة فيمكن؛ حيث إنك لا تحب إلا ما يحب حبيبك، ولا تكره إلا ما يكره حبيبك، وقد يكون ذلك حقّاً وقد يكون ذلك باطلاً.

[٤] لم يُعرف هذا الفناء عند السلف، وإنما عرف عند من بعدهم من الصوفية، وهو من مصطلحاتهم، ومن أراد أن يطلع على شيء من هذا فليطالع «مدارج السالكين شرح منازل السائرين» لابن القيم، و«المتن» لأبي إسماعيل =

فَوْقَهُمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَإِنَّمَا وَقَعَ شَيْءٌ مِنْ هَذَا بَعْدَ الصَّحَابَةِ. وَكَذَلِكَ كُلُّ مَا كَانَ مِنْ هَذَا النَّمَطِ مِمَّا فِيهِ غَيْبَةُ الْعَقْلِ وَالتَّمْيِيزِ لِمَا يَرِدُ عَلَى الْقَلْبِ مِنْ أَحْوَالِ الْإِيمَانِ؛ فَإِنَّ الصَّحَابَةَ ﷺ كَانُوا أَكْمَلَ وَأَقْوَى وَأَثْبَتَ فِي الْأَحْوَالِ الْإِيمَانِيَّةِ مِنْ أَنْ تَغِيبَ عُقُولُهُمْ. أَوْ يَحْصُلَ لَهُمْ غَشْيٌ أَوْ صَعْقٌ أَوْ سُكْرٌ أَوْ فَنَاءٌ أَوْ وَلَهٌ أَوْ جُنُونٌ[١]. وَإِنَّمَا كَانَ مَبَادِئُ هَذِهِ الْأُمُورِ فِي التَّابِعِينَ مِنْ عُبَّادِ الْبَصْرَةِ[٢]، فَإِنَّهُ كَانَ فِيهِمْ مَنْ يُغْشَى عَلَيْهِ إِذَا سَمِعَ الْقُرْآنَ[٣]. وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُوتُ؛ كَأَبِي جهير الضَّرِيرِ، وزرارة بْنِ أَوْفَى قَاضِي الْبَصْرَةِ.

وَكَذَلِكَ صَارَ فِي شُيُوخِ الصُّوفِيَّةِ مَنْ يَعْرِضُ لَهُ مِنَ الْفَنَاءِ

الشَّرْح

= الهروي، وقد أراد ابن القيم أن يخلص هذا الكتاب من الزلات والأخطاء التي وقعت في هذا الكتاب، ولكنه أحياناً يعجز عن تخليصه.

[١] كما يحصل للصوفية من ذلك.

[٢] فأول ما حصل التصوف في عباد أهل البصرة، فهم الذين ابتدؤوا التصوف، وكان أوله عبادة وزهداً، وكان عندهم اعتدال وخشوع وخوف من الله، وعندهم اتباع للكتاب والسُّنَّة، ولكن تطور التصوف فيمن بعدهم، حتى وصل إلى الضلال وإلى الكفر، وكذلك البدع، وإن كانت في أولها صغيرة، فإنها تؤول إلى الشر، فالذي يريد الخير ويريد الحق والسلامة يتمسك بالكتاب والسُّنَّة، وما كان عليه السلف الصالح.

[٣] **أي**: من عباد البصرة من يحصل له ذلك، والصحابة كانوا يسمعون القرآن ولا يغشى عليهم، ولا يموت منهم أحد؛ لقوة إيمانهم، وقوة يقينهم، كانوا يبكون وكانوا يخشعون، ويتأثرون، ولكن لم يكن يغشى عليهم أو يموتون.

وَالسُّكْرِ مَا يَضْعُفُ مَعَهُ تَمْيِيزُهُ، حَتَّى يَقُولَ فِي تِلْكَ الْحَالِ مِنَ الْأَقْوَالِ مَا إِذَا صَحَا عَرَفَ أَنَّهُ غَالَطَ فِيهِ، كَمَا يُحْكَى نَحْوُ ذَلِكَ عَنْ مِثْلِ أَبِي يَزِيدَ وَأَبِي الْحَسَنِ النُّورِيِّ وَأَبِي بَكْرٍ الشِّبْلِيِّ وَأَمْثَالِهِمْ. بِخِلَافِ أَبِي سُلَيْمَانَ الداراني، وَمَعْرُوفٍ الكرخي، والفضيل بْنِ عِيَاضٍ[١]؛ بَلْ وَبِخِلَافِ الجنيد وَأَمْثَالِهِمْ مِمَّنْ كَانَتْ عُقُولُهُمْ وَتَمْيِيزُهُمْ يَصْحَبُهُمْ فِي أَحْوَالِهِمْ فَلَا يَقَعُونَ فِي مِثْلِ هَذَا الْفَنَاءِ وَالسُّكْرِ وَنَحْوِهِ، بَلِ الكُمَّلُ تَكُونُ قُلُوبُهُمْ لَيْسَ فِيهَا سِوَى مَحَبَّةِ اللهِ وَإِرَادَتِهِ وَعِبَادَتِهِ، وَعِنْدَهُمْ مِنْ سَعَةِ الْعِلْمِ وَالتَّمْيِيزِ مَا يَشْهَدُونَ الْأُمُورَ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ، بَلْ يَشْهَدُونَ الْمَخْلُوقَاتِ قَائِمَةً بِأَمْرِ اللهِ مُدَبَّرَةً بِمَشِيئَتِهِ بَلْ مُسْتَجِيبَةً لَهُ

الشَّرْح

[١] **أي**: بخلاف قدماء الصوفية فهؤلاء المذكورون معروفون بالعبادة والزهد والتقوى واتباع الكتاب والسُّنَّة، ولكن من جاء بعدهم هو الذي انزلق في التصوف، والسلامة في اتباع الكتاب والسُّنَّة، قال ﷺ: **«فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»**(١): هذه وصية الرسول ﷺ، فنتمسك بالكتاب والسُّنَّة وما عليه السلف، ولا ننزلق في هذه الأمور، فقد تكون في أول أمرها فيها شيء من الخير، ولكن تنمو وتزداد بعد ذلك، ويطرأ عليها ما يطرأ من الضلال، كما حصل للمتصوفة والعباد، فالصوفية فيهم ناس في الأصل طيبون، مثل إبراهيم بن أدهم، وبشر الحافي، والفضيل بن عياض، ولكن تطور الأمر فيمن بعدهم.

(١) سبق تخريجه (ص٨٩).

قَانِتَةً لَهُ[١]، فَيَكُونُ لَهُمْ فِيهَا تَبْصِرَةٌ وَذِكْرَى، وَيَكُونُ مَا يَشْهَدُونَهُ مِنْ ذَلِكَ مُؤَيِّداً وَمُمِدّاً لِمَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ إِخْلَاصِ الدِّينِ، وَتَجْرِيدِ التَّوْحِيدِ لَهُ، وَالْعِبَادَةِ لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وَهَذِهِ «الْحَقِيقَةُ» الَّتِي دَعَا إِلَيْهَا الْقُرْآنُ، وَقَامَ بِهَا أَهْلُ تَحْقِيقِ الْإِيمَانِ، والكُمَّل مِنْ أَهْلِ الْعِرْفَانِ. وَنَبِيُّنَا ﷺ إِمَامُ هَؤُلَاءِ وَأَكْمَلُهُمْ؛ وَلِهَذَا لَمَّا عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَوَاتِ وَعَايَنَ مَا هُنَالِكَ مِنَ الْآيَاتِ وَأُوحِيَ إِلَيْهِ مَا أُوحِيَ مِنْ أَنْوَاعِ الْمُنَاجَاةِ أَصْبَحَ فِيهِمْ وَهُوَ لَمْ يَتَغَيَّرْ حَالُهُ، وَلَا ظَهَرَ عَلَيْهِ ذَلِكَ[٢]، بِخِلَافِ مَا كَانَ يَظْهَرُ عَلَى مُوسَى مِنَ التَّغَشِّي[٣] ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ أَجْمَعِينَ ـ.

الشَّرْح

[١] **ولا يقولون**: إنها ليس لها وجود ولا موجود إلا الله، كما تقوله الاتحادية من ضلال المتصوفة.

فالكائنات كلها آيات قائمة بذاتها: السمٰوات، والأرض، والبحار، والجبال، والرياح، والسحاب المسخر بين السماء والأرض، كلها من آيات الله الكونية، يتبصر بها الإنسان، ويعرف بها عظمة الله وقدرته ورحمته، فهي ليست كما يقول الصوفية ليس لها وجود، ويعتبرون من العبادة أن لا ترى إلا الله.

[٢] **أي**: لم يظهر على الرسول لما رأى من آيات ربه الكبرى لا سكر ولا تغش، وإنما زاده هذا إيماناً بالله ويقيناً بالله وثباتاً على دينه، ولم يتغير حاله إلى سكر أو تغش أو غير ذلك، إنما هذا من الشيطان.

[٣] **وذلك لما تجلى الله للجبل فجعله دكاً**، خر موسى صعقاً؛ **أي**: مغشيّاً عليه من المشهد الذي رآه، فلما أفاق قال: ﴿سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٤٣﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فهذا من شدة الهول الذي رآه من تجلي الله للجبل وانهيار الجبل من عظمة الله.

(وَأَمَّا النَّوْعُ الثَّالِثُ): مِمَّا قَدْ يُسَمَّى فَنَاءً[١]: فَهُوَ أَنْ يَشْهَدَ أَنْ لَا مَوْجُودَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ وُجُودَ الْخَالِقِ هُوَ وُجُودُ الْمَخْلُوقِ[٢]، فَلَا فَرْقَ بَيْنَ الرَّبِّ وَالْعَبْدِ، فَهَذَا فَنَاءُ أَهْلِ الضَّلَالِ وَالْإِلْحَادِ[٣] الْوَاقِعِينَ فِي الْحُلُولِ وَالِاتِّحَادِ[٤].

الشَّرْح

[١] **النوع الثالث**: من أنواع الفناء: فناء الموجودات، فهم يقولون: لا موجود إلا الله، فالوجود كله هو الله ليس هناك خالق ومخلوق، وإنما الوجود كله هو الله ـ جلّ وعلا ـ وهذا مذهب أهل وحدة الوجود كما سبق.

[٢] **وهذا النوع باطل**، وهو مذهب أهل وحدة الوجود الذين يقولون: إن (لا إلٰه إلا الله)؛ **أي**: لا موجود إلا الله، فالذي يرى أن هذا الكون فيه موجود آخر مشرك عندهم، وأما من يرى أن الكون كله هو الله ليس هناك مخلوق وخالق فهو الموحد عندهم نسأل الله العافية، وهذا كفر وضلال وإلحاد؛ إذ يرون أنه لا فارق بين الخالق والمخلوق، وأن أي شيء عبدته فقد عبدت الله؛ لأنه هو الله؛ فلو تعبد الكلب، وتعبد القط، وتعبد البقر، وتعبد الشمس والقمر، كلها هي الله.

ومن ترك دين الأنبياء وقع في مثل هذا، ومن ترك الحق وقع في الباطل، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢]. وتوحيد الأنبياء والمرسلين، هو معنى (لا إلٰه إلا الله)، قال تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾ [النحل: ٢].

فينبغي لطالب العلم أن يعرف هذه الأمور؛ لأنهم يروجونها على الناس؛ فالذي ليس عنده بصيرة ربما يعتقد صحتها، ولا سيما وأنها تصدر من أناس عباد ويتمسحون بالعلم فيغتر بهم الجاهل.

[٣] **وهو أشد أنواع الضلال**، ولم يقل بهذا أحد غيرهم.

[٤] **الحلول**: **أن يعتقد أن الله حالٌّ في كل شيء**؛ **أي**: حالٌّ في كل =

وَالْمَشَايِخُ الْمُسْتَقِيمُونَ إِذَا قَالَ أَحَدُهُمْ: مَا أَرَى غَيْرَ اللهِ، أَوْ لَا أَنْظُرُ إِلَى غَيْرِ اللهِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ فَمُرَادُهُمْ بِذَلِكَ مَا أَرَى رَبّاً غَيْرَهُ، وَلَا خَالِقاً غَيْرَهُ وَلَا مُدَبِّراً غَيْرَهُ، وَلَا إِلَهاً غَيْرَهُ[١]، وَلَا أَنْظُرُ إِلَى غَيْرِهِ مَحَبَّةً لَهُ أَوْ خَوْفاً مِنْهُ أَوْ رَجَاءً لَهُ؛ فَإِنَّ الْعَيْنَ تَنْظُرُ إِلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْقَلْبُ، فَمَنْ أَحَبَّ شَيْئاً أَوْ رَجَاهُ أَوْ خَافَهُ الْتَفَتَ إِلَيْهِ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الْقَلْبِ مَحَبَّةٌ لَهُ وَلَا رَجَاءٌ لَهُ وَلَا خَوْفٌ مِنْهُ وَلَا بُغْضٌ لَهُ، وَلَا غَيْرُ ذَلِكَ مِنْ تَعَلُّقِ الْقَلْبِ لَهُ لَمْ يَقْصِدِ الْقَلْبُ أَنْ يَلْتَفِتَ إِلَيْهِ وَلَا أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ وَلَا أَنْ يَرَاهُ، وَإِنْ رَآهُ اتِّفَاقاً رُؤْيَةً مُجَرَّدَةً كَانَ كَمَا لَوْ رَأَى حَائِطاً وَنَحْوَهُ مِمَّا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ تَعَلُّقٌ بِهِ.

وَالْمَشَايِخُ الصَّالِحُونَ ـ رحمهم الله ـ يَذْكُرُونَ شَيْئاً مِنْ تَجْرِيدِ التَّوْحِيدِ وَتَحْقِيقِ إِخْلَاصِ الدِّينِ كُلِّهِ بِحَيْثُ لَا يَكُونُ الْعَبْدُ مُلْتَفِتاً إِلَى

الشَّرْح

= المخلوقات. **والاتحاد**: هو أن يعتقد أن كل شيء هو الله فالاتحاد أشد ضلالاً وكفراً من الحلول.

[١] فمقصود المصنف بالمشايخ: المشائخ المستقيمون من أهل التصوف الذين عندهم استقامة وعبادة، ولم يصلوا إلى هذا الضلال.

فإذا قال أحد المشايخ المستقيمين: (لا أرى إلا الله) ليس معناه أنه ليس في الكون إلا الله، ولا موجود إلا الله كما تقوله الاتحادية، وإنما معناه: أنه لا يعبد إلا الله، ويتبرأ مما سواه فهو المستحق للألوهية، فيُفسر كلامه بالتفسير الصحيح ولا يُفسر بقول أهل وحدة الوجود.

فمعنى (لا أرى غير الله)؛ **أي**: لا أرى مدبراً غير الله، ولا إلـٰهاً غير الله، ولا مالكاً غير الله. . . وهذا المعنى صحيح.

غَيْرِ اللهِ وَلَا نَاظِراً إِلَى مَا سِوَاهُ[١]: لَا حُبّاً لَهُ، وَلَا خَوْفاً مِنْهُ، وَلَا رَجَاءً لَهُ؛ بَلْ يَكُونُ الْقَلْبُ فَارِغاً مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ خَالِياً مِنْهَا لَا يَنْظُرُ إِلَيْهَا إِلَّا بِنُورِ اللهِ، فَبِالْحَقِّ يَسْمَعُ وَبِالْحَقِّ يُبْصِرُ وَبِالْحَقِّ يَبْطِشُ وَبِالْحَقِّ يَمْشِي[٢]، فَيُحِبُّ مِنْهَا مَا يُحِبُّهُ اللهُ، وَيُبْغِضُ مِنْهَا مَا يُبْغِضُهُ اللهُ، وَيُوَالِي مِنْهَا مَا وَالَاهُ اللهُ، وَيُعَادِي مِنْهَا مَا عَادَاهُ اللهُ، وَيَخَافُ اللهَ فِيهَا وَلَا يَخَافُهَا فِي اللهِ، وَيَرْجُو اللهَ فِيهَا وَلَا يَرْجُوهَا فِي اللهِ، فَهَذَا

الشَّرْح

[١] **المشائخ الصالحون إذا قال أحدهم**: أنا لا أرى إلا الله؛ فمعناه: أنه لا يرى خالقاً ولا معبوداً حقّاً ولا محبوباً حقّاً إلا الله ﷻ، فليس معنى (لا أرى إلا الله) أن المخلوقات كلها هي عين وجود الله ـ جلّ وعلا ـ.

[٢] كما قال ـ جلّ وعلا ـ في الحديث القدسي: «**فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ**»(١)، فمن حقق التوحيد، فالله معه معية نصرة وتأييد، معية خاصة، وليس المعنى أن الله حالٌّ فيه، في سمعه وفي بصره ـ تعالى الله ـ وإنما المعنى: أن الله يحفظه ويسدده في حواسه وسمعه وبصره، فلا يسمع إلا ما يرضي الله، ولا يبصر إلا ما يرضي الله، ولا يمشي إلا إلى طاعة الله، ولا يأخذ ويعطي بيده إلا في طاعة الله وما يحبه الله.

فالله يحب الأعمال الصالحة ويبغض الكفر والشرك والمعاصي، فالمؤمن يحب ما يحبه الله من الطاعات، ويبغض ما يبغضه الله من المعاصي والشرك والكفر، وكذلك يحب من الأشخاص من يحبه الله من عباده وأوليائه الصالحين، ويبغض من أبغضه الله من الكافرين والمنافقين.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

هُوَ الْقَلْبُ السَّلِيمُ الْحَنِيفُ الْمُوَحِّدُ الْمُسْلِمُ الْمُؤْمِنُ الْعَارِفُ الْمُحَقِّقُ الْمُوَحِّدُ[١] بِمَعْرِفَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، وَبِحَقِيقَتِهِمْ وَتَوْحِيدِهِمْ.

(وَأَمَّا النَّوْعُ الثَّالِثُ) وَهُوَ الْفَنَاءُ فِي الْمَوْجُودِ[٢]: فَهُوَ تَحْقِيقُ آلِ فِرْعَوْنَ وَمَعْرِفَتُهُمْ وَتَوْحِيدُهُمْ؛ كَالْقَرَامِطَةِ وَأَمْثَالِهِمْ[٣].

وَهَذَا النَّوْعُ الَّذِي عَلَيْهِ أَتْبَاعُ الْأَنْبِيَاءِ هُوَ «الْفَنَاءُ الْمَحْمُودُ» الَّذِي يَكُونُ صَاحِبُهُ بِهِ مِمَّنْ أَثْنَى اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ أَوْلِيَائِهِ الْمُتَّقِينَ، وَحِزْبِهِ

الشَّرح

[١] **القلب السليم هو**: القلب السالم من كل قصد سيئ المتعلق بالله ﷻ لا بغيره، فلا يخاف إلا الله ولا يخاف المخلوقين ولا يرجوهم، وإنما يخاف الله ﷻ ويرجوه، ولا يتعلق قلبه بالمخلوقين، وإنما يتعلق قلبه بالله، فهو مع الله دائماً وأبداً.

[٢] هذا مذهب أهل وحدة الوجود، وهو مذهب فرعون وأتباعه، حيث قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: ٢٤]، فهم يقولون: إن المخلوقات هي الله وهو مذهب أهل وحدة الوجود، الذين يجعلون المخلوقات هي الله، تعالى الله عما يقولون؛ ولهذا يقولون: إن فرعون موحد، ولكنه حصر الربوبية فيه فيكون توحيده ناقصاً، ولو أنه عمم، وقال: كل الموجودات هي الله، لكان هذا هو التحقيق، تعالى الله عما يقولون.

فالموحد الذي لا يعبد إلا الله عندهم مشرك، فالمشرك عندهم موحد، والموحد مشرك.

[٣] **القرامطة من باطنية الشيعة**: خرجوا على المسلمين في مكة وقتلوا الحجاج في المسجد الحرام وألقوهم في بئر زمزم، واقتلعوا الحجر الأسود وذهبوا به إلى وطنهم هجر وبقي عندهم مدة.

الْمُفْلِحِينَ وَجُنْدِهِ الْغَالِبِينَ. وَلَيْسَ مُرَادُ الْمَشَايِخِ وَالصَّالِحِينَ بِهَذَا الْقَوْلِ أَنَّ الَّذِي أَرَاهُ بِعَيْنِي مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ هُوَ رَبُّ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ، فَإِنَّ هَذَا لَا يَقُولُهُ إِلَّا مَنْ هُوَ فِي غَايَةِ الضَّلَالِ وَالْفَسَادِ؛ إِمَّا فَسَادُ الْعَقْلِ؛ وَإِمَّا فَسَادُ الِاعْتِقَادِ. فَهُوَ مُتَرَدِّدٌ بَيْنَ الْجُنُونِ وَالْإِلْحَادِ.

وَكُلُّ الْمَشَايِخِ الَّذِينَ يُقْتَدَى بِهِمْ فِي الدِّينِ مُتَّفِقُونَ عَلَى مَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا مِنْ أَنَّ الْخَالِقَ سُبْحَانَهُ مُبَايِنٌ لِلْمَخْلُوقَاتِ[١]، وَلَيْسَ فِي مَخْلُوقَاتِهِ شَيْءٌ مِنْ ذَاتِهِ وَلَا فِي ذَاتِهِ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، وَأَنَّهُ يَجِبُ إِفْرَادُ الْقَدِيمِ عَنِ الْحَادِثِ؛ وَتَمْيِيزُ الْخَالِقِ عَنِ الْمَخْلُوقِ[٢]. وَهَذَا فِي كَلَامِهِمْ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُمْكِنَ ذِكْرُهُ هُنَا.

الشَّرْح

- **ما عليه أهل الحق:**

[١] اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة، وجميع طوائف المسلمين، حتى أهل الضلال من الفرق المنحرفة أيضاً لا يرون أن الله حالٌّ في المخلوقات، ولا أن المخلوقات حالة في الله، وإنما يرون أن الله مباين للمخلوقات؛ وأهل السُّنَّة يقولون: إن الله بائن من خلقه مستوٍ على عرشه؛ **أي**: ليس في ذاته شيء من مخلوقاته، ولا في مخلوقاته شيء من ذاته ﷻ.

وهذا ردٌّ على الحلولية، والاتحادية الذين يقولون: إن الله هو هذا الكون كله، والكون هو الله.

[٢] **القديم يخبر به عن الله ـ جلّ وعلا ـ**، وإن كانت هذه اللفظة لم ترد، فالله سمَّى نفسه الأول، ولم يقل: القديم، لكن المعنى صحيح، فالقديم: يخبر عن الله ولا يسمى به، والحادث: هو المخلوق، فكل المخلوقات حادثة بعد أن لم تكن؛ **أي**: موجودة من عدم.

وَهُمْ قَدْ تَكَلَّمُوا عَلَى مَا يَعْرِضُ لِلْقُلُوبِ مِنَ الأَمْرَاضِ وَالشُّبُهَاتِ؛ وَأَنَّ بَعْضَ النَّاسِ قَدْ يَشْهَدُ وُجُودَ الْمَخْلُوقَاتِ فَيَظُنُّهُ خَالِقَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ لِعَدَمِ التَّمْيِيزِ وَالْفُرْقَانُ فِي قَلْبِهِ؛ بِمَنْزِلَةِ مَنْ رَأَى شُعَاعَ الشَّمْسِ فَظَنَّ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الشَّمْسُ الَّتِي فِي السَّمَاءِ.

وَهُمْ قَدْ يَتَكَلَّمُونَ فِي «الْفَرْقِ وَالْجَمْعِ» وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْعِبَارَاتِ الْمُلْفِتَةِ نَظِيرُ مَا دَخَلَ فِي الْفَنَاءِ[١].

فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا شَهِدَ التَّفْرِقَةَ وَالْكَثْرَةَ فِي الْمَخْلُوقَاتِ يَبْقَى قَلْبُهُ مُتَعَلِّقاً بِهَا، مُتَشَتِّتاً نَاظِراً إِلَيْهَا مُتَعَلِّقاً بِهَا؛ إِمَّا مَحَبَّةً وَإِمَّا خَوْفاً وَإِمَّا رَجَاءً؛ فَإِذَا انْتَقَلَ إِلَى الْجَمْعِ اجْتَمَعَ قَلْبُهُ عَلَى تَوْحِيدِ اللهِ وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَالْتَفَتَ قَلْبُهُ إِلَى اللهِ بَعْدَ الْتِفَاتِهِ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ فَصَارَتْ مَحَبَّتُهُ لِرَبِّهِ وَخَوْفُهُ مِنْ رَبِّهِ وَرَجَاؤُهُ لِرَبِّهِ وَاسْتِعَانَتُهُ بِرَبِّهِ[٢]،

الشَّرْح

[١] **فالذي أوقعهم في الضلال أنهم لا يميزون بين الخالق والمخلوق،** فيظنون أن وجود المخلوق هو وجود الخالق ولا فرق بينهما.

[٢] **إذا تعلق قلب العبد بالله،** واتخذ هذه المخلوقات عوناً له على طاعة الله واستخدمها في طاعة الله فهذا هو السعيد، أما إذا تعلق قلبه بالمخلوقات تعلق محبة وطمع وَوَلَهٍ، فربما تجذبه وتأخذه عن طاعة الله ﷻ، ولا يعني هذا أن نرفض الموجودات كلها؛ لأنها مخلوقة لنا لنستعين بها على مصالحنا وعلى عبادة الله، وطاعته، ولكن القلب لا يتعلق بها بل يتعلق بالله ﷻ الذي أوجدها وسخرها.

فإذا جمع قلبه وهمه على الله ـ جلّ وعلا ـ زالت عنه هذه الأمور وزال الانجذاب والالتفات إلى غير الله، وإذا نظر إلى المخلوقات نظر معجب بها تفرق همه وتفرقت مطامعه، وغفل عن الله ﷻ.

وَهُوَ فِي هَذَا الْحَالِ قَدْ لَا يَسَعُ قَلْبَهُ النَّظَرُ إِلَى الْمَخْلُوقِ لِيُفَرِّقَ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ. فَقَدْ يَكُونُ مُجْتَمِعاً عَلَى الْحَقِّ مُعْرِضاً عَنِ الْخَلْقِ نَظَراً وَقَصْداً، وَهُوَ نَظِيرُ النَّوْعِ الثَّانِي مِنَ الْفَنَاءِ[١].

وَلَكِنْ بَعْدَ ذَلِكَ «الْفَرْقِ الثَّانِي» وَهُوَ: أَنْ يَشْهَدَ أَنَّ الْمَخْلُوقَاتِ قَائِمَةٌ بِاللهِ[٢] مُدَبَّرَةٌ بِأَمْرِهِ[٣] وَيَشْهَدُ كَثْرَتَهَا مَعْدُومَةً بِوَحْدَانِيَّةِ اللهِ ﷻ[٤]، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ رَبُّ الْمَصْنُوعَاتِ وَإِلَهُهَا وَخَالِقُهَا وَمَالِكُهَا[٥]، فَيَكُونُ مَعَ اجْتِمَاعِ قَلْبِهِ عَلَى اللهِ ـ إِخْلَاصاً لَهُ وَمَحَبَّةً وَخَوْفاً وَرَجَاءً وَاسْتِعَانَةً وَتَوَكُّلاً عَلَى اللهِ وَمُوَالَاةً فِيهِ وَمُعَادَاةً فِيهِ وَأَمْثَالَ ذَلِكَ ـ نَاظِراً إِلَى الْفَرْقِ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ[٦]،

الشَّرْح

[١] **وهذا فناء السوى؛ أي**: صرف النظر، عما سوى الله ﷻ.

[٢] **بمعنى أن الله هو الذي أقامها وأوجدها**؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، الذي أقام المخلوقات، فكلها قائمة بالله، فهو الذي أقامها وأمدها وأوجدها وبدون الله ليست شيئاً.

[٣] معنى: **(قَائِمَة بِالله)؛ أي**: إن الله هو الذي أوجدها وأقامها، وذلك من معنى قوله: (القيوم)، و(القَيَّام).

[٤] **أي**: يراها كلها راجعة إلى الله ﷻ، مخلوقة لله، لم توجد نفسها وإنما أوجدها الله ﷻ.

[٥] **فهي تدل على توحيد الربوبية**، فكل الموجودات راجعة إلى الله، فالله هو الذي أوجدها، وعددها، وفاوت بينها، وهي ليست قديمة، وإنما هي محدثة ومخلوقة.

[٦] خلافاً لأهل وحدة الوجود.

مُمَيِّزاً بَيْنَ هَذَا وَهَذَا، يَشْهَدُ تَفَرُّقَ الْمَخْلُوقَاتِ وَكَثْرَتَهَا مَعَ شَهَادَتِهِ أَنَّ اللهَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ وَخَالِقُهُ[١]، وَأَنَّهُ هُوَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

وَهَذَا هُوَ الشُّهُودُ الصَّحِيحُ الْمُسْتَقِيمُ[٢] وَذَلِكَ وَاجِبٌ فِي عِلْمِ الْقَلْبِ وَشَهَادَتِهِ[٣] وَذِكْرِهِ وَمَعْرِفَتِهِ: فِي حَالِ الْقَلْبِ وَعِبَادَتِهِ وَقَصْدِهِ وَإِرَادَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَمُوَالَاتِهِ وَطَاعَتِهِ.

الشَّرْح

[١] **أي: يعرف وحدة الخالق وتعدد المخلوقات**، فالخالق واحد، هو الله الواحد القهار لا أحد يخلق معه ﷻ، وهل يمكن لأحد غير الله أن يوجد شيئاً معدوماً؟ فالله ﷻ، هو الخلاق وهو الخالق، وهو الواحد القهار، فلا بد أن يعرف العبد هذا، ويعرف أن المخلوقات مهما تعددت وتنوعت وتكاثرت؛ فإنها كلها مخلوقة لله ﷻ، بقدرته وإرادته ومشيئته ﷻ. وهذا فيه الرد على من ينفي التعدد والانقسام في الكون وهم غلاة الصوفية.

فمن وصل إلى هذا الحد فهو الموحد التوحيد الصحيح وهو الذي عرف ربه، وعرف المخلوقات وفرق بينها، فهو العبد الموحِّد، وهو المؤمن، وهذا ما عليه الأنبياء والمرسلون وأتباعهم إلى يوم القيامة، فالله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل، وكل شيء فهو مخلوق لله ﷻ، لا أحد يخلق مع الله، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦] الخالق هو الله ـ جلّ وعلا ـ.

[٢] **الشهود الصحيح أن لا يرى خالقاً إلا الله ـ جلّ وعلا ـ** ولا أحداً يستحق العبادة إلا الله. لا شهود غلاة الصوفية الذين لا يرون في الكون تعدداً ولا انقساماً ويسمون ذلك هو التوحيد.

[٣] قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨]، وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فالخلق غير الأمر، فالخلق: الإيجاد، =

وَذَلِكَ تَحْقِيقُ (شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) فَإِنَّهُ يَنْفِي عَنْ قَلْبِهِ أُلُوهِيَّةَ مَا سِوَى الْحَقِّ وَيُثْبِتُ فِي قَلْبِهِ أُلُوهِيَّةَ الْحَقِّ[١]، فَيَكُونُ نَافِياً لِأُلُوهِيَّةِ كُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ مُثْبِتاً لِأُلُوهِيَّةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ[٢]، وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ اجْتِمَاعَ الْقَلْبِ عَلَى اللهِ وَعَلَى مُفَارَقَةِ مَا سِوَاهُ، فَيَكُونُ مُفَرِّقاً: فِي عِلْمِهِ وَقَصْدِهِ فِي شَهَادَتِهِ وَإِرَادَتِهِ فِي مَعْرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ، بِحَيْثُ يَكُونُ عَالِماً بِاللهِ تَعَالَى ذَاكِراً لَهُ عَارِفاً بِهِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ عَالِمٌ بِمُبَايَنَتِهِ لِخَلْقِهِ وَانْفِرَادِهِ عَنْهُمْ وَتَوَحُّدِهِ دُونَهُمْ، وَيَكُونُ مُحِبّاً للهِ مُعَظِّماً لَهُ عَابِداً لَهُ رَاجِياً لَهُ خَائِفاً مِنْهُ مُوَالِياً فِيهِ مُعَادِياً فِيهِ مُسْتَعِيناً بِهِ مُتَوَكِّلاً عَلَيْهِ، مُمْتَنِعاً عَنْ عِبَادَةِ غَيْرِهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِهِ وَالْخَوْفِ مِنْهُ وَالرَّجَاءِ لَهُ وَالْمُوَالَاةِ فِيهِ وَالْمُعَادَاةِ فِيهِ وَالطَّاعَةِ لِأَمْرِهِ، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مِنْ خَصَائِصِ إِلَهِيَّةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى[٣].

الشَّرْح

= والأمر هو الشرع، فالذي يخلق هو الذي يشرع ويأمر وينهى سبحانه وتعالى.

[١] **الألوهية معناها العبودية**، فالمؤمن ليس في قلبه ولا في أعماله، ولا في تصرفاته قصد إلا لله ـ جلّ وعلا ـ وحده.

[٢] **وهذا معنى لا إلـه إلا الله**؛ فالإلٰه الحق هو الله، وأما الآلهة الأخرى المعبودة فهي باطلة مهما كانت، فهذه الكلمة على اختصارها تجمع لك العقيدة، فـ(لا إلٰه إلا الله)؛ معناها: لا معبود حقّاً إلا الله ـ جلّ وعلا ـ، وما سواه فهو معبود بالباطل.

[٣] **كل هذا رد على أهل الضلال أهل وحدة الوجود**، فما دام الله هو الخلَّاق، وهو الرب سبحانه وتعالى، رب كل شيء وخالق كل شيء فهو المستحق =

وَإِقْرَارُهُ بِأُلُوهِيَّةِ اللهِ تَعَالَى دُونَ مَا سِوَاهُ يَتَضَمَّنُ إِقْرَارَهُ بِرُبُوبِيَّتِهِ، وَهُوَ أَنَّهُ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ[١] وَمَلِيكُهُ وَخَالِقُهُ وَمُدَبِّرُهُ، فَحِينَئِذٍ يَكُونُ مُوَحِّداً للهِ.

وَيُبَيِّنُ ذَلِكَ أَنَّ أَفْضَلَ الذِّكْرِ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)[٢]، كَمَا رَوَاهُ

الشَّرح

= للعبادة، وأما ما عداه فهو مخلوق، ولا يستحق شيئاً من العبادة، وهو عبد لا يُعبد، وعلى المسلم أن يعرف ذلك فلا ينخدع بأقوال المبطلين، قال تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾ [الأعراف: ١٩١]، فكيف يعبدون شيئاً وهو مخلوق مثلهم؟! قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الأعراف: ١٩٤]، وكيف تدعو عبداً مثلك؟ هذا غاية الجهل والضلال أن تدعو عبداً مثلك، فقيراً محتاجاً، والمعبودون إما أن يكونوا أمواتاً غير أحياء قد فنيت عظامهم وبليت أجسامهم تحت الأرض، وإما جمادات من أشجار وأحجار لا تسمع ولا تبصر ولا تخلق ولا ترزق.

- **العلاقة بين أنواع التوحيد:**

[١] **هناك علاقة بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية**، يجب أن نتنبه لها:

- فتوحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية.
- وتوحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية.

فمن أقر أن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت، وأنه هو الرب، لزمه أن يعبده وحده لا شريك له، ومن عبده تضمن أنه مقر بأنه هو الرب، فأنواع الدلالة ثلاثة:

- دلالة الالتزام
- ودلالة التضمن
- ودلالة المطابقة.

[٢] فـ(**لا إله إلا الله**) هي خير الذكر وأفضل الذكر؛ لأنها فاصلة بين =

التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ أَبِي الدُّنْيَا وَغَيْرُهُمَا مَرْفُوعاً إِلَى النَّبِيِّ ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «**أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الْحَمْدُ للهِ**»(١).

وَفِي الْمُوَطَّأِ وَغَيْرِهِ عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ كَثِيرٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**أَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**»(٢)[١].

الشَّرْح

= التوحيد والشرك، وهي كلمة الإخلاص، والعروة الوثقى، وكلمة التقوى.

فأفضل الذكر: (لا إله إلا الله) تقولها بلسانك، وتعتقد معناها بقلبك، وتعمل بمقتضاها بجوارحك، وهي العروة الوثقى، وهي كلمة التقوى، وهي كلمة الإخلاص. فهي كلمة عظيمة، ولكن لمن عرف معناها، فلا يقولها بلسانه فقط ولا يدري ما معناها، أو يعرف معناها ولا يعمل بمقتضاها، فيدعو غير الله ويعبد غير الله، فهذا مخالف لمقتضاها، فهي كلمة عظيمة من حققها دخل الجنة بغير حساب ولا عذاب، وهي مفتاح الجنة.

[١] • **الأذكار المشروعة والأذكار غير المشروعة:**

الأذكار الباطلة هي أذكار الصوفية المبتدعة، وأما أذكار أهل السُّنَّة والجماعة، فهي أذكار الأنبياء والمرسلين؛ وأعظمها: (لا إله إلا الله): جميع هذه الكلمة العظيمة يؤتى بها كاملة بنفيها وإثباتها، وأذكار الصوفية أنهم يقتصرون على كلمة واحدة فيقولون: الله الله، بالاسم المفرد، وهو ذكر الخاصة من الصوفية عندهم، أما خاصة الخاصة فيقولون: هو هو، ولا يأتون بالاسم الظاهر، إنما يقولون: هو هو، الضمير المنفصل، والاسم المفرد مظهر أو مضمر لا يفيد شيئاً، والاقتصار عليه في الذكر مخالف لذكر الرسل =

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٨٣).

(٢) الموطأ (٢/ ٣٠٠)، وأخرجه الترمذي (٣٥٨٥).

وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ هَذَا ذِكْرُ الْعَامَّةِ، وَأَنَّ ذِكْرَ الْخَاصَّةِ هُوَ الِاسْمُ الْمُفْرَدُ، وَذِكْرُ خَاصَّةِ الْخَاصَّةِ هُوَ الِاسْمُ الْمُضْمَرُ، فَهُمْ ضَالُّونَ غالطون[١].

الشَّرْح

= وأتباعهم فهم يقولون: (لا إلٰه إلا الله)؛ لأن هذه الكلمة جملة مفيدة، وأما هؤلاء فيأتون بلفظ مفرد مبهم لا يفيد معنى، والكلام لا بد أن يكون جملة مفيدة مركبة من مبتدأ أو خبر أو من فعل وفاعل.

[١] لما ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في الكلام السابق فضل ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ، وأن الله ـ جلّ وعلا ـ أمر بذكره، والنبي ﷺ حث على ذلك، بيّن ما ابتدع في الذكر عند الصوفية، وذلك أنهم يقولون في الأذكار الواردة في القرآن والسُّنَّة، والتي هي جمل تامة مفيدة مثل: لا إلٰه إلا الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، سبحان الله، يقولون: هذا ذكر العامة الذين لم يصلوا إلى الحقيقة، أما الصوفية فلهم ذكر خاص؛ وهو أفضل من ذكر العامة الذي قال فيه النبي ﷺ: **(أَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)**.

أما ذكر الخواص من الصوفية فهو إما اسم مفرد: (الله الله): وإما ضمير منفصل: (هو هو): وبعضهم يقول: أخشى لو قلت: لا إلٰه إلا الله، أو لا إلٰه إلا هو، أن يدركني الموت قبل أن أكمل الجملة!، فيقتصر على كلمة واحدة وهي: (الله): أو (هو) خشية أن يأخذه الموت قبل أن يكمل.

وهذا لا شك أنه ليس ذكراً؛ لأنه لا يفيد شيئاً، فلو قلت: محمد أو زيد، فقط لم تأت بفائدة، فلا بد أن تقول: محمد رسول الله، فتأتي بجملة مفيدة، أما إذا قلت: الله الله، أو ما أشبه ذلك، فهذا ليس ذكراً وليس كلاماً بل هو هذيان ليس فيه فائدة، ولغة العرب إنما جاءت بالجمل المفيدة، جملة اسمية مثل: الله لا إلٰه إلا هو، أو جملة فعلية مثل: تعالى الله، سبحان الله، فلا بد أن يكون الذكر جملة مفيدة.

وَاحْتِجَاجُ بَعْضِهِمْ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ٩١﴾ [الأنعام: ٩١]، مِنْ أَبْيَنِ غَلَطِ هَؤُلَاءِ، فَإِنَّ الِاسْمَ هُوَ مَذْكُورٌ فِي الْأَمْرِ بِجَوَابِ الِاسْتِفْهَامِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ﴾ [الأنعام: ٩١]، إِلَى قَوْلِهِ ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ﴾[١]؛ أَيِ: اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى، فَالِاسْمُ مُبْتَدَأٌ وَخَبَرُهُ قَدْ دَلَّ عَلَيْهِ الِاسْتِفْهَامُ[٢]، كَمَا فِي نَظَائِرِ ذَلِكَ تَقُولُ: مَنْ جَارُهُ؟ فَيَقُولُ: زَيْدٌ.

وَأَمَّا الِاسْمُ الْمُفْرَدُ مُظْهَراً[٣] أَوْ مُضْمَراً[٤] فَلَيْسَ بِكَلَامٍ

الشَّرْح

[١] **شبههم والرد عليها:**

١ ـ استدلوا بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ﴾ نقول هذا جواب سؤال سابق هو: ﴿مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾.

والجواب: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ﴾؛ **أي:** الله هو الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى، والحذف والتقدير جارٍ في كلام العرب، فلفظ الجلالة في الآية مبتدأ.

[٢] **(وَخَبَرُهُ قَدْ دَلَّ عَلَيْهِ الِاسْتِفْهَامُ)**، فخبر المبتدأ محذوف دل عليه الاستفهام السابق، وهذا من لغة العرب الفصيحة؛ فحذف الخبر لأنه دل عليه ما سبق لأجل الاختصار وعدم التكرار.

أنت ـ مثلاً ـ في كلامك تقول: من جاره؟ يقولون: زيد، بمعنى زيد جاره، وقد دل على ذلك السؤال: فالجواب يقدر من ضمن ما سبق في السؤال، مثلاً: من أعطاك هذا الكتاب؟ تجيب فتقول: محمد؛ **أي:** محمد أعطاني هذا الكتاب، فيدل على هذا السياق السابق، ولكن الصوفية يغالطون أو لا يفهمون.

[٣] **الاسم المفرد مثل:** محمد وعلي.

[٤] **المضمر هو الضمير المتصل**، والمنفصل، مثل (هو) أو: (به) أو: =

تَامٍّ[١]، وَلَا جُمْلَةٍ مُفِيدَةٍ وَلَا يَتَعَلَّقُ بِهِ إِيمَانٌ وَلَا كُفْرٌ وَلَا أَمْرٌ وَلَا نَهْيٌ، وَلَمْ يَذْكُرْ ذَلِكَ أَحَدٌ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ، وَلَا شَرَعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَلَا يُعْطِي الْقَلْبَ بِنَفْسِهِ مَعْرِفَةً مُفِيدَةً وَلَا حَالاً نَافِعاً[٢]، وَإِنَّمَا يُعْطِيهِ تَصَوُّراً مُطْلَقاً لَا يُحْكَمُ عَلَيْهِ بِنَفْيٍ وَلَا إِثْبَاتٍ، فَإِنْ لَمْ يَقْتَرِنْ بِهِ مِنْ مَعْرِفَةِ الْقَلْبِ وَحَالِهِ مَا يُفِيدُ بِنَفْسِهِ، وَإِلَّا لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَائِدَةٌ. وَالشَّرِيعَةُ إِنَّمَا تُشَرِّعُ مِنَ الْأَذْكَارِ مَا يُفِيدُ بِنَفْسِهِ[٣]، لَا مَا تَكُونُ الْفَائِدَةُ حَاصِلَةً بِغَيْرِهِ.

وَقَدْ وَقَعَ بَعْضُ مَنْ وَاظَبَ عَلَى هَذَا الذِّكْرِ فِي فُنُونٍ مِنَ

الشَّرْح

= (إنه): الضمير المنفصل تارة يكون ظاهراً في الكلام، وتارة يكون مقدراً إذا دل عليه دليل.

[١] **لأنه لا يفيد شيئاً**؛ لأنه اسم مفرد ظاهر أو ضمير لم ينضم إليه ما يترتب عليه فائدة فهذا يعتبر هذياناً لا يفيد شيئاً ولا يعتبر كلاماً.

[٢] **فالاسم المفرد (لَا يُعْطِي الْقَلْبَ بِنَفْسِهِ مَعْرِفَةً مُفِيدَةً وَلَا حَالاً نَافِعاً)**، فإذا قلت: الله، ابتداءً، دون أن يسبقه شيء أو يأتي بعده شيء، فهو لا يفيد شيئاً، وليس ذكراً لله، ولا يحرك القلب مثلما إذا قلت: الله على كل شيء قدير، الله خالق كل شيء، الله لا إله إلا هو؛ فهذا يحرك القلب، ويفيد السامع.

[٣] **بأن يكون جملة مفيدة تامة**؛ فالشريعة لم تشرع الذكر بأسماء مجردة ولا ضمائر منفصلة.

وعلى هذا فأذكار الصوفية بالأسماء المفردة ليست أذكاراً شرعية وإنما هي أذكار بدعية.

ولهذا قال الشيخ: **(وَقَدْ وَقَعَ بَعْضُ مَنْ وَاظَبَ عَلَى هَذَا الذِّكْرِ فِي فُنُونٍ مِنَ الْإِلْحَادِ، وَأَنْوَاعٍ مِنَ الِاتِّحَادِ)**.

الْإِلْحَادِ[١]، وَأَنْوَاعٍ مِنَ الِاتِّحَادِ. كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ.

[شبه من يذكر بالأسماء المفردة والرد عليه]:

وَمَا يُذْكَرُ عَنْ بَعْضِ الشُّيُوخِ مِنْ أَنَّهُ قَالَ: أَخَافُ أَنْ أَمُوتَ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ حَالٌ لَا يُقْتَدَى فِيهَا بِصَاحِبِهَا، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ مِنَ الْغَلَطِ مَا لَا خَفَاءَ بِهِ؛ إِذْ لَوْ مَاتَ الْعَبْدُ فِي هَذِهِ الْحَالِ لَمْ يَمُتْ إِلَّا عَلَى مَا قَصَدَهُ وَنَوَاهُ[٢]، إِذِ الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ بِتَلْقِينِ الْمَيِّتِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ(١)، وَقَالَ: «**مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ**»(٢)، وَلَوْ

الشَّرْح

- **ما يسببه الاقتصار على الاسم المفرد في الأذكار:**

[١] أنه (**قَدْ وَقَعَ بَعْضُ مَنْ وَاظَبَ عَلَى هَذَا الذِّكْرِ فِي فُنُونٍ مِنَ الْإِلْحَادِ**)؛ أي: وقعوا بسبب ذلك في القول بوحدة الوجود، حيث يقولون: إن الكون كله هو الله، ليس هناك غيره، فوصل بهم هذا القول إلى الإلحاد، والرد على قولهم: نخشى الموت قبل إكمال الذكر هو:

[٢] أنه (**لَوْ مَاتَ الْعَبْدُ فِي هَذِهِ الْحَالِ لَمْ يَمُتْ إِلَّا عَلَى مَا قَصَدَهُ وَنَوَاهُ**)، فلو أراد أن يقول: لا إله إلا الله وابتدأ النطق بها، ثم مات قبل أن يكملها، فهو على ما نوى، قال ﷺ: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**»(٣). قال تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠]. (**وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ بِتَلْقِينِ الْمَيِّتِ**): فقد قال ﷺ: «**لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»(٤)، وهي كلمة تامة؛ ولم يقل: لقنوا موتاكم الله أو هو، وقال: (**مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ**)، ولم يقل: من كان آخر كلامه الله أو هو دخل الجنة. =

(١) أخرجه مسلم (٩١٦).
(٢) أخرجه أبو داود (٣١١٦).
(٣) سبق تخريجه.
(٤) انظر حاشية رقم (١).

كَانَ مَا ذَكَرَهُ مَحْذُوراً لَمْ يُلَقَّنِ الْمَيِّتُ كَلِمَةً يُخَافُ أَنْ يَمُوتَ فِي أَثْنَائِهَا مَوْتاً غَيْرَ مَحْمُودٍ، بَلْ كَانَ يُلَقَّنُ مَا اخْتَارَهُ مِنْ ذِكْرِ الِاسْمِ الْمُفْرَدِ.

وَالذِّكْرُ بِالِاسْمِ الْمُضْمَرِ الْمُفْرَدِ أَبْعَدُ عَنِ السُّنَّةِ، وَأَدْخَلُ فِي الْبِدْعَةِ وَأَقْرَبُ إِلَى إِضْلَالِ الشَّيْطَانِ، فَإِنَّ مَنْ قَالَ: يَا هُوَ يَا هُوَ، أَوْ: هُوَ هُوَ. وَنَحْوَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنِ الضَّمِيرُ عَائِداً إِلَّا إِلَى مَا يُصَوِّرُهُ قَلْبُهُ[١]، وَالْقَلْبُ قَدْ يَهْتَدِي وَقَدْ يَضِلُّ[٢]، وَقَدْ صَنَّفَ صَاحِبُ «الْفُصُوصِ» كِتَاباً سَمَّاهُ «كِتَابَ الْهُوَ»[٣].

الشَّرْح

= فلو كان الميت (**يُلَقَّنُ مَا اخْتَارَهُ مِنْ ذِكْرِ الِاسْمِ الْمُفْرَدِ**)؛ **أي**: ما اختاره الصوفي: لم يأمر الرسول ﷺ بأن يلقن لا إله إلا الله. بل يلقن: الله أو هو.

- **حكم الذكر بالاسم المفرد أو الضمير:**

[١] **أي**: **لو قال**: يا هو اغفر لي، فالضمير لا بد له من مرجع، والمرجع يطلق على كل أحد، ولم يكن هذا كلاماً عربيّاً أو حتى لم يكن من كلام المجانين، بل يكون هذياناً. ولكن لو قال: يا ألله اغفر لي، يا رب اغفر لي، صار هذا استغفاراً وتوبة. فإذا رجع الضمير إلى ما في قلب القائل فهو يختلف حسبما في قلبه.

[٢] **أي**: فلا بد للضمير في كلام العرب من مرجع مذكور في الكلام يرجع إليه لا في القلب، وقول القائل: يا هو ليس له مرجع إلا ما في نفس القائل، وما في نفس القائل لا يُبنى عليه حكم.

[٣] **أي**: ألَّف صاحب كتاب (فصوص الحكم) وهو ابن عربي رأس الملاحدة والقائل بوحدة الوجود، صنف كتاباً سماه (الهو)؛ **يعني**: الذكر بالهو.

وَزَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]؛ مَعْنَاهُ: وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَ هَذَا الِاسْمِ الَّذِي هُوَ «الهو». وَقِيلَ هَذَا وَإِنْ كَانَ مِمَّا اتَّفَقَ الْمُسْلِمُونَ بَلِ الْعُقَلَاءُ عَلَى أَنَّهُ مِنْ أَبْيَنِ الْبَاطِلِ، فَقَدْ يَظُنُّ ذَلِكَ مَنْ يَظُنُّهُ مِنْ هَؤُلَاءِ. حَتَّى قُلْتُ مَرَّةً لِبَعْضِ مَنْ قَالَ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ لَوْ كَانَ هَذَا كَمَا قُلْتَهُ لَكُتِبَتْ (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَ هُوَ) مُنْفَصِلَةً[١].

ثُمَّ كَثِيراً مَا يَذْكُرُ بَعْضُ الشُّيُوخِ أَنَّهُ يَحْتَجُّ عَلَى قَوْلِ الْقَائِلِ: (اللهُ) بِقَوْلِهِ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام: ٩١] وَيَظُنُّ أَنَّ اللهَ أَمَرَ نَبِيَّهُ بِأَنْ يَقُولَ الِاسْمَ الْمُفْرَدَ، وَهَذَا غَلَطٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ، فَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ مَعْنَاهُ: اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى. وَهُوَ جَوَابٌ لِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩١]؛ أَيِ: اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى. رَدَّ بِذَلِكَ قَوْلَ مَنْ قَالَ: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾، فَقَالَ: ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أَنْزَلَهُ ثُمَّ ذَرْ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنعام: ٩١].

الشَّرْح

[١] ٢ ـ ومما احتجوا به قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾؛ **أي**: ما يعلم تأويل (هو) إلا الله؛ فجعلوا الضمير المتصل في قوله: ﴿تَأْوِيلَهُۥٓ﴾ ضميراً منفصلاً، ولو كان كما قال لم يوصل الضمير بل كتب هكذا **(وما يعلم تأويل (هو) إلا الله)** وهذا من أبطل الباطل المجمع على بطلانه؛ لأنه ليس موجوداً في لغة العرب.

وَمِمَّا يُبَيِّنُ مَا تَقَدَّمَ: مَا ذَكَرَهُ سِيبَوَيْهِ وَغَيْرُهُ مِنْ أَئِمَّةِ النَّحْوِ أَنَّ الْعَرَبَ يَحْكُونَ بِالْقَوْلِ مَا كَانَ كَلَاماً، لَا يَحْكُونَ بِهِ مَا كَانَ قَوْلاً، فَالْقَوْلُ لَا يُحْكَى بِهِ إِلَّا كَلَامٌ تَامٌّ، أَوْ جُمْلَةٌ اسْمِيَّةٌ أَوْ فِعْلِيَّةٌ، وَلِهَذَا يَكْسِرُونَ (إِنَّ) إِذَا جَاءَتْ بَعْدَ الْقَوْلِ، فَالْقَوْلُ لَا يُحْكَى بِهِ اسْمٌ، وَاللهُ تَعَالَى لَا يَأْمُرُ أَحَداً بِذِكْرِ اسْمٍ مُفْرَدٍ، وَلَا شَرَعَ لِلْمُسْلِمِينَ اسْماً مُفْرَداً مُجَرَّداً، وَالِاسْمُ الْمُجَرَّدُ لَا يُفِيدُ الْإِيمَانَ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ، وَلَا يُؤْمَرُ بِهِ فِي شَيْءٍ مِنَ الْعِبَادَاتِ، وَلَا فِي شَيْءٍ مِنَ الْمُخَاطَبَاتِ.

وَنَظِيرُ مَنِ اقْتَصَرَ عَلَى الِاسْمِ الْمُفْرَدِ مَا يُذْكَرُ أَنَّ بَعْضَ الْأَعْرَابِ مَرَّ بِمُؤَذِّنٍ يَقُولُ: «أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولَ اللهِ» بِالنَّصْبِ فَقَالَ: مَاذَا يَقُولُ هَذَا؟ هَذَا الِاسْمُ فَأَيْنَ الْخَبَرُ عَنْهُ الَّذِي يَتِمُّ بِهِ الْكَلَامُ؟[١].

وَمَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾﴾ [المزمل: ٨]، وَقَوْلِهِ: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى: ١]، وَقَوْلِهِ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥]، وَقَوْلِهِ: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة: ٧٤]، وَنَحْوِ ذَلِكَ لَا

الشَّرْح

• **الاسم المفرد لا يفيد شيئاً عند الأعراب:**

[١] **سمع أعرابي مؤذناً يلحن في الأذان**، يقول: (**أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولَ اللهِ**) بفتح (رسولَ) ولـمَّا نصب (رسولَ) استنكر الأعرابي ذلك، فقال ويحك ما شأنه لأن بديهته وسليقته في اللغة العربية لا تقبل ذلك، قال: (**هَذَا الِاسْمُ فَأَيْنَ الْخَبَرُ عَنْهُ الَّذِي يَتِمُّ بِهِ الْكَلَامُ؟**) لأنها لا تحصل الفائدة إلا بذلك، فالأعرابي استنكر كلام هذا المؤذن لأنه عربي.

يَقْتَضِي ذِكْرَهُ مُفْرَداً[١]، بَلْ فِي السُّنَنِ أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة: ٧٤]، قَالَ: «**اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ**»، وَلَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ قَالَ: «**اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ**»(١) فَشَرَعَ لَهُمْ أَنْ يَقُولُوا فِي الرُّكُوعِ سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ، وَفِي السُّجُودِ سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى. وَفِي الصَّحِيحِ: «**أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ: سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ، وَفِي سُجُودِهِ: سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى**»(٢)، وَهَذَا هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ: «**اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ**» و«**سُجُودِكُمْ**» بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ.

فَتَسْبِيحُ اسْمِ رَبِّهِ الأَعْلَى وَذِكْرُ اسْمِ رَبِّهِ وَنَحْوُ ذَلِكَ هُوَ بِالْكَلَامِ التَّامِّ الْمُفِيدِ، كَمَا فِي الصَّحِيحِ عَنْهُ ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «**أَفْضَلُ**

الشَّرْح

[١] الرد على شبهتهم:

٣ ـ ولهم شبهة أخرى وهي قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ [المزمل: ٨] قالوا: المراد الاسم المفرد، تقول: الله الله، أو هو هو، وهو بزعمهم المراد باسم ربك.

• **والجواب**: أن هذا (**لَا يَقْتَضِي ذِكْرَهُ مُفْرَداً**)؛ لأن الرسول ﷺ بيّن كيف يسبح اسم الرب بأن تقول: سبحان ربي العظيم؛ لأنها لما نزلت آية: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة: ٧٤]، قال: (**اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ**)، ولما نزل قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى: ١]، قال: (**اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ**)، فجاء بجملة مفيدة، وهذا يفسر قوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ و﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ لكن الصوفية والذين في قلوبهم مرض يتبعون ما تشابه منه.

(١) أخرجه أبو داود (٨٦٩)، وابن ماجه (٨٨٧).
(٢) أخرجه مسلم (٧٧٢).

الْكَلَامِ بَعْدَ الْقُرْآنِ أَرْبَعٌ ـ وَهُنَّ مِنَ الْقُرْآنِ ـ **سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. وَاللهُ أَكْبَرُ**»[١](١)، وَفِي الصَّحِيحِ عَنْهُ ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «**كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ**»[٢](٢).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ قَالَ فِي يَوْمِهِ مِائَةَ مَرَّةٍ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، كَتَبَ اللهُ لَهُ حِرْزاً مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ. وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلَّا رَجُلٌ قَالَ مِثْلَ مَا قَالَ، أَوْ زَادَ عَلَيْهِ**»(٣).

الشَّرْح

[١] ومما يدل على أن الذكر لا يكون باسم مفرد قوله ﷺ: (**أَفْضَلُ الْكَلَامِ بَعْدَ الْقُرْآنِ أَرْبَعٌ ـ وَهُنَّ مِنَ الْقُرْآنِ ـ: سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. وَاللهُ أَكْبَرُ**)، وهذه جمل مفيدة وليست أسماء مفردة.

[٢] وكذلك قوله ﷺ: (**كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ**)، وكل هذه جمل مفيدة، سماها كلمات، فالكلمة هنا يراد بها الجملة لا الاسم المفرد؛ ولهذا يقول ابن مالك في «الألفية»:

كلامنا لفظ مفيد كاستقم ... واسم وفعل ثم حرف الكلم
واحده كلمة والقول عم ... وكلمة بها كلام قد يؤم

فقوله: (**وكلمة بها كلام قد يؤم**)؛ أي: قد يقصد بالكلمة الكلام التام لا الاسم المفرد.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٢٠٢٢٣)، وقد علقه البخاري في صحيحه (٨/ ١٣٨).
(٢) أخرجه البخاري (٦٦٨٢).
(٣) أخرجه البخاري (٣٢٩٣)، ومسلم (٢٦٩١).

وَمَنْ قَالَ فِي يَوْمِهِ مِائَةَ مَرَّةٍ: «**سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ، حُطَّتْ عَنْهُ خَطَايَاهُ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ**»[١](١)، وَفِي الْمُوَطَّأِ وَغَيْرِهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «**أَفْضَلُ مَا قُلْتُهُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**»[٢](٢)، وَفِي سُنَنِ ابْنِ ماجه وَغَيْرِهِ عَنْهُ ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: «**أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الْحَمْدُ للهِ**»[٣](٣)، وَمِثْلُ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ كَثِيرَةٌ فِي أَنْوَاعِ مَا يُقَالُ مِنَ الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ.

وَكَذَلِكَ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ قَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وَقَوْلِهِ: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟

الشَّرْح

[١] **ولم يقل**: من قال في يومه مائة مرة: الله الله، أو هو هو، فإنه يحصل له هذا الثواب، بل جاء بجملة مفيدة تامة.

[٢] **ولم يقل**: أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: هو هو، أو: الله الله.

[٣] **وهاتان جملتان مفيدتان**، وليستا اسماً فقط أو ضميراً فقط.

٤ ـ **ومن شبههم الاستدلال** بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١] يقولون: **أي**: لم يقل عليه (الله): وليس هذا هو المراد بقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ بل المراد: إذا لم يقل الذابح: باسم الله، ولكنهم يحرفون الكلم عن مواضعه، وقد فسره النبي ﷺ بأن قال: باسم الله على الذبيحة(٤)، لما ذبح أضحيته.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٠٥)، ومسلم (٢٦٩١).
(٢) الموطأ (٢/ ٣٠٠)، وأخرجه الترمذي (٣٥٨٥).
(٣) سبق تخريجه (ص٢٧٦).
(٤) أخرجه البخاري (٥٥٥٨).

ﭐسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ [المائدة: ٤]، إِنَّمَا هُوَ قَوْلُهُ: بِاسْمِ اللهِ. وَهَذَا جُمْلَةٌ تَامَّةٌ إِمَّا اسْمِيَّةٌ عَلَى أَظْهَرِ قَوْلَي النُّحَاةِ؛ أَوْ فِعْلِيَّةٌ؛ وَالتَّقْدِيرُ ذَبْحِي بِاسْمِ اللهِ، أَوْ أَذْبَحُ بِاسْمِ اللهِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُ الْقَارِئِ: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠﴾ [النمل: ٣٠] فَتَقْدِيرُهُ: قِرَاءَتِي بِاسْمِ اللهِ؛ أَوْ أَقْرَأُ بِاسْمِ اللهِ.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُضْمِرُ فِي مِثْلِ هَذَا ابْتِدَائِي بِاسْمِ اللهِ؛ أَوِ ابْتَدَأْتُ بِاسْمِ اللهِ. وَالْأَوَّلُ أَحْسَنُ؛ لِأَنَّ الْفِعْلَ كُلَّهُ مَفْعُولٌ بِاسْمِ اللهِ، لَيْسَ مُجَرَّدُ ابْتِدَائِهِ كَمَا أَظْهَرَ الْمُضْمَرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ [العلق: ١]، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾ [هود: ٤١]، وَفِي قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: **«مَنْ كَانَ ذَبَحَ قَبْلَ الصَّلَاةِ فَلْيَذْبَحْ مَكَانَهَا أُخْرَى. وَمَنْ لَمْ يَكُنْ ذَبَحَ فَلْيَذْبَحْ بِاسْمِ اللهِ»**[١](١)، وَمِنْ هَذَا الْبَابِ

الشَّرْح

[١] **مثل ما جاء في هذه الأحاديث فالرسول يأمر بذكر اسم الله**، ويريد بذلك الجملة المفيدة، فقوله ﷺ: (**مَنْ كَانَ ذَبَحَ قَبْلَ الصَّلَاةِ فَلْيَذْبَحْ مَكَانَهَا أُخْرَى. وَمَنْ لَمْ يَكُنْ ذَبَحَ فَلْيَذْبَحْ بِاسْمِ الله**)، وقوله: (**فَلْيَذْبَحْ بِاسْمِ اللهِ**)؛ **أي**: ليقل: باسم الله، فهذا يفسر قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ [الأنعام: ١٢١]، أن المراد باسم الله: ليس الاسم المجرد، وإنما هو الجملة.

وقال لعمر بن أبي سلمة لما جالت يده في الصفحة، (**سَمِّ اللهِ وَكُلْ بِيَمِينِكَ؛ وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ**)، فقوله: (**سَمِّ الله**)؛ **أي**: قل باسم الله، وليس المراد أن يقول: الله، أو هو.

وكان عدي بن حاتم رضي الله عنه سأل النبي ﷺ عن الصيد ما يأكل منه وما يترك؛ فقال ﷺ: (**إِذَا أَرْسَلْتَ كَلْبَكَ الْمُعَلَّمَ وَذَكَرْتَ اسْمَ اللهِ فَكُلْ**)، والمراد =

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٠).

قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ لِرَبِيبِهِ عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ: «**سَمِّ اللهَ وَكُلْ بِيَمِينِكَ؛ وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ**»[(١)]، فَالْمُرَادُ: أَنْ يَقُولَ بِاسْمِ اللهِ. لَيْسَ الْمُرَادُ أَنْ يُذْكَرَ الِاسْمُ مُجَرَّداً. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ لِعَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ: «**إِذَا أَرْسَلْتَ كَلْبَكَ الْمُعَلَّمَ وَذَكَرْتَ اسْمَ اللهِ فَكُلْ**»[(٢)]، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ ﷺ: «**إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ مَنْزِلَهُ فَذَكَرَ اسْمَ اللهِ عِنْدَ دُخُولِهِ؛ وَعِنْدَ خُرُوجِهِ، وَعِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: لَا مَبِيتَ لَكُمْ وَلَا عَشَاءَ**»[(٣)]، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرٌ.

الشَّرح

= بقوله: (**وَذَكَرْتَ اسْمَ اللهِ**) أن: تقول: باسم الله عند إرساله، وليس المراد أن تقول: الله فقط.

وقال ﷺ: (**إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ مَنْزِلَهُ فَذَكَرَ اسْمَ اللهِ عِنْدَ دُخُولِهِ؛ وَعِنْدَ خُرُوجِهِ. وَعِنْدَ طَعَامِهِ. قَالَ الشَّيْطَانُ: لَا مَبِيتَ لَكُمْ وَلَا عَشَاءَ**)، فإذا أراد الإنسان أن يدخل بيته أو يخرج منه فليقل: باسم الله، ولم يقل النبي ﷺ: إذا أردت دخول بيتك، أو الخروج منه قل: الله أو هو.

فقول: (**الله أَكْبَرُ الله أَكْبَرُ**): جملة تامة، وقول: (**أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله؛ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ**): جملة تامة، وكلاهما لفظ مفيد، وكذلك قول: (**الله أَكْبَرُ. سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ. سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى. سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ. رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ. التَّحِيَّاتُ لله**): كلها جمل مفيدة، لا أن تقول: الله فقط أو هو، وهكذا كل الأذكار التي جاءت في الصلاة وغير الصلاة جمل مفيدة وليست أسماء مفردة ظاهرة أو مضمرة، كما يقول الصوفية، فليس لهم مجال أبداً.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٢٢).
(٢) أخرجه مسلم (١٩٢٩).
(٣) أخرجه مسلم (٢٠١٨).

وَكَذَلِكَ مَا شُرِعَ لِلْمُسْلِمِينَ فِي صَلَاتِهِمْ وَأَذَانِهِمْ وَحَجِّهِمْ وَأَعْيَادِهِمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى إِنَّمَا هُوَ بِالْجُمْلَةِ التَّامَّةِ؛ كَقَوْلِ الْمُؤَذِّنِ: اللهُ أَكْبَرُ. اللهُ أَكْبَرُ. أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ. وَقَوْلُ الْمُصَلِّي: اللهُ أَكْبَرُ. سُبْحَانَ رَبِّي الْعَظِيمِ. سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى. سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ. رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ. التَّحِيَّاتُ للهِ. وَقَوْلُ الْمُلَبِّي: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ. وَأَمْثَالُ ذَلِكَ. فَجَمِيعُ مَا شَرَعَهُ اللهُ مِنَ الذِّكْرِ إِنَّمَا هُوَ كَلَامٌ تَامٌّ لَا اسْمٌ مُفْرَدٌ لَا مُظْهَرٌ وَلَا مُضْمَرٌ.

وَهَذَا هُوَ الَّذِي يُسَمَّى فِي اللُّغَةِ كَلِمَةً[١]؛ كَقَوْلِهِ: «**كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ. ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ. حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ؛ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ**»(١)، وَقَوْلِهِ: «**أَفْضَلُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ كَلِمَةُ لَبِيدٍ:**

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلُ»(٢)

الشَّرْح

[١] أي: جملة مفيدة وليست لفظاً مفرداً، مثل ما جاء في هذه الأحاديث:

١ ـ من قوله ﷺ: (**كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ. ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ. حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ؛ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ**)، قال: كلمتان مع أنها جمل.

٢ ـ وقوله ﷺ: (**أَفْضَلُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ كَلِمَةُ لَبِيدٍ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلُ**)، في قصيدة مبدأها:

ألا كُلُّ شيءٍ ما خَلا الله باطِلُ وكلُّ نعيمٍ لا مَحالةَ زائِلُ =

(١) سبق تخريجه (ص٢٨٥).
(٢) أخرجه البخاري (٣٨٤١).

وَمِنْهُ قَوْلُه تَعَالَى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ الْآيَةُ [الكهف: ٥]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِمَّا اسْتُعْمِلَ فِيهِ لَفْظُ الْكَلِمَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، بَلْ وَسَائِرِ كَلَامِ الْعَرَبِ فَإِنَّمَا يُرَادُ بِهِ الْجُمْلَةُ التَّامَّةُ، كَمَا كَانُوا يَسْتَعْمِلُونَ الْحَرْفَ فِي الِاسْمِ، فَيَقُولُونَ: هَذَا حَرْفٌ غَرِيبٌ؛ أَيْ: لَفْظُ الِاسْمِ غَرِيبٌ.

وَقَسَّمَ سِيبَوَيْهِ الْكَلَامَ إِلَى اسْمٍ وَفِعْلٍ وَحَرْفٍ جَاءَ لِمَعْنًى، لَيْسَ بِاسْمٍ وَفِعْلٍ. وَكُلٌّ مِنْ هَذِهِ الْأَقْسَامِ يُسَمَّى حَرْفاً لَكِنْ خَاصَّةً الثَّالِثَ أَنَّهُ حَرْفٌ جَاءَ لِمَعْنًى لَيْسَ بِاسْمٍ وَلَا فِعْلٍ؛ وَسَمَّى حُرُوفَ الْهِجَاءِ بِاسْمِ الْحَرْفِ وَهِيَ أَسْمَاءٌ، وَلَفْظُ الْحَرْفِ يَتَنَاوَلُ هَذِهِ الْأَسْمَاءَ وَغَيْرَهَا؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَأَعْرَبَهُ فَلَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرُ حَسَنَاتٍ: أَمَا أَنِّي لَا أَقُولُ: (الم) حَرْفٌ وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَامٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ»**(١)، وَقَدْ سَأَلَ الْخَلِيلُ أَصْحَابَهُ عَنِ النُّطْقِ بِحَرْفِ الزَّايِ مِنْ زَيْدٍ فَقَالُوا: زَايٌ، فَقَالَ: جِئْتُمْ بِالِاسْمِ، وَإِنَّمَا الْحَرْفُ (ز).

الشَّرْح

= فقوله: **ألا كُلُّ شيءٍ ما خَلا الله باطِلُ**، سماها الرسول ﷺ: كلمة، مع أنها جملة.

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [الكهف: ٥]، وهي قولهم: ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۝٤﴾ [الكهف: ٤]، وهو كلام لا كلمة مفردة.

(١) أخرجه الترمذي (٢٩١٠)، والطبراني في المعجم الأوسط (٧/ ٣٠٧).

ثُمَّ إِنَّ النُّحَاةَ اصْطَلَحُوا عَلَى أَنَّ هَذَا الْمُسَمَّى فِي اللُّغَةِ بِالْحَرْفِ يُسَمَّى كَلِمَةً، وَأَنَّ لَفْظَ الْحَرْفِ يُخَصُّ لِمَا جَاءَ لِمَعْنًى، لَيْسَ بِاسْمٍ وَلَا فِعْلٍ؛ كَحُرُوفِ الْجَرِّ وَنَحْوِهَا، وَأَمَّا أَلْفَاظُ حُرُوفِ الْهِجَاءِ فَيُعَبَّرُ تَارَةً بِالْحَرْفِ عَنْ نَفْسِ الْحَرْفِ مِنَ اللَّفْظِ، وَتَارَةً بِاسْمِ ذَلِكَ الْحَرْفِ، وَلَمَّا غَلَبَ هَذَا الاصْطِلَاحُ صَارَ يَتَوَهَّمُ مَنِ اعْتَادَهُ أَنَّهُ هَكَذَا فِي لُغَةِ الْعَرَبِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَجْعَلُ لَفْظَ الْكَلِمَةِ فِي اللُّغَةِ لَفْظاً مُشْتَرَكاً بَيْنَ الِاسْمِ مَثَلاً وَبَيْنَ الْجُمْلَةِ، وَلَا يُعْرَفُ فِي صَرِيحِ اللُّغَةِ مِنْ لَفْظِ الْكَلِمَةِ إِلَّا الْجُمْلَةُ التَّامَّةُ.

وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ الْمَشْرُوعَ فِي ذِكْرِ اللهِ سُبْحَانَهُ هُوَ ذِكْرُهُ (بِجُمْلَةٍ تَامَّةٍ)، وَهُوَ الْمُسَمَّى بِالْكَلَامِ، وَالْوَاحِدُ مِنْهُ بِالْكَلِمَةِ، وَهُوَ الَّذِي يَنْفَعُ الْقُلُوبَ، وَيَحْصُلُ بِهِ الثَّوَابُ وَالْأَجْرُ، وَالْقُرْبُ إِلَى اللهِ وَمَعْرِفَتُهُ وَمَحَبَّتُهُ وَخَشْيَتُهُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْمَطَالِبِ الْعَالِيَةِ، وَالْمَقَاصِدِ السَّامِيَةِ. وَأَمَّا الِاقْتِصَارُ عَلَى (الِاسْمِ الْمُفْرَدِ) مُظْهَراً أَوْ مُضْمَراً فَلَا أَصْلَ لَهُ، فَضْلاً عَنْ أَنْ يَكُونَ مِنْ ذِكْرِ الْخَاصَّةِ وَالْعَارِفِينَ؛ بَلْ هُوَ وَسِيلَةٌ إِلَى أَنْوَاعٍ مِنَ الْبِدَعِ وَالضَّلَالَاتِ وَذَرِيعَةٌ إِلَى تَصَوُّرَاتِ أَحْوَالٍ فَاسِدَةٍ مِنْ أَحْوَالِ أَهْلِ الْإِلْحَادِ[١]، وَأَهْلِ الِاتِّحَادِ، كَمَا قَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ.

الشَّرْح

[١] **وهكذا البدع تجر إلى الشر دائماً وأبداً**، وأما السنن فهي تفيد القلوب، وتفيد السامعين، وتفيد المتكلم.

وَجِمَاعُ الدِّينِ (أَصْلَانِ)[١]: أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ، وَلَا نَعْبُدَهُ إِلَّا بِمَا شَرَعَ، لَا نَعْبُدُهُ بِالْبِدَعِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ۝١١٠﴾ [الكهف: ١١٠].

وَذَلِكَ تَحْقِيقُ «الشَّهَادَتَيْنِ»: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَشَهَادَةِ

الشَّرْح

• **ختام الرسالة:**

[١] **الذي يجمع الدين الصحيح الذي جاءت به الرسل من أولهم إلى آخرهم** أصلان لا ثالث لهما؛ وهذان الأصلان يُبنى عليهما الدين كله:

• **الأول: (أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ)**؛ وهناك من يعبد مع الله غيره.

• **فالأصل الأول**: أن لا نعبد إلا الله، فلا نشرك به شيئاً، بأي شيء سمي هذا الشرك؛ لأنه قد لا يسمى شركاً، بل يسمونه توسلاً، أو محبة للصالحين، أو ما أشبه ذلك، فيقولون: نحن نعلم أنه لا ينفع، ولا يضر، ولا يخلق، ولا يرزق إلا الله، ولكن نتخذ هذه الوسائط بيننا وبين الله لتشفع لنا عنده، مجرد شفاعة، كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، فهم لا يسمونه شركاً، وإنما يسمونه طلباً للشفاعة عند الله.

• **الأصل الثاني**: ليس للإنسان أن يعبد الله إلا بما شرعه الله ﷻ، وأمر به على ألسن أنبيائه ورسله، فليس باب العبادة مفتوحاً بأن تعبد الله بأي طريقة، ليس هناك إلا طريق واحد هو ما شرعه الله وهو الذي نعبد به الله ويُقبل عند الله، وأما الابتكارات في العبادات والتقربات التي ما أنزل الله بها من سلطان فهذه مردودة وهي بدع محدثة، حذر منها الأنبياء خصوصاً نبينا محمداً ﷺ فقد حذر من البدع، قال: **«مَنْ أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»**(١).

---

(١) سبق تخريجه.

أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ. فَفِي الْأُولَى أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا إِيَّاهُ، وَفِي الثَّانِيَةِ أَنَّ مُحَمَّداً هُوَ رَسُولُهُ الْمُبَلِّغُ عَنْهُ. فَعَلَيْنَا أَنْ نُصَدِّقَ خَبَرَهُ وَنُطِيعَ أَمْرَهُ[١]، وَقَدْ بَيَّنَ لَنَا مَا نَعْبُدُ اللهَ بِهِ[٢]، وَنَهَانَا عَنْ مُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ[٣]، وَأَخْبَرَ أَنَّهَا ضَلَالَةٌ. قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة: ١١٢].

كَمَا أَنَّا مَأْمُورُونَ أَلَّا نَخَافَ إِلَّا اللهَ وَلَا نَتَوَكَّلَ إِلَّا عَلَى اللهِ، وَلَا نَرْغَبَ إِلَّا إِلَى اللهِ، وَلَا نَسْتَعِينَ إِلَّا بِاللهِ، وَأَلَّا تَكُونَ عِبَادَتُنَا إِلَّا للهِ[٤]،

الشَّرْح

[١] **ونعمل بشريعته فمعنى شهادة أن محمداً رسول الله**: طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع.

[٢] **بيّن لنا ﷺ ما نعبد الله به**، ونهانا عن البدع، ونهانا عن الشرك.

[٣] قال ﷺ: **«وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»**(١). والأصلان جاءا في قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ﴾ [البقرة: ١١٢]، فـ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾؛ **أي**: أخلص عمله وهذا هو الأصل الأول، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾؛ **أي**: متبع للرسول ﷺ وهذا هو الأصل الثاني.

[٤] **فكما أننا مأمورون بالتوحيد وإفراد الله بالعبادة بجميع أنواعها**: من خوف، ورجاء، ورغبة، ورهبة، وتوكل.. إلى آخر أنواع العبادة، فكذلك نحن مأمورون باتباع الرسول ﷺ فنعمل بما جاء به، ونترك ما نهانا عنه، وقد أمرنا بعبادة الله ونهانا عن البدع والمحدثات.

---

(١) سبق تخريجه.

فَكَذَلِكَ نَحْنُ مَأْمُورُونَ أَنْ نَتَّبِعَ الرَّسُولَ[١] وَنُطِيعَهُ وَنَتَأَسَّى بِهِ[٢]؛ فَالْحَلَالُ مَا حَلَّلَهُ وَالْحَرَامُ مَا حَرَّمَهُ[٣]، وَالدِّينُ مَا شَرَعَهُ[٤].

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [التوبة: ٥٩][٥]، فَجَعَلَ الْإِيتَاءَ للهِ وَالرَّسُولِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧][٦]، وَجَعَلَ

الشَّرْح

[١] **أي: إننا مأمورون أن نتبع سُنَّته**، ونسير على نهجه، ونطيعه، لا نطيع أهواءنا، ولا نطيع غير الرسول ﷺ في أمور العبادة، وهو واجبنا نحو الرسول ﷺ.

[٢] **أي: نقتدي به**، هو القدوة، لا نقتدي بغيره في أمور العبادة، كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]؛ **أي**: قدوة، تتأسوا به، وتقتدوا به.

[٣] **الحلال ما أحله الله ورسوله والحرام ما حرمه الله ورسوله**، أما أقوال الناس وأقوال العلماء فما وافق قول الرسول ﷺ، أخذناه، وما خالف قول الرسول ﷺ تركناه، لا أحد يحلل ويحرم من عنده، وإنما هذا راجع إلى ما جاء به الرسول ﷺ.

[٤] **فلو جاء شخص وحرم شيئاً لم يحرمه الرسول ﷺ**، لا نطيعه، ولو جاء أحد وأحل ما حرمه الرسول ﷺ فلا نطيعه، ولو جاء أحد بدين غير دين الرسول لا نقبله، لا نقبل ديناً غير دين الرسول ﷺ.

[٥] **هذه الآية في سياق الرد على المنافقين الذين قال الله فيهم**: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ...﴾ [التوبة: ٥٨، ٥٩].

[٦] **فهذا ليس فيه شرك**، فالرسول يؤتي والله يؤتي؛ لأن هذا معناه العطاء من الصدقات والمال.

التَّوَكُّلَ عَلَى اللهِ وَحْدَهُ[١] بِقَوْلِهِ: ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾[٢]، وَلَمْ يَقُلْ وَرَسُولُهُ[٣]، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣][٤]. وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنفال: ٦٤][٥]؛ أَيْ: حَسْبُكَ وَحَسْبُ الْمُؤْمِنِينَ، كَمَا قَالَ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦][٦].

الشَّرْح

[١] **أما التوكل فهو عبادة فلا يكون إلا لله وحده،** ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة: ٢٣].

[٢] **أي:** كافينا.

[٣] **أي:** لم يقل: حسبنا الله ورسوله؛ لأن التوكل عبادة، والعبادة لا تكون إلا لله.

[٤] فالشاهد في قوله: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾؛ **أي:** كافينا، ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ ولما توكلوا على الله تعالى واعتمدوا عليه وخرجوا يريدون القتال فكفاهم الله شر أعدائهم.

[٥] قوله: (**وَمثله قَوْله:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾)؛ **أي:** كافيك، ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾؛ **أي:** وحسب من اتبعك من المؤمنين فهو كافيهم أيضاً، فالله كافي رسوله وكافي المؤمنين، فالواو: عاطفة، والمعطوف عليه ضمير المخاطب في ﴿حَسْبُكَ﴾: فيكون المعنى: حسبك الله وحسب من اتبعك من المؤمنين، وليس المراد أن: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ معطوف على الله ـ جلّ وعلا ـ.

[٦] **استفهام تقرير؛ أي:** هو ﷻ حافظه ومؤيده، ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾، فلا تلتفت إلى تخويفهم.

ثُمَّ قَالَ: ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ [التوبة: ٥٩]، فَجَعَلَ الْإِيتَاءَ للهِ وَالرَّسُولِ، وَقَدَّمَ ذِكْرَ الْفَضْلِ؛ لِأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمُ، وَلَهُ الْفَضْلُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَقَالَ: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [التوبة: ٥٩]، فَجَعَلَ الرَّغْبَةَ إِلَى اللهِ وَحْدَهُ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾﴾ [الشرح: ٧، ٨].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِابْنِ عَبَّاسٍ: «**إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ**»[١](١). وَالْقُرْآنُ يَدُلُّ عَلَى مِثْلِ هَذَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ.

فَجَعَلَ الْعِبَادَةَ وَالْخَشْيَةَ وَالتَّقْوَى للهِ، وَجَعَلَ الطَّاعَةَ وَالْمَحَبَّةَ للهِ وَرَسُولِهِ[٢]، كَمَا فِي قَوْلِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ

الشَّرح

[١] **أي: احفظ أوامره**، واجتنب نواهيه يحفظك سبحانه وتعالى مما تكره في الدنيا والآخرة؛ لأن الجزاء من جنس العمل، (**احْفَظِ الله تَجِدْهُ تُجَاهَكَ**)؛ **أي**: أمامك، فإذا وقعت في شدة فإن الله يخلصك منها لأنك حفظت دينه في حال الرخاء، فيحفظك الله في حال الشدة وتجده تجاهك، (**وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِالله**)؛ لأن الاستعانة من أنواع العبادة، قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥].

[٢] **جعل المحبة والطاعة لله وللرسول**، فالمؤمن يحب الله ويحب الرسول ﷺ، وليس في هذا شرك، فمحبة الرسول تابعة لمحبة الله، والطاعة كذلك، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [المائدة:٩٢]، فطاعة الرسول تكون تابعة لطاعة الله عز وجل.

=

(١) سبق تخريجه (ص١٣١).

وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾﴾ [نوح: ٣][١]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور: ٥٢][٢]، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ[٣].

فَالرُّسُلُ أَمَرُوا بِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ[٤] وَالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَالطَّاعَةِ لَهُمْ[٥]. فَأَضَلَّ الشَّيْطَانُ النَّصَارَى وَأَشْبَاهَهُمْ[٦] فَأَشْرَكُوا بِاللهِ وَعَصَوْا الرَّسُولَ فَـ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ

الشَّرْح

= بينما العبادة والخشية والتقوى لله، فلا يشاركه فيها أحد.

[١] **قول نوح** عليه السلام: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾: العبادة خاصة بالله عز وجل، ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ التقوى خاصة بالله عز وجل، ثم قال: ﴿وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾﴾؛ لأن طاعته طاعة لله، قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

[٢] **فالطاعة لله وللرسول**، ﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ﴾، فالخشية والتقوى لله، ولم يقل ـ: ومن يخشى الرسول ويتق الرسول.

[٣] أي: **أمثال ذلك كثير في القرآن**، لكن القرآن يحتاج إلى تدبر وإلى انتباه لسياقاته وأوامره ونواهيه حتى يفهم الإنسان القرآن على الوجه الصحيح.

[٤] **جميع الرسل أمروا بعبادة الله وأنكروا الشرك**، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، كل الرسل أمروا بها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، فكل الرسل جاءوا بالأمر بعبادة الله وحده، والنهي عن الشرك، هذا أجمع عليه الرسل عليهم الصلاة والسلام.

[٥] لأن هذه أنواع العبادة.

[٦] **فالنصارى**، وهم الذين ينتسبون إلى دين المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام عصوا المسيح وخالفوا أمره وعبدوا الله بما لم يشرعه لهم.

وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ [التوبة: ٣١]، فَجَعَـلُوا يَرْغَبُونَ إِلَيْهِمْ وَيَتَوَكَّلُونَ عَلَيْهِمْ وَيَسْأَلُونَهُمْ، مَعَ مَعْصِيَتِهِمْ لِأَمْرِهِمْ وَمُخَالَفَاتِهِمْ لِسُنَّتِهِمْ[١]، وَهَـدَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُخْلِصِينَ[٢] للهِ أَهْـلَ الصِّـرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، الَّذِينَ عَـرَفُوا الْحَقَّ وَاتَّبَعُوهُ فَلَمْ يَكُونُوا مِنَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ[٣]، فَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ للهِ، وَأَسْلَمُوا وُجُوهَهُمْ للهِ، وَأَنَابُوا إِلَى رَبِّهِمْ، وَأَحَبُّوهُ وَرَجَوْهُ وَخَافُوهُ وَسَأَلُوهُ وَرَغِبُوا إِلَيْهِ وَفَوَّضُوا أُمُورَهُمْ إِلَيْهِ وَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِ، وَأَطَاعُوا رُسُلَهُ وَعَزَّرُوهُمْ وَوَقَّرُوهُمْ وَأَحَبُّوهُمْ وَوَالَوْهُمْ وَاتَّبَعُوهُمْ، وَاقْتَفَوْا آثَارَهُمْ وَاهْتَدَوْا بِمَنَارِهِمْ[٤].

الشَّرْح

[١] **هم ينتسبون إلى المسيح وهم يعصونه**، يخالفونه، وهذا تناقض منهم.

[٢] **أي**: من النصارى فمنهم ناس مخلصون وعباد لله عز وجل، يعبدون الله وحده لا شريك له، والضلال والشرك إنما حصلا من بعضهم.

[٣] **وقد أمرنا الله ـ جلّ وعلا ـ أن نستعيذ من سبيل أهل الضلال وطريقهم وصراطهم**، قال تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾، وهم الذين جمعوا بين العلم النافع والعمل الصالح ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾، وهم الذين أخذوا العلم وتركوا العمل وهم اليهود، ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] وهم الذين أخذوا العمل وتركوا العلم، فهم يعبدون الله على جهل وضلال.

[٤] **هؤلاء هم المنعم عليهم**، في قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ فهذه صفاتهم، **(وَأَطَاعُوا رُسُلَهُ)**: كل الرسل؛ فالواجب طاعة الرسل كلهم، فمن جحد رسالة واحد منهم فهو كافر بالجميع، فلا بد من الإقرار برسالاتهم جميعاً، ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ولا بد من =

وَذَلِكَ هُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ الْأَوَّلِينَ والآخرين مِنَ الرُّسُلِ وَهُـوَ الدِّينُ الَّـذِي لَا يَقْبَلُ اللهُ مِـنْ أَحَـدٍ دِيناً إِلَّا إِيَّاهُ[١]، وَهُوَ حَقِيقَةُ الْعِبَادَةِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ.

فَنسْأَلُ اللهَ الْعَظِيمَ أَنْ يُثَبِّتَنَا عَلَيْهِ، وَيُكْمِلَهُ لَنا وَيُمِيتَنَا عَلَيْهِ وَسَائِرَ إِخْوَانِنَا الْمُسْلِمِينَ. وَالْحَمْدُ للهِ وَحْدَهُ. وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

غفر الله لشيخ الإسلام وتقبل الله منا ومنه،
وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء

الشَّرْح

= طاعتهم فيما جاءوا به من التوحيد والإخلاص في العبادة لله عَجَّلَ، (**وَعَزَّرُوهُمْ**)؛ **يعني**: وقّروهم، تعزير فلان معناه: التوقير والاحترام، ولم يتنقصوا أحداً منهم، (**وَأَحَبُّوهُمْ**)؛ **أي**: في الله عَجَّلَ، أولاً محبة الله، ثم محبة الرسل، ثم محبة المؤمنين.

[١] **الإسلام الذي هو**: الإخلاص لله عَجَّلَ بالعبادة بما شرعه، وهذا هو دين جميع المرسلين من أولهم إلى آخرهم. (**وَهُـوَ الدِّينُ الَّـذِي لَا يَقْبَلُ اللهُ مِـنْ أَحَـدٍ دِيناً إِلَّا إِيَّاهُ**) كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عِمرَان: ٨٥]، وقال ـ جلَّ وعلا ـ في أول السورة: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عِمرَان: ١٩]، وفي ذلك إخلاص العبادة عَجَّلَ.

❁ ❁ ❁

الفهرس[1]

(١) ما كان قبله (ـ) يعني موجود في الشرح. وما كان قبله (*) موجود في المتن.

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة